کتاب مقامات حریری عربی

از متروکات جعفر پاشا

[illegible]
٤٢٨٩

[illegible]
٩٤

الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

٤٢٨٩

هذه المقامات للامام ابي محمد القسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري

برسم الخزانة الشريفة اللطيفة
الفاطمية الهاشمية العلية الملكية المالكية
مولانا المقام العالي الشامي لطف الله
مولانا المقام محي الاسلام ...
المظفر ... الله

آمين آمين
آمين

رب هب لي من العلم سؤلي
وارض عني بحق آل الرسول
واسقني شربة بكف علي سيد الأوصيا وزوج البتول

كتبه العبد ... لطف الله وفقه الله

قد وقف هذه النسخة الجليلة سلطاننا الأعظم والخاقان المعظم مالك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان ابن السلطان السلطان الغازي محمود خان ... حرره الفقير أحمد شيخ زاده المفتش بأوقاف الحرمين الشريفين غفر لهما

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنا نحمدك على ما علّمت من البيان، وألهمت من التبيان، كما نحمدك على ما أسبغت من العطاء، وأسبلت من الغطاء، ونعوذ بك من شِرّة اللَّسَن، وفضول الهَذَر، كما نعوذ بك من معرّة اللَّكَن، وفضوح الحَصَر، ونستكفي بك الافتتان بإطراء المادح، وإغضاء المسامح، كما نستكفي بك الانتصاب لإزراء القادح، وهتك الفاضح، ونستغفرك من سوق الشهوات إلى سوق الشبهات، كما نستغفرك من نقل الخطوات، إلى خطط الخطيئات، ونستوهب منك توفيقاً قائداً إلى الرشد، وقلباً متقلباً مع الحق، ولساناً متحلياً بالصدق، ونطقاً مؤيداً بالحجة، وإصابة ذائدة عن الزيغ، وعزيمة قاهرة هوى النفس، وبصيرة ندرك بها عرفان القدر، وأن تسعدنا بالهداية إلى الدراية، وتعضدنا بالإعانة على الإبانة، وتعصمنا من الغواية في الرواية، وتصرفنا عن السفاهة في الفكاهة، حتى نأمن حصائد الألسنة، ونكفى غوائل الزخرفة، فلا نرد مورد مأثمة، ولا نقف موقف مندمة، ولا نرهق بتبعة ولا معتبة، ولا نلجأ إلى معذرة عن بادرة. اللهم فحقق لنا هذه المنية، وأنلنا هذه البغية، ولا تضحنا عن ظلك السابغ، ولا تجعلنا مضغة للماضغ، فقد مددنا إليك يد المسألة، وبخعنا بالاستكانة لك والمسكنة، واستنزلنا كرمك الجم، وفضلك الذي عمّ، بضراعة الطلب، وبضاعة الأمل، ثم بالتوسل بمحمد سيد البشر، الشفيع المشفع في المحشر، الذي ختمت به النبيين، وأعليت درجته في عليين، ووصفته في كتابك المبين، فقلت وأنت أصدق القائلين: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين. اللهم صل عليه وعلى آله الهادين، وأصحابه الذين شادوا الدين، واجعلنا لهديه وهديهم متبعين، وانفعنا بمحبته ومحبتهم أجمعين، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

وبعد فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب، الذي ركدت في هذا العصر ريحه، وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان، وعلامة همذان رحمه الله، وعزا إلى أبي الفتح الإسكندري نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها، وكلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا تتعرف، فأشار من إشارته حكم، وطاعته غنم، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع، فذاكرته بما قيل فيمن ألف من كلمتين، ونظم بيتاً أو بيتين، واستقلت من هذا المقام الذي فيه يحار الفهم، ويفرط الوهم، ويسبر غور العقل، وتبين فيه قيمة المرء، ويضطر صاحبه إلى أن يكون كحاطب ليل، أو جالب رجل وخيل، وقلّما سلم مكثار، أو أقيل له عثار، فلما لم يسعف بالإقالة، ولا أعفى من المقالة، لبيت دعوته تلبية المطيع، وبذلت في مطاوعته جهد المستطيع، وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة، وفطنة خامدة، وروية ناضبة، وهموم ناصبة، خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، إلى ما وشحتها به من الآيات، ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية، واللطائف الأدبية، والأحاجي النحوية، والفتاوى اللغوية، والرسائل المبتكرة، والخطب المحبرة، والمواعظ المبكية، والأضاحيك الملهية، مما أمليت جميعه على لسان أبي زيد السروجي، وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري، وما قصدت بالإحماض فيه إلا تنشيط قارئيه، وتكثير سواد طالبيه، ولم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا بيتين فذين أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية، وآخرين توأمين ضمنتهما خواتم المقامة الكرجية، وما عدا ذلك فخاطري أبو عذرته، ومقتضب حلوه ومرته، هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سباق غايات، وصاحب آيات، وأن المتصدي بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة قدامة، لا يغترف إلا من فضالته، ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته، ولله القائل:

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة ... بسعدى شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا ... بكاها فقلت الفضل للمتقدم

وأن يحوز أن لا أكون في الهذر الذي أوردته والمورد الذي توردت فيه
كالباحث عن حتفه بظلفه والجادع مارن أنفه بكفه فألحق بالأخسرين
أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا على أني
وإن أغمض لي الفطن المتغابي ونضح عني المحب المحابي لا أكاد أخلص
من غمر جاهل أو ذي غمر متجاهل يضع مني لهذا الوضع ويندد بأنه من مناهي
الشرع ومن نقد الأشياء بعين المعقول وأنعم النظر في مباني الأصول نظم
هذه المقامات في سلك الإفادات وسلكها مسلك الموضوعات عن العجماوات
والجمادات ولم يسمع بمن نبا سمعه عن تلك الحكايات أو أثم رواتها في وقت من الأوقات
ثم إذا كانت الأعمال بالنيات وبها انعقاد العقود الدينيات فأي
حرج على من أنشأ ملحا للتنبيه لا للتمويه ونحا بها منحى التهذيب لا
الأكاذيب وهل هو في ذلك إلا بمنزلة من انتدب لتعليم أو هدى إلى صراط مستقيم
على أني راض بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا علي ولا ليا وبالله أعتضد
فيما أعتمد وأعتصم مما يصم وأسترشد إلى ما يرشد فما المفزع إلا إليه ولا الاستعانة
إلا به ولا التوفيق إلا منه ولا الموئل إلا إليه عليه توكلت وإليه أنيب

المقامة الأولى الصنعانية

حدث الحارث بن همام قال
لما اقتعدت غارب الاغتراب وأنأتني المتربة عن الأتراب
طوحت بي طوائح الزمن إلى صنعاء اليمن فدخلتها خاوي الوفاض
بادي الإنفاض لا أملك بلغة ولا أجد في جرابي مضغة
فطفقت أجوب طرقاتها مثل الهائم وأجول في حوماتها جولان
الحائم وأرود في مسارح لمحاتي ومسايح غدواتي وروحاتي كريما
أخلق له ديباجتي وأبوح إليه بحاجتي أو أديبا تفرج رؤيته غمتي
وتروي روايته غلتي حتى أدتني خاتمة المطاف وهدتني فاتحة

الألطاف

إلى نادٍ رحيب محتوٍ على زحام ونحيب فولجت غابة الجمع لأسبر مجلبة الدمع
فرأيت في بهرة الحلقة شخصا شخت الخلقة عليه أهبة السياحة وله
رنة النياحة وهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر
وعظه وقد أحاطت به أخلاط الزمر إحاطة الهالة بالقمر والأكمام
بالثمر فدلفت إليه لأقتبس من فوائده وألتقط بعض فرائده فسمعته
يقول حين خب في مجاله وهدرت شقاشق ارتجاله أيها السادر
في غلوائه السادل ثوب خيلائه الجامح في جهالاته الجانح إلى خزعبلاته
إلام تستمر على غيك وتستمرئ مرعى بغيك وحتام تتناهى في
زهوك ولا تنتهي عن لهوك تبارز بمعصيتك مالك ناصيتك وتجترئ
بقبح سيرتك على عالم سريرتك وتتوارى عن قريبك وأنت بمرأى
رقيبك وتستخفي من مملوكك وما تخفى خافية على مليكك أتظن
أن ستنفعك حالك إذا آن ارتحالك أو ينقذك مالك حين توبقك
أعمالك أو يغني عنك ندمك إذا زلت قدمك أو يعطف عليك
معشرك يوم يضمك محشرك هلا انتهجت محجة اهتدائك وعجلت
معالجة دائك وفللت شباة اعتدائك وقدعت نفسك فهي أكبر أعدائك
أما الحمام ميعادك فما إعدادك وبالمشيب إنذارك فما أعذارك وفي
اللحد مقيلك فما قيلك وإلى الله مصيرك فمن نصيرك طالما أيقظك
الدهر فتناعست وجذبك الوعظ فتقاعست وتجلت لك
العبر فتعاميت وحصحص لك الحق فتماريت وأذكرك الموت فتناسيت
وأمكنك أن تؤاسي فما آسيت تؤثر فلسا توعيه على ذكر تعيه وتختار قصرا
تعليه على بر توليه وترغب عن هاد تستهديه إلى زاد تستهديه وتغلب
حب ثوب تشتهيه على ثواب تشتريه يواقيت الصلات أعلق بقلبك من
مواقيت الصلاة ومغالاة الصدقات آثر عندك من موالاة الصدقات
وصحاف الألوان أشهى إليك من صحائف الأديان ودعابة الأقران

أنّى لك من تلاوة القرآن تأمر بالعرف وتنتهك حماه، وتحمي عن النكر ولا تتحاماه، وتزحزح عن الظلم ثم تغشاه، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه، ثم أنشد

تبّاً لطالب دنيا ثنى إليها انصبابه

ما يستفيق غراماً بها وفرط صبابه

ولو درى لكفاه مما يروم صبابه

ثم إنه لبّد عجاجته، وغيّض مجاجته، واعتضد شكوته، وتأبّط هراوته، فلما رنت الجماعة إلى تحفّزه، ورأت تأهّبه لمزايلة مركزه، أدخل كل منهم يده في جيبه، فأفعم له سجلاً من سيبه، وقال اصرف هذا في نفقتك، أو فرّقه على رفقتك، فقبله منهم مغضياً، وانثنى عنهم مثنياً، وجعل يودّع من يشيّعه، ليخفى عليه مهيعه، ويسرّب من يتبعه، لكي يجهل مربعه، قال الحارث بن همام: فاتبعته مواريا عنه عياني، وقفوت أثره من حيث لا يراني، حتى انتهى إلى مغارة، فانساب فيها على غرارة، فأمهلته ريثما خلع نعليه، وغسل رجليه، ثم هجمت عليه، فوجدته مثافناً لتلميذ، على خبز سميذ وجدي حنيذ، وقبالتهما خابية نبيذ، فقلت له يا هذا أيكون ذاك خبرك، وهذا مخبرك، فزفر زفرة القيظ، وكاد يتميّز من الغيظ، ولم يزل يحملق إليّ، حتى خفت أن يسطو عليّ، فلما أن خبت ناره، وتوارى أواره، أنشد

لبست الخميصة أبغي الخبيصة ... وأنشبت شصّي في كل شيصه

وصيّرت وعظي أحبولةً ... أريغ القنيص بها والقنيصه

وألجأني الدهر حتى ولجت ... بلطف احتيالي على الليث عيصه

على أنني لم أهب صرفه ... ولا نبضت لي منه فريصه

ولا شرعت بي على مورد ... يدنّس عرضي نفس حريصه

ولو أنصف الدهر في حكمه ... لما ملّك الحكم أهل النقيصه

ثم قال لي ادن فكل، وإن شئت فقم وقل، فالتفتّ إلى تلميذه وقلت

عزمت عليك بمن تستدفع به الأذى لتخبرني من ذا، فقال هذا أبو زيد السروجي، سراج الغرباء، وتاج الأدباء، فانصرفت من حيث أتيت، وقضيت العجب مما رأيت

المقامة الثانية الحلوانية

حكى الحارث بن همام قال: كلفت مذ ميطت عني التمائم، ونيطت بي العمائم، بأن أغشى معان الأدب، وأنضي إليه ركاب الطلب، لأعلق منه بما يكون لي زينة بين الأنام، ومزنة عند الأوام، وكنت لفرط اللهج باقتباسه، والطمع في تقمّص لباسه، أباحث كل من جلّ وقلّ، وأستسقي الوبل والطلّ، وأتعلّل بعسى ولعلّ، فلما حللت حلوان، وقد بلوت الإخوان، وسبرت الأوزان، وخبرت ما شان وزان، ألفيت بها أبا زيد السروجي، يتقلّب في قوالب الانتساب، ويخبط في أساليب الاكتساب، فيدّعي تارة أنه من آل ساسان، ويعتزي مرة إلى أقيال غسّان، ويبرز طوراً في شعار الشعراء، ويلبس حيناً كبر الكبراء، بيد أنه مع تلوّن حاله، وتبيّن محاله، يتحلّى برواء وروايه، ومداراة ودرايه، وبلاغة رائعه، وبديهة مطاوعه، وآداب بارعه، وقدم لأعلام العلوم فارعه، فكان لمحاسن آلاته، يلبس على علّاته، ولسعة روايته، يُصبى إلى رؤيته، ولخلابة عارضته، يُرغب عن معارضته، ولعذوبة إيراده، يُسعف بمراده، فتعلّقت بأهدابه، لخصائص آدابه، ونافست في مصافاته، لنفائس صفاته، فكنت به أجلو همومي، وأجتلي زماني طلق الوجه، ملتمع الصباح، أرى قربه قربة، ومغناه منية، ورؤيته ريّا، ومحيّاه لي حيا، ولبثنا على ذلك برهة، ينشئ لي كل يوم نزهة، ويذود عن قلبي شبهة، إلى أن جدحت له يد الإملاق، كأس الفراق، وأغراه عدم العراق، بتطليق العراق، ولفظته معاوز الارتفاق، إلى مغاوز الآفاق، ونظمه في سلك الرفاق، خفوق رايات الإخفاق، فشحذ للرحلة غرار عزمته

وظعن يقتاد الفلك بأزمّته

فما راقني مَن لاقني بعد بُعده ... ولا شاقني مَن ساقني لوصاله
ولا لاح لي مذ ندّ بدرٌ لفضله ... ولا ذو خلالٍ حاز مثل خلاله

واستسرّ عنّي حيناً، لا أعرف له عريناً، ولا أجد عنه مبيناً. فلما أبت من غربتي، إلى منبت شعبتي، حضرت دار كتبها التي هي منتدى المتأدبين، وملتقى القاطنين منهم والمتغربين. فدخل ذو لحيةٍ كثّة، وهيئةٍ رثّة، فسلّم على الجلّاس، وجلس في أخريات الناس. ثم أخذ يبدي ما في وطابه، ويعجب الحاضرين بفصل خطابه. فقال لمن يليه: ما الكتاب الذي تنظر فيه؟ فقال: ديوان أبي عبادة، المشهود له بالإجادة. فقال: هل عثرت له فيما لمحته على بديعٍ استملحته؟ فقال: نعم قوله:

كأنما يبسم عن لؤلؤٍ ... منضّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاح

فإنه أبدع في التشبيه المودع فيه. فقال له: يا للعجب، ولضيعة الأدب! لقد استسمنت يا هذا ذا ورم، ونفخت في غير ضرم. أين أنت من البيت النادر الجامع مشبّهات الثغر؟ وأنشد:

نفسي الفداء لثغرٍ راق مبسمه ... وزانه شنبٌ ناهيك من شنب
يفترّ عن لؤلؤٍ رطبٍ وعن بَرَدٍ ... وعن أقاحٍ وعن طلعٍ وعن حبب

فاستجاده من حضر واستحلاه، واستعاده منه واستملاه، وسئل: لمن هذا البيت؟ وهل حيٌّ قائله أم ميت؟ فقال: أيم الله للحقّ أحقّ أن يتّبع، وللصدق حقيقٌ بأن يستمع. إنه يا قوم لنجيّكم منذ اليوم. فكأنّ الجماعة ارتابت بعزوته، وأبت تصديق دعوته. فتوجّس ما هجس في أفكارهم، وفطن لما بطن من استنكارهم، وحاذر أن يفرط إليه ذمّ، فقرأ: إنّ بعض الظنّ إثم. ثم قال: يا رواة القريض، وأساة القول المريض، إنّ خلاصة الجوهر تظهر بالسبك، ويد الحقّ تصدع رداء الشكّ، وقد قيل فيما غبر من الزمان: عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان.

وها أنا قد عرّضت خبيئتي للاختبار، وعرضت حقيبتي على الاعتبار. فانبرى أحد من حضر، وقال: أعرف بيتاً لم ينسج على منواله، ولا سمحت قريحة بمثاله، فإن آثرت اختلاب القلوب، فانظم على هذا الأسلوب. وأنشد للوأواء الدمشقي:

فأمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت ... ورداً وعضّت على العنّاب بالبَرَد

فلم يكن إلا كلمح البصر أو أقرب، حتى أنشد فأغرب:

سألتها حين زارت نضو برقعها الـ ... ـقاني وإيداع سمعي أطيب الخبر
فزحزحت شفقاً غشّى سنا قمرٍ ... وساقطت لؤلؤاً من خاتمٍ عطر

فحار الحاضرون لبداهته، واعترفوا بنزاهته. فلما آنس استئناسهم بكلامه، وانصبابهم إلى استغراب إكرامه، أطرق كطرفة العين، وقال: دونكم بيتين آخرين. وأنشد:

وأقبلت يوم جدّ البين في حللٍ ... سودٍ تعضّ بنان النادم الحصر
فلاح ليلٌ على صبحٍ أقلّهما ... غصنٌ وضرّست البلّور بالدرر

فحينئذ استنبل الحضور قيمته، واستغزروا ديمته، وأجملوا عشرته، وحلّوا قشرته.

قال المخبر: فلما رأيت تلألؤ جذوته، وتألّق حلوته، أمعنت في توسّمه، وسرّحت طرفي في ميسمه، فإذا هو شيخنا السروجي، وقد أقمر ليله الدجوجي. فهنّأت نفسي بمورده، وابتدرت استلام يده، وقلت له: ما الذي أحال صفتك، حتى جهلت معرفتك؟ وأيّ شيءٍ شيّب لحيتك، حتى أنكرت حليتك؟ فأنشأ يقول:

وقع الشوائب شيّب ... والدهر بالناس قلّب
إن دان يوماً لشخصٍ ... ففي غدٍ يتغلّب
فلا تثق بوميضٍ ... من برقه فهو خلّب
واصبر إذا هو أضرى ... بك الخطوب وألّب
فما على التبر عارٌ ... في النار حين يقلّب

ثم نهض مفارقاً موضعه، ومستصحباً القلوب معه.

المقامة الثالثة الدينارية

روى الحارث بن همّام قال: نظمني وأخداناً لي نادٍ

لم يخب فيه منادٍ ولا كبا قدح زناد ولا ذكت نار عناد فبينا نحن نتجاذب أطراف الأناشيد ونتوارد طرف الأسانيد إذ وقف بنا شخص عليه سمل وفي مشيته قزل فقال يا أخاير الذخائر وبشائر العشائر عِموا صباحا وأنعموا اصطباحا وانظروا إلى من كان ذا نديٍّ وندى وجِدةٍ وجَدا وعقار وقِرى ومَقارٍ وقُرى فما زال به قطوب الخطوب وحروب الكروب وشرر شرّ الحسود وانتياب النوب السود حتى صفرت الراحة وقرعت الساحة وغار المنبع ونبا المربع وأقوى المجمع وأقضّ المضجع واستحالت الحال وأعول العيال وخلت المرابط ورحم الغابط وأودى الناطق والصامت ورثى لنا الحاسد والشامت وآل بنا الدهر الموقع والفقر المدقع إلى أن احتذينا الوجى واغتذينا الشجى واستبطنّا الجوى وطوينا الأحشاء على الطوى واكتحلنا السهاد واستوطنّا الوهاد واستوطأنا القتاد وتناسينا الأقتاد واستطبنا الحين المجتاح واستبطأنا اليوم المتاح فهل من حرٍّ آسٍ أو سمحٍ مؤاسٍ فوالذي استخرجني من قيلة لقد أمسيت أخا عيلة لا أملك بيت ليلة قال الحارث بن همام فأويت لمفاقره ولويت إلى استنباط فقره فأبرزت له دينارا وقلت له اختبارا إن مدحته نظما فهو لك حتما فانبرى ينشد في الحال من غير انتحال

أكرم به أصفرَ راقت صفرته ... جوّابَ آفاقٍ ترامت سفرته
مأثورةٌ سمعته وشهرته ... قد أودعت سرَّ الغنى أسرّته
وقارنت نجح المساعي خطرته ... وحُبّبت إلى الأنام غرّته
كأنما من القلوب نقرته ... به يصول من حوته صرّته
وإن تفانت أو توانت عترته ... يا حبذا نضاره ونضرته
وحبذا مغناته ونصرته ... كم آمرٍ به استتبّت إمرته
ومترفٍ لولاه دامت حسرته ... وجيش همٍّ هزمته كرّته

وبدر تمٍّ أنزلته بدرته ... ومستشيطٍ تتلظى جمرته
أسرّ نجواه فلانت شِرّته ... وكم أسيرٍ أسلمته أسرته
أنقذه حتى صفت مسرّته ... وحقِّ مولى أبدعته فطرته
لولا التقى لقلت جلّت قدرته

ثم بسط يده بعدما أنشد وقال أنجز حرٌّ ما وعد وسحّ خالٌ إذ رعد فنبذت الدينار إليه وقلت خذه غير مأسوف عليه فوضعه في فيه وقال بارك الله فيه ثم شمّر للانثناء بعد توفية الثناء فنشأت لي من فكاهته نشوة غرام سهّلت عليّ ائتناف اغترام فجرّدت دينارا آخر وقلت له هل لك في أن تذمّه ثم تضمّه فأنشد مرتجلا وشدا عجلا

تبًّا له من خادعٍ مماذق ... أصفرَ ذي وجهين كالمنافق
يبدو بوصفين لعين الرامق ... زينةِ معشوقٍ ولونِ عاشق
وحبه عند ذوي الحقائق ... يدعو إلى ارتكاب سخط الخالق
لولاه لم تقطع يمين سارق ... ولا بدت مظلمةٌ من فاسق
ولا اشمأزّ باخلٌ من طارق ... ولا شكا الممطول مطل العائق
ولا استعيذ من حسودٍ راشق ... وشرّ ما فيه من الخلائق
أن ليس يغني عنك في المضايق ... إلا إذا فرّ فرار الآبق
واهًا لمن يقذفه من حالق ... ومن إذا ناجاه نجوى الوامق
قال له قول المحقّ الصادق ... لا رأي في وصلك لي ففارق

فقلت له ما أغزر وبلك فقال والشرط أملك فنفحته بالدينار الثاني وقلت له عوّذهما بالمثاني فألقاه في فمه وقرنه بتوأمه وانكفأ يحمد مغداه ويمدح النادي ونداه قال الحارث بن همام فناجاني قلبي بأنه أبو زيد وأنّ تعارجه لكيد فاستعدته وقلت له قد عُرفت بوشيك فاستقم في مشيك فقال إن كنت ابن همام فحُيّيت بإكرام وحَييت بين كرام فقلت أنا الحارث فكيف حالك والحوادث فقال أتقلّب في الحالين بؤسٍ ورخاء وأنقلب مع الريحين زعزعٍ ورخاء فقلت كيف ادّعيت القزل وما مثلك من هزل فاستسرّ بشره الذي كان تجلّى ثم

أنشد حين ولّى

تعارجت لا رغبةً في العرج ... ولكن لأقرع باب الفرج
وألقي حبلي على غاربي ... وأسلك مسلك من قد مرج
فإن لامني القوم قلت اعذروا ... فليس على أعرجٍ من حرج

المقامة الرابعة الدمياطية

أخبر الحارث بن همام قال ظعنت إلى دمياط عام هياط ومياط وأنا يومئذٍ مرموق الرخاء موموق الإخاء أسحب مطارف الثراء وأجتلي معارف السراء فرافقت صحبًا قد شقوا عصا الشقاق وارتضعوا أفاويق الوفاق حتى لاحوا كأسنان المشط في الاستواء وكالنفس الواحدة في التئام الأهواء وكنا مع ذلك نسير النجاء ولا نرحل إلا كل هوجاء وإذا نزلنا منزلًا أو وردنا منهلًا اختلسنا اللبث ولم نطل المكث فعنّ لنا إعمال الركاب في ليلة فتية الشباب غدافية الإهاب فأسرينا إلى أن نضا الليل شبابه وسلت الصبح خضابه فحين مللنا السرى وملنا إلى الكرى صادفنا أرضًا مخضلة الربى معتلة الصبا فتخيرناها مناخًا للعيس ومحطًا للتعريس فلما حلها الخليط وهدأ بها الأطيط والغطيط سمعت صيّتًا من الرجال يقول لسميره في الرحال كيف حكم سيرتك مع جيلك وجيرتك فقال أرعى الجار ولو جار وأبذل الوصال لمن صال وأحتمل الخليط ولو أبدى التخليط وأودّ الحميم ولو جرعني الحميم وأفضل الشفيق على الشقيق وأفي للعشير وإن لم يكافئ بالعشير وأستقل الجزيل للنزيل وأغمر الزميل بالجميل وأنزل سميري منزلة أميري وأحل أنيسي محل رئيسي وأودع معارفي عوارفي وأولي مرافقي مرافقي وألين مقالي للقالي وأديم تسآلي عن السالي وأرضى من الوفاء باللفاء وأقنع من الجزاء بأقل الأجزاء ولا أتظلم حين أظلم ولا أنقم ولو لدغني الأرقم فقال له صاحبه ويك يا بني إنما يضن بالضنين وينافس في الثمين ولكني لا آتي غير المواتي ولا أسم العاني لمن يعاني ولا أصافي من يأبى إنصافي ولا أواخي من يلغي الأواخي ولا أمالي من يخيب آمالي ولا أبالي بمن صرم حبالي ولا أداري من جهل مقداري ولا أعطي زمامي من يخفر ذمامي ولا أبذل ودادي لأضدادي ولا أدع إيعادي للمعادي ولا أغرس الأيادي في أرض الأعادي ولا أسمح بمواساتي لمن يفرح بمساءتي ولا أرى

التغاضي

التغاضي إلى من يشمت بوفاتي ولا أخص بحبائي إلا أحبائي ولا أنشط لدآئي إلا أودائي ولا أملك خلتي من لا يسد خلتي ولا أصفي نيتي لمن يتمنى منيتي ولا أخلص دعائي لمن لا يسمع دعائي ولا أفرغ ثنائي على من يفرغ إنائي ومن حكم بأن أبذل وتخزن وألين وتخشن وأذوب وتجمد وأذكو وتخمد لا والله بل نتوازن في المقال وزن المثقال ونتحاذى في الفعال حذو النعال حتى نأمن التغابن ونكفى التضاغن وإلا فلم أعلك وتعلني وأقلك وتستقلني وأجرح لك وتجرحني وأسرح إليك وتسرحني وكيف تجتلب إنصافًا بضيم وأنى تشرق شمس مع غيم ومتى أصحب ودٌّ بعنف وأنى أرضي خطة خسف ولله أبوك إذ يقول

جزيت من أعلق بي ودّه ... جزاء من يبني على أسّه
وكلت للخل كما كال لي ... على وفاء الكيل أو بخسه
ولم أخسّره وشرّ الورى ... من يومه أخسر من أمسه
وكل من يطلب عندي جنى ... فما له إلا جنى غرسه
لا أبتغي الغبن ولا أنثني ... بصفقة المغبون في حسّه
ولست بالموجب حقًا لمن ... لا يوجب الحق على نفسه
ورب مذّاق الهوى خالني ... أصدقه الودّ على لبسه
وما درى من جهله أنني ... أقضي غريمي الدين من جنسه
فاهجر من استغناك هجر القلى ... وهبه كالملحود في رمسه
والبس لمن في وصله لبسةٌ ... لباس من يرغب عن أنسه
ولا ترجّ الودّ ممن يرى ... أنك محتاج إلى فلسه

قال الحارث بن همام فلما وعيت ما دار بينهما تقت إلى أن أعرف عينهما فلما لاح ابن ذكاء وألحف الجوّ الضياء غدوت قبل استقلال الركاب ولا اغتدى الغراب وجعلت أستقري صوب الصوت الليلي وأتوسم الوجوه بالنظر الجلي إلى أن لمحت أبا زيد وابنه يتحادثان وعليهما بردان رثّان فعلمت أنهما نجيا ليلتي ومناجيا ويلتي فقصدتهما قصد كلف

بدل ما أنهما تراث لرأيتهما وأخبثهما التحول إلى رحلي والتحكم في كثري وقلي وطفقت
أستثير الشيارة فصلها وأهز الأعواد المثمرة لها حتى عمرا بالتحلان والتحدام الحلان
وتماتع رسيس منه بنيان القرى وتنثوى بنيران القرى فلما رأى أبو زيد امتلاء كيسه
وانجلاء بوسه قال لي إن بدني قد اتسخ ودرني قد ترسخ أفتأذن في قصد قرية
لأستحم وأقضي هذا المهم فقلت إذا شئت فالسرعة السرعة والرجعة الرجعة
فقال ستجد مطلعي عليك أسرع من ارتداد طرفك إليك ثم استن استنان الجواد
في المضمار وقال لابنه بدار بدار ولم نخل أنه غر وطلب المفر فلبثنا نرقبه
رقبة الأعياد ونستطلعه بالطلائع والرواد إلى أن هرم النهار وكاد جرف
اليوم ينهار فلما طال أمد الانتظار ولاحت الشمس في الأطمار قلت لأصحابي قد تناهينا في المهل
وتمادينا في الرحلة إلى أن أضعنا الزمان وبان أن الرجل مان فتأهبوا
للظعن ولا تلووا على خضراء الدمن ونهضت لأحدج راحلتي وأتحمل لرحلتي فوجدت
أبا زيد قد كتب على القتب

يا من غدا لي ساعدا ومساعدا دون البشر
لا تحسبن أني نأيت عن ملال أو أشر
لكنني مذ لم أزل ممن إذا طعم انتشر

قال فأقرأت الجماعة القتب ليعذره من كان عتب فأعجبوا بخرافته وتعوذوا من آفته
ثم إنا ظعنا ولم ندر من اعتاض عنا

المقامة الخامسة الكوفية

حكى الحارث بن همام قال سمرت بالكوفة في ليلة أديمها ذو لونين وقمرها كتعويذ
من لجين مع رفقة غذوا بلبان البيان وسحبوا على سحبان ذيل النسيان ما فيهم إلا
من يحفظ عنه ولا يتحفظ منه ويميل الرفيق إليه ولا يميل عنه فاستهوانا السمر إلى أن غرب
القمر وغلب السهر فلما روق الليل البهيم ولم يبق إلا التهويم سمعنا من الباب
نبأة مستنبح ثم تلتها صكة مستفتح فقلنا من الملم في الليل المدلهم فقال

يا أهل ذا المغنى وقيتم شرا ولا لقيتم ما بقيتم ضرا

قد دفع الليل الذي اكفهرا إلى ذراكم شعثا مغبرا
أخا سفار طال واسبطرا حتى انثنى محقوقفا مصفرا
مثل هلال الأفق حين افترا وقد عرا فناءكم معترا
وأمكم دون الأنام طرا يبغي قرى منكم ومستقرا
فدونكم ضيفا قنوعا حرا يرضى بما احلولى وما أمرا
وينثني عنكم ينث البرا

قال الحارث بن همام فلما خلبنا بعذب نطقه وعلمنا ما وراء برقه فتحنا الباب وتلقيناه
بالترحاب وقلنا للغلام هيا هيا وهلم ما تهيا فقال الضيف والذي أحلني ذراكم لا تلمظت
بقراكم أو تضمنوا لي أن لا تتخذوني كلا ولا تجشموا لأجلي أكلا فرب أكلة هاضت الآكل
وحرمته مآكل وشر الأضياف من سام التكليف وآذى المضيف خصوصا أذى يعلق
بالأجسام ويفضي إلى الأسقام وما قيل في المثل الذي سار سائره خير العشاء سوافره
إلا ليعجل التعشي ويجتنب أكل الليل الذي يعشي اللهم إلا أن تقد نار الجوع وتحول دون
الهجوع قال فكأنه اطلع على إرادتنا فرمى عن قوس عقيدتنا لا جرم أنا آنسناه بالتزام الشرط
وأثنينا على خلقه السبط ولما أحضر الغلام ما راج وأذكى بيننا السراج تأملته
فإذا هو أبو زيد فقلت لصحبي ليهنكم الضيف الوارد بل المغنم البارد فإنه إن
أفل قمر الشعرى فقد طلع قمر الشعراء أو استسر بدر النثرة فقد تبلج بدر النثر
فسرت حميا المسرة فيهم وطارت السنة عن مآقيهم ورفضوا الدعة التي كانوا
نووها وثابوا إلى نشر الفكاهة بعد ما طووها وأبو زيد مكب على إعمال يديه
حتى إذا استرفع ما لديه قلت له أطرفنا بغريبة من غرائب أسمارك
أو عجيبة من عجائب أسفارك فقال لقد بلوت من العجائب ما لم يره الراؤون
ولا رواه الراوون وإن من أعجبها ما عاينته الليلة قبيل انتيابكم

فاستخبرناه عن طرقه مرآةً في مسرح مسراه فقال إن مرامي الغربة لفظتني إلى هذه التربة وأنا ذو مجاعة وبوسى وجراب كفؤاد أم موسى فنهضت حين سجا الدجى على ما بي من الوجى لأرتاد مضيفاً أو أقتاد رغيفاً فساقني حادي السغب والقضاء المكنّى أبا العجب إلى أن وقفت على باب دارٍ فقلت

حُيّيتمُ يا أهلَ هذا المنزلِ ... وعشتمُ في خفضِ عيشٍ خضِلِ
ما عندكم لابنِ سبيلٍ مُرملِ ... نِضوِ سُرًى خابطِ ليلٍ أليَلِ
جوي الحشا على الطوى مشتملِ ... ما ذاق مذ يومانِ طعمَ مأكلِ
ولا له في أرضكم من موئلِ ... وقد دجا جنحُ الظلامِ المسبلِ
وهو من الحيرة في تململِ ... فهل بهذا الربعِ عذبُ المنهلِ
يقول لي ألقِ عصاك وادخلِ ... وابشر ببشرٍ وقرًى معجّلِ

قال فبرز إليّ جؤذرٌ عليه شوذرٌ وقال

وحرمةِ الشيخِ الذي سنّ القِرى ... وأسّس المحجوجَ في أمّ القُرى
ما عندنا لطارقٍ إذا عرا ... سوى الحديثِ والمُناخِ في الذرا
وكيف يَقري من نفى عنه الكرى ... طوًى برى أعظُمَه لمّا انبرى
فما ترى فيما ذكرتُ ما ترى

فقلت ما أصنع بمنزلٍ قفرٍ ومُنزِلٍ حِلفِ فقرٍ ولكن يا فتى ما اسمك فقد فتنني فهمك فقال اسمي زيد ومنشأي فَيد ووردت هذه المدرة أمسِ مع أخوالي من بني عبس فقلت له زدني إيضاحاً عشتَ ونُعِشت فقال أخبرتني أمي برّة وهي كاسمها برّة أنها نكحت عام الغارة بماوان رجلاً من سراة سروج وغسان فلما آنس منها الإثقال وكان بالقعة على ما يقال ظعن عنها سرّاً وهلمّ جرّاً فما يُعرف أحيٌّ هو فيُتوقّع أم أُودع اللحدَ البلقع **قال أبو زيد** فعلمت بصحة العلامات أنه ولدي وصدفني عن التعرّف إليه صفرُ يدي ففصلت عنه بكبدٍ مرضوضة ودموعٍ مفضوضة فهل سمعتم يا أولي الألباب بأعجبَ من هذا العجاب فقلنا لا ومن عنده علم الكتاب فقال أثبتوها في عجائب الاتفاق وخلّدوها

بطون

بطون الأوراق فما سُيّر مثلها في الآفاق فأحضرنا الدواة وأساودها ورقّشنا الحكاية على سردها ثم استنبطناه عن رأيه في استضمام فتاه فقال إذا ثقل ردني خفّ عليّ أن أكفل ابني فقلنا إن كان يكفيك نصابٌ من المال ألّفناه لك في الحال فقال وكيف لا يُقنعني نصاب وهل يحتقر قدره إلا مُصاب **قال الراوي** فالتزم منّا كلٌّ قسطاً وكتب له به قِطّاً فشكر عند ذلك الصنع واستنفد في الثناء الوسع حتى إنّا استطلنا القول واستقللنا الطَّول ثم إنه نشر من وشي السمر ما أزرى بالحِبَر إلى أن أظلّ التنوير وجشر الصبحُ المنير فقضيناها ليلةً غابت شوائبها إلى أن شابت ذوائبها وكمل سعودها إلى أن انفطر عودها ولما ذرّ قرنُ الغزالة طمر طمورَ الغزالة وقال انهض بنا لنقبض الصلات ونستنضّ الإحالات فقد استطارت صدوع كبدي من الحنين إلى ولدي فوصلت جناحه حتى سُنّيت نجاحه فحين أحرز العين في صُرّته برقت أسارير مسرّته فقال لي جُزيت خيراً عن خطى قدميك والله خليفتي عليك فقلت أريد أن أتبعك لأشاهد ولدك النجيب وأناقده لكي يجيب فنظر إليّ نظرة الخادع إلى المخدوع وضحك حتى تغرغرت مقلتاه بالدموع ثم أنشد

يا من تظنّى السرابَ ماءً ... لمّا رويتُ الذي رويتُ
ما خلتُ أن يستسرّ مكري ... وأن يُخيّل الذي عنيتُ
واللهِ ما برّةٌ بعرسي ... ولا لي ابنٌ به اكتنيتُ
وإنما لي فنونُ سحرٍ ... أُبدع فيها وما اقتديتُ
لم يحكها الأصمعيُّ فيما ... حكى ولا حاكها الكُميتُ
تخذتُها وُصلةً إلى ما ... يجنيه كفّي متى اشتهيتُ
ولو تعافيتُها لحالت ... حالي ولم أحوِ ما حويتُ
فمهّدِ العذرَ أو فسامح ... إن كنتُ أجرمتُ أو جنيتُ

ثم إنه ودّعني ومضى وأودع قلبي جمر الغضى

المقامة السادسة المراغية

روى الحارث بن همام قال حضرت ديوان النظر بالمراغة وقد جرى به ذكر البلاغة فأجمع من حضر من فرسان اليراعة

وأرباب البراعة على أنه لم يبق من ينقح الإنشاء ويتصرف فيه كيف يشاء ولا خلف
بعد السلف من يبتدع طريقة غرّاء أو يفترع رسالة عذراء وأن المفلق
من كتاب هذا الأوان المتمكن من أزمّة البيان كالعيال على الأوائل ولو ملك فصاحة
سحبان وائل وكان في المجلس كهل جالس في الحاشية وعند مواقف الحاشية
فكان كلما شط القوم في شوطهم ونثروا العجوة والنوى من نوطهم ينبئ تخازر
طرفه وتشامخ أنفه أنه مخرنبق لينباع ومجرمز سيمد الباع ونابض
يبري النبال ورابض يبغي النضال فلما نثلت الكنائن وفاءت السكائن
وركدت الزعازع وكف المنازع أقبل على الجماعة وقال لقد جئتم شيئا إدّا
وجرتم عن القصد جدا وعظمتم العظام الرفات وافتتنتم بالميل إلى من
فات وغمصتم جيلكم الذين فيهم لكم اللدات ومعهم انعقدت المودات
أنسيتم يا جهابذة النقد ومواندة الحل والعقد ما أبرزته طوارف
القرائح وبرز فيه الجذع على القارح من العبارات المهذبة والاستعارات
المستعذبة والرسائل الموشحة والأساجيع المستملحة وهل للقدماء
إذا أنعم النظر من حضر غير المعاني المطروقة الموارد المعقولة الشوارد المأثورة عنهم
لتقادم المولد لا لتقدم الصادر على الوارد وإني لأعرف الآن من إذا أنشأ
وشى وإذا عبّر حبّر وإن أسهب أذهب وإن أوجز أعجز وإن بده شده ومتى
اخترع خرع فقال له ناظورة الديوان وعين أولئك الأعيان من قارع هذه
الصفاة وقريع هذه الصفات فقال إنه قرن مجالك وقرين جدالك وإذا
شئت فرض نجيبا وادع مجيبا لترى عجيبا فقال له يا هذا إن البغاث
بأرضنا لا يستنسر والتمييز عندنا بين الفضة والقضة متيسر وقلّ
من استهدف للنضال فخلص من الداء العضال أو استثار نقع الامتحان فلم
يقذ بالامتهان فلا تعرض عرضك للمفاضح ولا تعرض عن نصاحة الناصح فقال
كل امرئ أعرف بوسم قدحه وسيتفرى الليل عن صبحه فتناجت الجماعة

فيما

فيما يسر به قلبه ويعلق به تقليبه فقال أحدهم ذروه في حصتي لأرميه بحجر قصتي فإنها
عضلة العقد ومحك المنتقد فقلدوه في هذا الأمر الزعامة تقليد الخوارج أبا نعامة
فأقبل على الكهل وقال اعلم أني أوالي هذا الوالي وأرتق حالي بالبيان الحالي وكنت
أستعين على تقويم أودي في بلدي بسعة ذات يدي مع قلة عددي فلما ثقل حاذي
ونفد رذاذي أممته من أرجائي برجائي ودعوته لإعادة روائي وإحيائي
فهش للوفادة وراح بالإفادة وغدا بالإبادة وراح فلما استأذنته في المراح إلى المراح
على كاهل المراح قال قد أزمعت أن لا أزودك بتاتا ولا أجمع لك شتاتا أو
تنشئ أمام ارتحالك رسالة تودعها شرح حالك حروف إحدى كلمتيه يعمها النقط
وحروف الأخرى لم يعجمن قط وقد استأنيت بياني حولا فما أحار قولا ونبهت
فكري سنة فما ازداد إلا سنة واستعنت بقاطبة الكتاب فكلّ منهم قطب وتاب
فإن كنت صدعت عن وصفك اليقين فأت بآية إن كنت من الصادقين فقال له لقد
استسعيت يعبوبا واستسقيت أسكوبا وأعطيت القوس باريها وأسكنت الدار
بانيها ثم فكّر ريثما استجمّ قريحته واستدرّ لقحته وقال له ألق دواتك وخذ
أداتك واكتب

الكرم . ثبّت الله جيش . سعودك . يزين
واللؤم . غضّ . الدهر . جفن . حسودك . يشين
والأروع . يثيب . والمعور . يخيب . والحلاحل . يضيف
والماحل . يخيف . والسمح . يغذي . والمحك . يقذي
والعطاء . ينجي . والمطال . يشجي . والدعاء . يقي
والمدح . ينقي . والحر . يجزي . والإلطاط . يخزي
واطّراح . ذي . الحرمة . غيّ . ومحرمة . بني الآمال .
بغي . وما ضنّ . إلا غبي . ولا غبن . إلا ضني . ولا خزن .
إلا شقي . ولا قبض . راحة . تقي . وما فتئ . وعدك إلا
يفي . وآراؤك . تشفي . وحلك . يغضي . وهلالك يضي

وآلاؤك تغني • وأعداؤك تثني • وحسامك يفني • وسوددك
يبني • ومواصلك يجتني • ومادحك يقتني • وسماحك يغيث
ونماؤك يغيث • ودرك يفيض • وردك يغيض • ومؤملك
شيخ حاله ثي • وربيته له شي • أمله بطين
حرصه يشب • ومدحك يجب • مهورها ينحت • ومرامه
يخف • وأواصره تشف • وملامه تجتذب • وإطراقه تحتث
ووراءه ضفف • مسهم شظف • وجضهم جنف
وعمهم قشف • وهو بن دمع • يخب
ووليه يذيب • وهمه تضيف • وكمده تنيف
لمأموله خيب • وعدوه شتت • وأهاله بيت
وهدوه تغيب • ولم يرع • وده • فيغضض
ولا خبث عوده • فينقض • ولا نفث صدره • فينفض
ولا نشر وضله • فيبغض • وما يقتضي كرمك • نبذ
حرمه • ونبض أمله • بتحيف • ألمه • بيت جمدل
من عاله • بقيت لإماطة شجب • وإعطاء نشب • ومداواة شجن
ومراعاة بقض • موصولا • غنض • وسرور • غض ما غشي
معهد • غني • أو خشي • وهمه • غني • والسلام

فلما فرغ من إملاء رسالته • وجلى في هيجاء البلاغة عن بسالته • أرضته الجماعة فعلاً وقولاً • وأوسعته حباءً وطولاً • ثم سئل من أي الشعوب نجاره • وفي أي الشعاب وجاره • فقال

غسان أسرتي الصميمة • وسروج تربتي القديمه •
فالبيت مثل الشمس إشراقاً • ومنزلة جسيمه •
والربع كالفردوس مطيبة • ومنزهة وقيمه •
واهاً لعيش كان لي • ولذات عميمه •
أيام أسحب في روضها • ماضي العزيمه •
أختال في برد الشباب • وأجتلي النعم الوسيمه •
لا أتقي نوب الزمان • ولا حوادثه الملمه •
فلو ان كرباً متلفاً • لتلفت من كربي المقيمه •
أو يفتدى عيش مضى • لفدته مهجتي الكريمه •
فالموت خير للفتى من • عيشه عيش البهيمه •
تقتاده برة الصغار • إلى العظيمة والهضيمه •
ويرى السباع تنوشها • أيدي الضباع المستضيمه •
والذنب للأيام لولا • سوؤها لم تنب شيمه •
ولو استقامت كانت الأحوال فيها مستقيمه •

ثم إن خبرته نمى إلى الوالي فملأ فاه باللآلي • وسامه أن ينضوي إلى أحشائه ويلي ديوان إنشائه • فأحسبه الحباء وظلفه عن الولاية الإباء • قال الراوي وكنت عرفت عود شجرته قبل إيناع ثمرته • وكدت أنبه على قدره • قبل استنارة بدره • فأوحى إلي بإيماض جفنه • أن لا أجرد عضب مرجفنه • فلما خرج بطين الخرج • وفصل فائزاً بالفلج • شيعته قاضياً حق الرعاية • ولاحياً له على رفض الولاية • فأعرض متبسماً • وأنشد مترنماً •

لجوب البلاد مع المتربة • أحب إلي من المرتبه •
لأن الولاة لهم نبوة • ومعتبة يا لها معتبه •
وما فيهم من يرب الصنيع • ولا من يشيد ما رتبه •
فلا تخدعنك لموع السراب • ولا تأت أمراً إذا ما اشتبه •
فكم حالم سره حلمه • وأدركه الروع لما انتبه •

المقامة السابعة البرقعيدية

حكى الحارث بن همام قال أزمعت الشخوص من برقعيد وقد شمت برق عيد فكرهت الرحلة عن تلك المدينة أو أشهد بها يوم الزينة فلما أظل بفرضه ونفله واجلب بخيله ورجله اتبعت السنة في لبس الجديد وبرزت مع من برز للتعييد وحين

وحين التأم جمع المصلّي وانتظم واحد الزحام بالكظم طلع شيخ في شملتين
محجوب المقلتين وقد اعتضد شبه المخلاة واستقاد لعجوز كالسعلاة فوقف
وقفة متهافت وحيّا تحية خافت ولما فرغ من دعائه أجال خمسه في
وعائه فأبرز منه رقاعا قد كتبن بألوان الأصباغ في أوان الفراغ فناولهن
عجوزه الحيزبون وأمرها بأن تتوسّم الزبون فمن آنست ندى يديه
ألقت ورقة منهن لديه قال فأتاح لي القدر المعتوب رقعة فيها مكتوب

لقد أصبحت موقوذا بأوجاع وأوجالِ
وممنوّا بمحتالٍ ومختالٍ ومغتالِ
وخوّانٍ من الإخوان قالٍ لي لإقلالِ
وإعمالٍ من العمّال في تصليع أعمالي
فكم أصلى بإذحالٍ وإمحالٍ وترحالِ
وكم أخطرُ في بالٍ ولا أخطر في بالِ
فليت الدهر لمّا جار أطفا لي أطفالي
فلولا أنّ أشبالي أغلالي وأغلالي
لما جهّزت آمالي إلى آلٍ ولا والِ
ولا جرّرت أذيالي على مسحب إذلالِ
فمحرابي أحرى بي وأسمالي أسمى لي
ويطفي حرّ بلبالي بسربالي وسروالي

قال الحارث بن همام

فلما استعرضت حلّة الأبيات تقت إلى معرفة منجمها وراقم علمها فناجاني الفكر بأن الوصلة إليه العجوز وأفتاني بأن حلوان المعرّف يجوز فرصدتها وهي تستقري الصفوف صفّا صفّا وتستوكف الألّف كفّا كفّا وما إن نجح لها عناء ولا رشح على يدها إناء فلما أكدى استعطافها وكدّها مطافها عاذت بالاسترجاع ومالت إلى ارتجاع الرقاع وأنساها الشيطان ذكر رقعتي

فلم

فلم تعج إلى بقعتي وآبت إلى الشيخ باكية للحرمان شاكية تحامل الزمان فقال
إنا لله وأفوّض أمري إلى الله ولا حول ولا قوة إلا بالله

لم يبق صافٍ ولا مصافٍ ولا معينٌ ولا مَعينُ
وفي المساوي بدا التساوي فلا أمينٌ ولا ثمينُ

ثم قال لها منّي النفس وعِديها وأجمعي الرقاع
وعُدّيها فقالت لقد عددتها لما استعدتها فوجدت يد الضياع قد غالت إحدى الرقاع
فقال تعسا لك يا لكاع لقد أنُحرم ويلك الحبالة والقنص والقبس والذبالة إنها لضغث
على إبالة فانصاعت تقتصّ مدرجها وتنشد مدرجها فلما دانتني قرنت بالرقعة
درهما وقطعة وقلت لها إن رغبت في المشوف المعلم وأشرت إلى الدرهم فبوحي بالسرّ المبهم
وإن أبيت أن تشرحي فخذي القطعة واسرحي فمالت إلى استخلاص البدر التمّ والإلحاح الملمّ
وقالت دع جدالك وسل عما بدا لك فاستطلعتها طلع الشيخ وبلدته والشعر وناسج بردته
فقالت إن الشيخ من أهل سروج وهو الذي وشّى الشعر المنسوج ثم خطفت الدرهم خطفة
الباشق ومرقت مروق السهم الراشق فخالج قلبي أن أبا زيد هو المشار إليه وتأجّج
كربي للمصاب بناظريه وآثرت أن أفاجيه وأناجيه لأعجم عود فراستي فيه وما كنت
لأصل إليه إلا بالتخطّي المنهي عنه في الشرع وعفت أن يتأذى بي قوم أولي
الحلوم فسددت مكاني وجعلت أشخص إليه بعياني إلى أن انقضت الخطبة وحقّت الوثبة
فخففت إليه وتوسّمته على التمام حقبة فإذا ألمعيتي ألمعية ابن عباس وفراستي فراسة
إياس فعرّفته حينئذ شخصي وآثرته بأحد قمصي وأهبت به إلى قرصي فهشّ لعارفتي وعارفي
ولبّى دعوة رغفاني وانطلق ويدي زمامه وظلّي إمامه والعجوز ثالثة الأثافي والرقيب
الذي لا يخفى عليه خافي ولما استحلسته وكني وأحضرته عجالة متمكّني قال يا حارث أمعنا ثالث
قلت ليس إلا العجوز فقال ما دون هذه سرّ محجوب ثم فتح كريمتيه ورأرأ بتوأمتيه فإذا سراجا وجهه
يتّقدان كأنهما الفرقدان فابتهجت بسلامة بصره وعجبت من غرائب سيره ولم يلفني قرار ولا طاوعني
اصطبار حتى سألته ما دعاك إلى التعامي مع سيرك في الموامي وجوبك الفيافي وإيغالك في المرامي
فتظاهر باللكنة وتشاغل باللهنة حتى إذا قضى وطره أتأر إليّ نظره وأنشد

ولمّا تعامى الدهر وهو أبو الورى عن الرشد في أنحائه ومقاصده

تعاميت حتى قيل إني أخو عمى ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده ثم قال لي انهض إلى المخدع
وأتني بغسول يروق الطرف وينقي الكف وينعم البشرة ويعطر النكهة ويشد اللثة ويقوي
المعدة وليكن نظيف الظرف أريج العرف فتي الدق ناعم السحق تحسبه اللامس ذرورا
ويخاله الناشق كافورا واقرن به خلالة نقية الأصل محبوبة الوصل أنيقة الشكل مدعاة إلى
الأكل لها نحافة الصب وصقال العضب وآلة الحرب ولدونة الغصن الرطب
قال فنهضت فيما أمر لأدرأ عنه الغمر ولم أهتد إلى أنه قصد أن يخدع بإدخالي المخدع
ولا تظنيت أنه سخر من الرسول واستدعاء الخلالة والغسول فلما عدت بالملتمس في
أقرب من رجع النفس وجدت الجو قد خلا والشيخ والشيخة قد أجفلا فاستشطت
من مكره غضبا وأوغلت في إثره طلبا فكان كمن قمس في الماء أو عرج به إلى السماء

المقامة الثامنة المعرية

أخبر الحارث بن همام قال رأيت من
أعاجيب الزمان أنه تقدم خصمان إلى قاضي معرة النعمان أحدهما قد ذهب منه الأطيبان
والآخر كأنه قضيب البان فقال الشيخ أيد الله القاضي كما أيد به المتقاضي إنه
كانت لي مملوكة رشيقة القد أسيلة الخد صبور على الكد تخب أحيانا كالنهد وترقد
أطوارا في المهد وتجد في تموز مس البرد ذات عقل وعنان وحد وسنان وكف ببنان
وفم بلا أسنان تلدغ بلسان نضناض وترفل في ذيل فضفاض وتجلى في سواد وبياض
وتسقى من غير حياض ناصحة خدعة وخبأة طلعة مطبوعة على المنفعة ومطواعة في الضيق
والسعة إذا قطعت وصلت ومتى فصلتها عنك انفصلت وطالما خدمتك فجملت وربما
جنت عليك فآلمت وململت وإن هذا الفتى استخدمنيها لغرض فأخدمته إياها بلا عوض
على أن يجتني نفعها ولا يكلفها إلا وسعها فأولج فيها متاعه وأطال بها استمتاعه ثم أعادها
وقد أفضاها وبذل عنها قيمة لا أرضاها فقال الحدث أما الشيخ فأصدق من القطا
وأما الإفضاء ففرط عن خطا وقد رهنته على أرش ما أوهنته مملوكا لي متناسب الطرفين
منتسبا إلى القين نقيا من الدرن والشين يقارن محله سواد العين يفشي الإحسان
وينشي الاستحسان ويغذي الإنسان ويتحامى اللسان إذا سود جاد أو وسم أجاد وإذا زود
وهب الزاد ومتى استزيد زاد لا يستقر بمغنى وقلما ينكح إلا مثنى يسخو بموجوده
ويسمو

١٢

ويسمو عند جوده وينقاد مع قرينته وإن لم تكن من طينته ويستمتع بزينته وإن
لم يطمع في لينته فقال لهما القاضي إما أن تبينا وإلا فبينا فابتدر الغلام وقال

أعارني إبرة لأرفو أطمارا عفاها البلى وسودها
فانخرمت في يدي على خطإ مني لما جذبت مقودها
فلم ير الشيخ أن يسامحني بأرشها إذ رأى تأودها
بل قال هات إبرة تماثلها أو قيمة بعد أن تجودها
واعتاق ميلي رهنا لديه وناهيك بها سنة تردها
فالعين من رهنه ويدي تقصر عن أن تفك مرودها
فاسبر بذا الشرح غور مسكنتي وارث لمن لم يكن تعودها

فأقبل القاضي على الشيخ وقال إيه بغير تمويه فقال

أقسمت بالمشعر الحرام ومن ضم من الناسكين خيف منى
لو ساعفتني الأيام لم ترني مرتهنا ميله الذي رهنا
لكن قوس الخطوب ترشقني مصميات من هاهنا وهنا
وخبر حالي كخبر حالته ضرا وبؤسا وغربة وضنى
قد عدل الدهر بيننا فأنا نظيره في الشقاء وهو أنا
لا هو يستطيع فك مرودة لما عدا في يدي مرتهنا
ولا مجالي لضيق ذات يدي فيه اتساع للعفو حين جنى
فهذه قصتي وقصته فانظر إلينا وبيننا ولنا

فلما وعى القاضي قصصهما وقصهما وتبين خصاصتهما وخصاصهما أبرز لهما دينارا من تحت
مصلاه وقال اقطعا به الخصام وافصلا فتلقفه الشيخ دون الحدث واستخلصه على وجه
الجد لا العبث وقال للحدث نصفه لي بسهم مبرتي وسهمك لي عن أرش إبرتي ولست
عن الحق أميل فقم وخذ الميل فعرا الحدث لما حرت اكتئاب وحم له القاضي وهيج أسفه على

على الدينار الماضي إلا أنه حزب الفتى وبلباله بدر مهمات رضخ بها له وقال لهما احسما المعاملة
وادرآ المخاصمات ولا تحضراني في المحاكمات فما عندي لبس الغرامات فنهضا من عنده فرحين
يرفلان مفتضحين والقاضي ما تخبو ضجرته مذ بضت جمرته ولا يتصل كمده مذ نشح جلده
حتى إذا أفاق من غشيته أقبل على غاشيته وقال قد أشرب حسي ونبأني حدسي أنهما
صاحبا دهاء لا خصما ادعاء فكيف السبيل إلى سبرهما واستنباط سرهما فقال له
نحرير زمرته وشارة جمرته إنه لن يتم استخراج خبئهما إلا بهما فقفاهما
عونا يرجعهما إليه فلما مثلا بين يديه قال لهما اصدقاني سن بكركما ولكما الأمان
من تبعة مكركما فأحجم الحدث واستقال وأقدم الشيخ وقال

أنا السروجي وهذا ولدي والشبل في المخبر مثل الأسد
وما تعدت يده ولا يدي في إبرة يوما ولا في مرود
وإنما الدهر المسيء المعتدي مال بنا حتى غدونا نجتدي
كل ندي الراحة عذب المورد وكل جعد الكف مغلول اليد
بكل فن وبكل مقصد بالجد إن أجدى وإلا باليد
لنجلب الرشح إلى الحظ الصدي وننفد العمر بعيش أنكد
والموت من بعد لنا بالمرصد إن لم نفاجأ اليوم فاجا في غد

فقال له القاضي لله دركما فما أعذب نفثات فيكما وواها لكما لولا خداع فيكما وإني لكما من
المنذرين وعليكما من المحذرين فلا تماكرا بعدها الحاكمين واتقيا سطوة المتحكمين
فما كل مسيطر يقيل ولا كل أوان يسمع القيل فعاهده الشيخ على اتباع مشورته
والارتداع عن تلبيس صورته وفصلا عن حضرته واختر بلع من حضرته قال الحارث
بن همام فلم أر أعجب منها في تصاريف الأسفار ولا قرأت مثلها في تصانيف الأسفار

المقامة التاسعة

أخبر الحارث بن همام قال طحا بي مرح الشباب وهوى الاكتساب
إلى أن جبت ما بين فرغانة وغانة أخوض الغمار لأجني الثمار وأقتحم الأخطار
لكي

لكي أدرك الأوطار وكنت لقفت من أفواه العلماء وثقفت من
وصايا الحكماء أنه يلزم الأريب إذا دخل البلد الغريب أن يستميل قاضيه
ويستخلص مراضيه ليشتد ظهره عند الخصام ويأمن في الغربة جور الحكام
فاتخذت هذا الأدب إماما وجعلته لمصالحي زماما فما دخلت مدينة
ولا ولجت عرينة إلا وامتزجت بحاكمها امتزاج الماء بالراح وتقويت
بعنايته تقوي الأجساد بالأرواح فبينما أنا عند حاكم الإسكندرية
في عشية عرية وقد أحضر مال الصدقات ليفضه على ذوي الفاقات
إذ دخل شيخ عفرية تعتله امرأة مصبية فقالت أيد الله القاضي وأدام
به التراضي إني امرأة من أكرم جرثومة وأطهر أرومة وأشرف خؤولة وعمومة
ميسمي الصون وشيمتي الهون وخلقي نعم العون وبيني وبين جاراتي بون وكان
أبي إذا خطبني بناة المجد وأرباب الجد سكتهم وبكتهم وعاف وصلتهم وصلاتهم
واحتج بأنه عاهد الله تعالى بحلفة ألا يصاهر غير ذي حرفة فقيض
القدر لنصبي ووصبي أن حضر هذا الخدعة نادي أبي فأقسم بين رهطه إنه
وفق شرطه وادعى أنه طالما نظم درة إلى درة فباعهما ببدرة فاغتر
أبي بزخرف محاله وزوجنيه قبل اختبار حاله فلما استخرجني من كناسي ورحلني
عن أناسي ونقلني إلى كسره وحصلني تحت أسره وجدته قعدة جثمة ضجعة نومة
وكنت صحبته برياش وزي وأثاث وري فما برح يبيعه في سوق الهضم ويتلف
ثمنه في الخضم والقضم إلى أن مزق ما لي بأسره وأنفق ما لي في عسره فلما أنساني
طعم الراحة وغادر بيتي أنقى من الراحة قلت له يا هذا إنه لا مخبأ بعد بوس
ولا عطر بعد عروس فانهض للاكتساب بصناعتك واجن ثمرة براعتك فزعم
أن صناعته قد رميت بالكساد لما ظهر في الأرض من الفساد ولي منه سلالة
كأنها خلالة وكلانا ما ينال معه شبعة ولا ترقأ له دمعة وقد قدته إليك
وأحضرته لديك لتعجم عود دعواه وتحكم بيننا بما أراك الله فأقبل القاضي
عليه وقال له قد وعيت قصص عرسك فبرهن عن نفسك وإلا كشفت

عن لبسك وأمرت بحبسك فأطرق إطراق الأفعوان ثم شمّر للحرب العوان وقال

اسمع حديثي فإنه عجب ... يضحك من شرحه وينتحب
أنا امرؤ ليس في خصائصه ... عيب ولا في فخاره ريب
سروج داري التي ولدت بها ... والأصل غسان حين أنتسب
وشغلي الدرس والتبحر في الـ ... ـعلم طلابي وحبذا الطلب
ورأس مالي سحر الكلام الذي ... منه يصاغ القريض والخطب
أغوص في لجة البيان فأخـ ... ـتار اللآلي منها وأنتخب
وأجتني اليانع الجني من الـ ... ـقول وغيري للعود محتطب
وآخذ اللفظ فضة فإذا ... ما صغته قيل إنه ذهب
وكنت من قبل أمتري نشبا ... بالأدب المقتنى وأحتلب
ويمتطي أخمصي لحرمته ... من بات لي فوقها رتب
وطالما زفت الصلات إلى ... ربعي فلم أرض كل من يهب
فاليوم من يعتلق الرجاء به ... أكسد شيء في سوقه الأدب
لا عرض أبنائه يصان ولا ... يرقب فيهم إلّ ولا نسب
كأنهم في عراصهم جيف ... يبعد من نتنها ويجتنب
فحار لبي لما منيت به ... من الليالي وصرفها عجب
وضاق ذرعي لضيق ذات يدي ... وساورتني الهموم والكرب
وقادني دهري الملم إلى ... سلوك ما لا يشينه الحسب
فبعت حتى لم يبق لي لبد ... ولا أثاث إليه أنقلب
وادّنت حتى أثقلت الفتى بحمل ... دين من دونه العطب
ثم طويت الحشا على سغب ... خمساً فلما أمضني السغب
لم أر إلا جهازها عرضا ... أجول في بيعه وأضطرب
فجلت فيه والنفس كارهة ... والعين عبرى والقلب مكتئب
وما تجاوزت إذ عبثت به ... حد التراضي فيحدث الغضب
فإن يكن غاظها توهمها ... أن بناني بالنظم تكتسب
أو أنني إذ عرضت خطبتها ... زخرفت قولي لينجح الأرب
فوالذي سارت الرفاق إلى ... كعبته تستحثها النجب
ما المكر بالمحصنات من خلقي ... ولا شعاري التمويه والكذب
ولا يدي مذ نشأت نيط بها ... إلا أفاضي اليراع والكتب
بل فكرتي تنظم القلائد لا ... كفي وشعري المنظوم لا السخب
وهذه الحرفة المشار إلى ... ما كنت أجني بها وأجتلب
فأذن لشرحي كما أذنت لها ... ولا تراقب واحكم بما يجب

قال فلما أحكم ما شاده وأكمل إنشاده عطف القاضي إلى الفتاة بعد أن شغف بالأبيات وقال أما إنه قد ثبت عند جميع الحكام وولاة الأحكام انقراض جيل الكرام وميل الأيام إلى اللئام وإني لأخال بعلك صدوقاً في الكلام بريئاً من الملام وها هو قد اعترف لك بالقرض وصرّح عن المحض وبيّن مصداق النظم وتبيّن أنه معروق العظم وإعنات المعذر ملأمة وحبس المعسر مأثمة وكتمان الفقر زهادة وانتظار الفرج بالصبر عبادة فارجعي إلى خدرك واعذري أبا عذرك ونهنهي من غربك وسلمي لقضاء ربك ثم إنه فرض لهما في الصدقات حصة وناولهما من دراهمه قبضة وقال لهما تعللا بهذه العلالة وتنديا ببلال هذه البلالة واصبرا على كيد الزمان وكده فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فنهضا وللشيخ فرحة المطلق من الإسار وهزة الموسر بعد الإعسار **قال الراوي** وكنت عرفت أنه أبو زيد ساعة بزغت شمسه ونزغت عرسه وكدت أفصح عن أفانينه وأثمار أفنانه ثم أشفقت من عثور القاضي على بهتانه وتزويق لسانه فلا يرى عند عرفانه أن يرشحه لإحسانه فأحجمت عن القول إحجام المرتاب وطويت ذكره كطي السجل للكتاب إلا أني قلت بعدما فصل ووصل إلى ما وصل لو أن لنا من ينطلق في أثره لأتانا بفص خبره وما ينشر من حبره فأتبعه القاضي أحد أمنائه وأمره بالتجسس على أنبائه فما لبث أن رجع متدهدهاً وقهقر مقهقهاً فقال له القاضي مهيم يا أبا مريم فقال لقد عاينت عجباً وسمعت ما أنشأ لي طرباً فقال له ماذا رأيت وما الذي وعيت

قال لم يزل الشيخ منذ خرج يصفق بيديه ويخالف بين رجليه ويغرد بملء شدقيه ويقول

كدت أصلى بليه من وقاح شمرية
وأزور السجن لولا حاكم الإسكندرية

فضحك القاضي حتى هوت دنيته وذوت سكينته فلما فاء إلى الوقار وعقب الاستغراب بالاستغفار قال اللهم بحرمة عبادك المقربين حرم حبسي على المتأدبين ثم قال لذلك الأمين علي به فانطلق مجدا في طلبه ثم عاد بعد لأي مخبرا بنأيه فقال القاضي أما إنه لو حضر لكفي الحذر ثم لأوليته ما هو به أولى ولأريته أن الآخرة خير له من الأولى قال الحارث بن همام فلما رأيت صغو القاضي إليه وفوت نهزة التنبيه عليه غشيتني ندامة الفرزدق حين أبان النوار والكسعي لما استبان النهار

المقامة العاشرة الرحبية

حكى الحارث بن همام قال هتف بي داعي الشوق إلى رحبة مالك بن طوق فلبيته ممتطيا شملة ومنتضيا عزمة مشمعلة فلما ألقيت بها المراسي وشددت أمراسي وبرزت من الحمام بعد تسبيد راسي رأيت غلاما أفرغ في قالب الجمال وألبس من الحسن حلة الكمال وقد علق شيخ بردنه يدعي أنه فتك بابنه والغلام ينكر عرفته ويكبر قرفته والخصام بينهما مستطير الشرار والزحام عليهما يجمع بين الأخيار والأشرار إلى أن تراضيا بعد اشتطاط اللدد بالتنافر إلى والي البلد وكان ممن يزن بالهنات ويغلب حب البنين على البنات فأسرعا إليه عدوة كالسليك في عدوته فاستنطق الغلام وقد فتنه بمحاسن غرته وطر عقله بتصفيف طرته فقال إنها أفيكة أفاك على غير سفاك وعضيهة محتال على غير مغتال فقال الوالي للشيخ إن يشهد لك عدلان من المسلمين وإلا فاستوف منه اليمين فقال الشيخ إنه جدله خاليا وأراق دمه خاليا فأنى لي شاهد ولم يكن ثم مشاهد ولكن ولني تلقينه اليمين ليبين لك أيصدق أم يمين فقال له أنت المالك لذلك مع وجدك المتهالك على ابنك الهالك فقال الشيخ للغلام قل والذي زين الجباه بالطرر والعيون بالحور والحواجب بالبلج والمباسم بالفلج والجفون بالسقم والأنوف بالشمم والخدود باللهب والثغور بالشنب والبنان بالترف والخصور بالهيف إنني ما قتلت ابنك سهوا ولا

عمدا ولا جعلت هامته لسيفي غمدا وإلا فرمى الله جفني بالعمش وخدي بالنمش وطرتي بالجلح وطلعتي بالكلح ووردي بالبهار ومسكي بالبخار وبدري بالمحاق وفضتي بالاحتراق وشعاعي بالظلام ودواتي بالأقلام فقال الغلام الاصطلاء بالبلية ولا الإيلاء بهذه الألية والانقياد للقود ولا الحلف بما لم يحلف به أحد وأبى الشيخ إلا تجرعه اليمين التي اخترعها وأمقر له جرعها ولم يزل اللدد بينهما يستعر ومحجة التراضي تعر والغلام في ضمن تأبيه يخلب الوالي بتلويه ويطمعه في أن يلبيه إلى أن ران هواه على قلبه وألب بلبه وسول له الوجد الذي تيمه والطمع الذي هيمه أن يخلص الغلام ويستخلصه وأن ينقذه من حبالة الشيخ ثم يقتنصه فقال للشيخ هل لك فيما هو أليق بالأقوى وأقرب للتقوى فقال إلام تشير لأقتفيه ولا أقف فيه فقال أرى أن تقصر عن القيل والقال وتقتصر على مائة مثقال لأتحمل منها بعضا وأحتسب لك الباقي قرضا فقال الشيخ ما مني خلاف فلا يكن لوعدك إخلاف فلا يكن لوعدك إخلاف فنقده الوالي عشرين ووزع على ورعته تكملة خمسين وتوزن الأصيل وانقطع لأجله صوب التحصيل فقال له خذ ما راج ودع اللجاج وعلي في غد أن أتوصل إلى أن ينض لك الباقي ويتحصل فقال الشيخ أفعل ذاك على أن ألازمه ليلتي وأرعاه إنسان مقلتي حتى إذا أقبض بعد إسفار الصبح ما بقي من مال الصلح تخلصت قابه مرقوق وبرى براءة الذئب من دم ابن يعقوب فقال له الوالي ما أراك تسمت شططا ولا رمت فرطا قال الحارث بن همام فلما رأيت حجج الشيخ كالحجج السريجية علمت أنه علم السروجية فلبثت إلى أن هوت نجوم الظلام وانتثرت عقود الزحام ثم قصدت فناء الوالي فإذا الشيخ للفتى كالي فنشدته الله أهو أبو زيد فقال إي ومحل الصيد فقلت من هذا الغلام الذي هفت له الأحلام فقال هو في النسب فرخي وفي المكتسب فخي قلت فهلا اكتفيت بمحاسن فطرته وكفيت الوالي الافتتان بطرته فقال لو لم تبرز جبهته الشعر لما قنصت الخمسين ثم قال بت الليلة عندي لنطفئ نار الجوى ونديل الهوى من النوى فقد أجمعت على أن أنسل بسحرة وأصلي قلب

الوالي بأن جرم

قال فقضيت الليلة معه في سمر آنق من حديقة زهر وخميلة شجر حتى إذا تلألأ الأفق ذنب السرحان وآن انبلاج الفجر وحان ركب متن الطريق وأذاق الوالي حرق الحريق وسلم إلي ساعة الفراق رقعة محكمة الإلصاق وقال ادفعها إلى الوالي إذا سلب القرار وتحقق منا الفرار ففضضتها فض المتلمس صحيفته فإذا فيها مكتوب

قل لوال غادرته بعد بيني ... نادما سادما يعض اليدين
جاد بالعين حين أعمى هواه ... عينه فانثنى بلا عينين
خفض الوجد ما تعني فما يجدي ... طلاب الآثار من بعد عين
ولئن جل ما عراك كما جل ... لدى المسلمين رزء الحسين
فلقد عنت منه هما وغرما ... واللبيب الأريب ينفي ذين
فاغضض من بعدها المطامع واعلم ... أن صيد الظبا ليس بهين
لا ولا كل طائر يلج الفخ ... ولو كان محدقا باللجين
وكم ساع ليصطاد فاصطيد ولم ... يلق غير خفي حنين
فتبصر ولا تشم كل برق ... رب برق فيه صواعق حين
واغضض الطرف تسترح من غرام ... تكتسي فيه ثوب ذل وشين
فبلاء الفتى اتباع هوى النفس ... وبذر الهوى طموح العين

والراوي عرفت رقعته تنذر بهذا ولم أبل أعذل أم عذر

المقامة الحادية عشرة الساوية

حدث الحارث بن همام قال آنست من قلبي القساوة حين حللت ساوة فأخذت بالخبر المأثور في مداواتها بزيارة القبور فلما صرت إلى محلة الأموات وكفات الرفات رأيت جمعا على قبر يحفر ومجنوز يقبر فانحزت إليهم متفكرا في المآل ومتذكرا من درج من الآل فلما ألحد الميت وفات قول ليت أشرف شيخ من رباوة متخصرا بهراوة وقد لفع وجهه بردائه ونكر شخصه لدهائه فقال لمثل هذا فليعمل العاملون فادكروا أيها الغافلون وشمروا أيها المقصرون وأحسنوا النظر أيها المتبصرون ما لكم لا يحزنكم دفن الأتراب ولا يهولكم هيل التراب

ولا تعبأون بهواجم الأحداث ولا تستعدون لنزول الأجداث ولا تستعبرون لعين تدمع ولا تعتبرون بنعي يسمع ولا ترتاعون لإلف يفقد ولا التياعون لمناحة تعقد يشيع أحدكم نعش الميت وقلبه تلقاء البيت ويشهد مواراة نسيبه وفكره في تحصيل نصيبه ويخلي بين وديده ودوده ثم يخلو بمزماره وعوده طالما أسيتم على انثلام الحبة وتناسيتم اخترام الأحبة واستكنتم لاعتراض العسرة واستهنتم بانقراض الأسرة وضحكتم عند الدفن ولا ضحككم ساعة الزفن وتبخترتم خلف الجنائز ولا تبختركم يوم قبض الجوائز وأعرضتم عن تعديد النوادب إلى إعداد المآدب وعن تحرق الثواكل إلى التأنق في المآكل لا تبالون بمن هو بال ولا تخطرون ذكر الموت ببال حتى كأنكم قد علقتم من الحمام بذمام أو حصلتم من الزمان على أمان أو وثقتم بسلامة الذات أو تحققتم مسالمة هاذم اللذات كلا ساء ما تتوهمون ثم كلا سوف تعلمون ثم أنشد

أيا من يدعي الفهم ... إلى كم يا أخا الوهم
تعبي الذنب والذم ... وتخطي الخطأ الجم
أما بان لك العيب ... أما أنذرك الشيب
وما في نصحه ريب ... ولا سمعك قد صم
أما نادى بك الموت ... أما أسمعك الصوت
أما تخشى من الفوت ... فتحتاط وتهتم
فكم تسدر في السهو ... وتختال من الزهو
وتنصب إلى اللهو ... كأن الموت ما عم
وحتام تجافيك ... وإبطاء تلافيك
طباعا جمعت فيك ... عيوبا شملها انضم
إذا أسخطت مولاك ... فما تقلق من ذاك
وإن أخفق مسعاك ... تلظيت من الهم
وإن لاح لك النقش ... من الأصفر تهتش
وإن مر بك النعش ... تغاممت ولا غم
تعاصي الناصح البر ... وتعتاص وتزور
وتنقاد لمن غر ... ومن مان ومن نم
وتسعى في هوى النفس ... وتحتال على الفلس
وتنسى ظلمة الرمس ... ولا تذكر ما ثم
ولو لاحظك الحظ ... لما طاح بك اللحظ
ولا كنت إذا الوعظ ... جلا الأحزان تغتم
ستذري الدم لا الدمع ... إذا عاينت لا جمع
يقي في عرصة الجمع ... ولا خال ولا عم
كأني بك تنحط ... إلى اللحد وتنغط
وقد أسلمك الرهط ... إلى أضيق من سم
هناك الجسم ممدود ... ليستأكله الدود
إلى أن ينخر العود ... ويمسي العظم قد رم
ومن بعد فلا بد ... من العرض إذا اعتد
صراط جسره مد ... على النار لمن أم

بكم من مرشد ضل ومردي عن ذلك وكم معالم هزل وقال الخطب فذ طم
فادر أيها الغمر لما يحلو به المر فقد كاد يهي العمر وما أقلعت عن ذم
ولم تركن إلى الدهر وإن لان وإن سر فتلفى كمن اغتر بأفعى تنفث السم
وخفض من تراقيك فإن الموت لاقيك وسار في تراقيك وما ينكل إن هم
وجانب صعر الخد إذا ساعدك الجد وزم اللفظ إن ند فما أسعد من زم
ونفس عن أخي البث وصدقه إذا نث ورم العمل الرث فقد أفلح من رم
ورش من ريشه انحص بما عم وما خص ولا تأس على النقص ولا تحرص على اللم
وعاد الخلق الرذل وعود كفك البذل ولا تستمع العذل ونزهها عن الضم
وزود نفسك الخير ودع ما يعقب الضير وهيئ مركب السير وخف من لجة اليم
بذا أوصيت يا صاح وقد بحت كمن باح فطوبى لفتى راح بآدابي يأتم

ثم حسر ردنه عن ساعد قد شد عليه جبائر المكر لا الكسر متعرضا للاستماحه في معرض الوقاحه فاختلب به أولئك الملأ حتى أترع كمه وملأ ثم انحدر من الربوة جذلان بالحبوه قال الراوي فجاذبته من ورائه حاشيته ردائه فالتفت إلي مستسلما وواجهني متبسما فإذا هو شيخنا أبو زيد بعينه ومينه فقلت له إلى كم يا أبا زيد تحوك الكيد لتجتاب الصيد ولا تبالي بمن تصيد فأجاب من غير استحياء ولا ارتياء وقال

انظر ودع اللوم وقل لي هل ترى اليوم فتى لا يقمر القوم متى ما دست تم

فقلت له بعدا لك يا شيخ النار ووزير العار فما شيء أشكل من طلاوة علانيتك وخباثة طويتك ثم تجنبك الأمثال ثم انطلقنا وتفرقنا فانطلقت ذات اليمين وانطلق ذات الشمال وناوحت مهب الجنوب وناوح مهب الشمال

المقامة الثانية عشرة الدمشقية

حكى الحارث بن همام قال شخصت من العراق إلى الغوطه وأنا ذو جرد مربوطه وجدة مغبوطه يلهيني خلو الذرع ويزدهيني حفول الضرع فلما بلغتها بعد شق النفس وإنضاء العنس ألفيتها كما تصفها الألسن وفيها ما تشتهي

الأنفس وتلذ الأعين فشكرت يد النوى وجريت طلق الجموح مع الهوى وطفقت أفض ختوم الشهوات وأجتني قطوف اللذات إلى أن شرع سفر في الإعراق وقد استفقت من الإغراق فعادني عيد من تذكار الوطن والحنين إلى العطن فقوضت خيام الغيبه وأسرجت جواد الأوبه ولما تأهبت الرفاق واستتب الاتفاق أنفوا من المسير دون استصحاب الخفير فارتادوه من كل قبيله وأعملوا في تحصيله كل حيله فأعوز وجدانه في الأحياء حتى خلنا أنه ليس من الأحياء فحار لعوزه عزم السيارة وائتمروا باب جيرون للاستشارة فما زالوا بين عقد وحل وتشزير وتحل إلى أن نفد التناجي وقنط الراجي وكان بحذائهم شخص متسمه متسم الشبان وعليه لبوس الرهبان وبيده سبحة النسوان وفي عينه ترجمة النشوان وقد لحظه الجمع وأرهف له السمع فقال لهم إلى أين الكفاه وقد رتع لدى حفاوهم قال لهم يا قوم ليفرخ روعكم وليأمن سربكم فلأخفرنكم بما يسر روعكم ويبيد وطوعكم قال الراوي فاستطعمناه منه جلية الخبر وأنبأناه أنه جعاله على السفار فزعم أنها كلمات لقنها في المنام ليحترز بها من كيد الأنام فجعل بعضنا يومض إلى بعض ويقلب طرفه بين لحظ وغض وتبين له أنا استضعفنا الخبر واستشعرنا الخوف فقال ما لكم تحدثون حديث عبثا وتجعلون تبري خبثا ولطالما والله جبت مخاوف الأقطار وولجت مفاجئ الأخطار فغنيت بها عن مصاحبة خفير واستصحاب جفير ثم إني مع ذلك سأزيح الجدل الذي نابكم بأن أوافقكم في البداة وأرافقكم في التماد فإن صدقكم وعدي فأجدوا سعدي وأسعدوا وجدي وإن كذبكم فمي فمزقوا أديمي وأريقوا دمي قال الحارث فألهمنا تصديق رؤياه وتحقيق ما رواه فنزعنا عن مجادلته واستهمنا على معادلته وقضينا بقوله عرى التربص وألغينا العابث والعائث ولما أزف الترحال استنزلنا كلماته الراقية لنجعلها الواقية الباقية فقال ليقل كل منكم أم القرآن كلما أظل الملوان ثم ليقل بلسان خاضع وصوت خاشع اللهم يا محيي الرفات ويا دافع الآفات ويا واقي المخافات ويا كريم المكافاة ويا موئل العفاة ويا ولي العفو والمعافاة صل على محمد خاتم أنبيائك ومبلغ أنبائك وعلى مصابيح أسرته ومفاتيح نصرته وأعذني من نزغات الشياطين ونزوات السلاطين وإعنات الباغين ومعاناة الطاغين ومعاداة العادين وعدوان

المعادين وغلب الغالبين وسلب السالبين وحيل المحتالين وغيلة المغتالين وأجرني اللهم من جور المجاورين ومجاورة الجائرين وكف عني أكف الغاشمين وأخرجني من ظلمات الظالمين وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين. اللهم احفظني في تربتي وغربتي وغيبتي وأوبتي ونجعتي ورجعتي وتصرفي ومنصرفي وتقلبي ومنقلبي واحفظني في نفسي ونفائسي وعرضي وعرضي وعقلي وعقائلي وسكني ومسكني وحولي وحالي ومآلي ومالي ولا تلحقني تغييرا ولا تسلط علي مغيرا واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا. اللهم احرسني بعينك وعونك واختصصني بمنك ومنتك وتولني باختيارك وخيرك ولا تكلني إلى كلاءة غيرك وهب لي عافية غير عافية وارزقني رفاهية غير واهية واكفني مخاشي اللأواء ولا تظفر بي أظفار الأعداء إنك سميع الدعاء. ثم أطرق لا يدير لحظا ولا يحير لفظا حتى قلنا قد أبلسته خشية أو أخرسته غشية ثم أقنع رأسه وصعد أنفاسه وقال أقسم بالسماء ذات الأبراج والأرض ذات الفجاج والماء الثجاج والسراج الوهاج والبحر العجاج والهواء والعجاج إنها لمن أيمن العوذ وأغنى لكم من لابسي الخوذ من درسها عند ابتسام الفلق لم يشفق من خطب إلى الشفق ومن ناجى بها طليعة الغسق أمن من السرق. قال فتلقفناها حتى لقناها وتدارسناها لكي لا ننساها ثم سرنا نزجي الحمولات بالدعوات لا بالحداة ونحمي الحمولات بالكلمات لا بالكماة وصاحبنا يتعهدنا بالعشي والغداة ولا يستنجز منا العدة حتى إذا عاينا أطلال عانة قال لنا الإعانة الإعانة فأحضرناه المعلوم والمكتوم وأريناه المختوم والمركوم وقلنا له اقض ما أنت قاض فما تجد فينا غير راض فما استخفه سوى الخف والرش ولا اجتلى بعينه غير العين فاختزن منهما وقره وتأبط بدرة ثم خالسنا مخالسة الطرار وانصلت منا انصلات الفرار فأوحشنا فراقه وأدهشنا امتراقه ولم نزل ننشده بكل ناد ونتخبر عنه كل غاد وهاد إلى أن قيل إنه مذ دخل عانة ما زايل الحانة فأغراني خبث هذا القول بسبر سلكه والانسلاك فيما لست من سلكه فادلجت إلى الدسكرة في حلة منكرة فإذا الشيخ في حلة ممصرة بين دنان ومعصرة وحوله سقاة تبهر وشموع تزهر وآس وعبهر

١٩

ومزمار ومزهر وهو تارة يستبزل الدنان وطورا يستنطق العيدان ومرة يستنشق الريحان وأخرى يغازل الغزلان فلما عثرت على لبسه وتفاوت يومه من أمسه قلت له أولى لك يا ملعون أأنسيت يوم جيرون فضحك مستغربا ثم أنشد مطربا

لزمت السفار وجبت القفار ... وعفت النفار لأجني الفرح
وخضت السيول وروضت الخيول ... لجر ذيول الصبى والمرح
وميطت الوقار وبعت العقار ... لحسو العقار ورشف القدح
ولولا الطماح إلى شرب راح ... لما كان باح فمي بالملح
ولا كان ساق دهائي الرفاق ... لأرض العراق بحمل السبح
فلا تغضبن ولا تصخبن ... ولا تعتبن فعذري وضح
ولا تعجبن لشيخ أبن ... بمغنى أغن ودن طفح
فإن المدام تقوي العظام ... وتشفي السقام وتنفي الترح
وأصفى السرور إذا ما الوقور ... أماط ستور الحيا واطرح
وأحلى الغرام إذا المستهام ... أزال اكتتام الهوى وافتضح
فبح بهواك وبرد حشاك ... فزند أساك به قد قدح
وداو الكلوم وسل الهموم ... ببنت الكروم التي تنشرح
وخص الغبوق بساق يسوق ... بلا المشوق إذا ما طمح
وشاد يشيد بصوت مديد ... جبال الحديد له إن صدح
وعاص النصيح الذي لا يبيح ... وصال المليح إذا ما سمح
وجل في المحال ولو بالمحال ... ودع ما يقال وخذ ما صلح
وفارق أباك إذا ما أباك ... ومد الشباك وصد ما سنح
وصاف الخليل وناف البخيل ... وأول الجميل ووال المنح
ولذ بالمتاب أمام الذهاب ... لمن دق باب كريم فتح

فقلت له بخ بخ لروايتك وأف وتف لغوايتك فبالله أي الأعاصر عيصك

فقد اعضل عويصك فقال ما أحب أن أفصح عني ولكني سأكني

أنا أُطروفة الزمان وأُحجوبة الأمم
وأنا الحُوَّل الذي احتال في العرب والعجم
غير أني ابن حاجة هاضه الدهر واهتضم
وأبو صبية بدوا مثل لحم على وضم
وأخو العيلة المعيل إذا احتال لم يلم

قال الراوي فعرفت حينئذ أنه أبو زيد ذو الترب والعيب ومسوّد وجه الشيب وساءني عظم تمرده وقبح توردة فقلت له بلسان الأنفة وإدلال المعرفة ألم يأن لك يا شيخ أن تقلع عن الخنا فتصحّ وترمي وتنكّر ونكّر ثم قال إنها ليلة مراح لا تلاح ونهزة شرب راح لا كفاح فعدّ عما بدا إلى أن نلتقي غدا ففارقته فرارا من عربدته لا تعلقا بعدته وبت ليلتي لابسا جلباب الندم على تخطي الخطى إلى ابنة الكرم لا الكرم وعاهدت الله سبحانه ألا أحضر بعدها حانة نباذ ولو أعطيت ملك بغداذ وألا أشهد معتصر الشراب ولو رُدّت عليّ غضارة الشباب ثم إنا رحّلنا العيس وقت التغليس وخلّينا بين الشيخ وإبليس

المقامة الثالثة عشرة البغدادية

روى الحرث بن همام قال ندوت بضواحي الزوراء مع مشيخة من الشعراء لا يعلق لهم مبار بغبار ولا يجري معهم ممار في مضمار فأفضنا في حديث يفضح الأزهار إلى أن نصّفنا النهار فلما غاض درّ الأفكار وصبت النفوس إلى الأوكار لمحنا عجوزا تقبل من البعد وتحضر إحضار الجرد وقد استتلت صبية أنحف من المغازل وأضعف من الجوازل فما كذّبت إذ رأتنا أن عرتنا حتى إذا ما حضرتنا قالت حيّا الله المعارف وإن لم يكنّ معارف اعلموا يا مآل الآمل وثمال الأرامل أني من سروات القبائل وسريّات العقائل لم يزل أهلي وبعلي يحلّون الصدر ويسيرون القلب ويمطون الظهر ويولون اليد فلما أردى الدهر الأعضاد وفجع بالجوارح الأكباد

وانقلب ظهرا لبطن نبا الناظر وجفا الحاجب وذهبت العين وفقدت الراحة وصلد الزند ووهنت اليمين وبان المرافق ولم يبق لنا ثنية ولا ناب فمذ اغبرّ العيش الأخضر وازورّ المحبوب الأصفر اسودّ يومي الأبيض وابيضّ فوديَ الأسود حتى رثى لي العدو الأزرق فحبذا الموت الأحمر وتلوي من ترون عينه فراره وترجمانه اصفراره قصوى بغيته بردة وقصارى منيته بردة وكنت آليت ألا أبذل الحرّ إلا للحرّ ولو أني متّ من الضرّ وقد ناجتني القرونة بأن توجد عندكم المعونة وآذنتني فراسة الحوباء بأنكم ينابيع الحباء فنضّر الله امرأ أبرّ قسمي وصدّق توسّمي ونظر إليّ بعين يقذيها الجمود ويقذّيها الجود قال فهمنا ببراعة عبارتها وملح استعارتها وقلنا لها قد فتن كلامك فكيف إلحامك فقالت أفجّر الصخر ولا فخر فقلنا إن جعلتنا من رواتك لم نبخل بمواساتك فقالت لأرينّكم أولا شعاري ثم لأروينّكم أشعاري فأبرزت ردن درع دريس وبرزت برزة عجوز دردبيس وأنشأت تقول

أشكو إلى الله اشتكاء المريض ... ريب الزمان المعتدي البغيض
يا قوم إني من أناس غنوا ... دهرا وجفن الدهر عنهم غضيض
فخارهم ليس له دافع ... وصيتهم بين الورى مستفيض
كانوا إذا ما نجعة أعوزت ... في السنة الشهباء روضا أريض
تشبّ للسارين نيرانهم ... ويطعمون الضيف لحما غريض
ما بات جار لهم ساغبا ... ولا لروع قال حال الجريض
فغيّضت منهم صروف الردى ... بحار جود لم أخلها تغيض
وأودعت منهم بطون الثرى ... أسد التحامي وأساة المريض
فمحملي بعد المطايا المطا ... وموطني بعد اليفاع الحضيض
وأفرخي ما تأتلي تشتكي ... بؤسا له في كل يوم وميض
إذا دعا القانت في ليلة ... مولاه نادوه بدمع يفيض

يا رازق النعاب في عشه ... وجابر العظم الكسير المهيض
أتح لنا اللهم من عرضه ... من دنس الذم نقي رحيض
يطفئ نار الجوع عنا ولو ... بمذقة من حازر او مخيض
فهل فتى يكشف ما نابهم ... ويغنم الشكر الطويل العريض
فهو الذي تعنو النواصي له ... يوم وجوه الجمع سود وبيض
لولاهم لم تبد لي صفحة ... ولا تصديت لنظم القريض

قال الراوي فوالله لقد صدعت أبياتها أعشار القلوب واستخرجت خبايا الجيوب حتى ماح من دينه الاسماح وارتاح لرفدها من لم يخله يرتاح فلما افعوعم حجرها تبرا وأولاها كل منهم برا تولتها توليها الأصابع وفوها بالشكر فاغر فاشرأبت الجماعة بعد ممرها إلى سبر مواقع برها وتكفلت لهم باستنباط السر المرموز ونهضت أقفو أثر العجوز حتى انتهت إلى سوق مغتصة بالأنام مختصة بالزحام فانغمست في الغمار وامّلست من الصبية الأغمار ثم عاجت بخلو بال إلى مسجد خال فأماطت الجلباب ونضت النقاب وأنا ألمحها من خصاص الباب وأرقب ما ستبدي من العجاب فلما انسفرت أهبة الخفر رأيت محيا أبي زيد قد سفر فهممت بأن أهجم عليه لأعنفه على ما أجرى يديه فاسلنقى اسلنقاء المتمرد ثم رفع عقيرة المغردين وأنشد

يا ليت شعري أدهري ... أحاط علما بقدري
وهل درى كنه غوري ... في الخدع أم ليس يدري
كم قد قمرت بنيه ... بحيلتي وبمكري
وكم برزت بعرف ... عليهم وبنكر
أصطاد قوما بوعظ ... وآخرين بشعر
وأستفز بخل ... عقلا وعقلا بخمر
وتارة أنا صخر ... وتارة أخت صخر
ولو سلكت سبيلا ... مألوفة طول عمري

لخاب قدحي وقد حي ... ودام غمري وخسري
فقل لمن لام هذا ... عذري فدونك عذري

قال الحارث بن همام فلما ظهرت على جلية أمره وبديعة إمره وما زخرف في شعره من عذره علمت أن شيطانه المريد لا ينفع فيه التفنيد ولا يفعل إلا ما يريد فثنيت إلى أصحابي عناني وأبثثتهم ما أثبته عياني فوجموا لضيعة الجوائز وتعاهدوا على محرمة العجائز

المقامة الرابعة عشرة المكية

حكى الحارث بن همام قال نهضت من مدينة السلام لحجة الإسلام فلما قضيت بعون الله التفث واستبحت الطيب والرفث صادف موسم الخيف معمعان الصيف فاستطرت للضرورة ما يقي حر الظهيرة فبينما أنا تحت طراف مع رفقة ظراف وقد حمي وطيس الحصباء واعشت الهاجرة عين الحرباء إذ هجم علينا شيخ متشعشع يتلوه فتى مترعرع فسلم الشيخ تسليم أديب أريب وحاور محاورة قريب لا غريب فأعجبنا بما نثر من سمطه وعجبنا من انبساطه قبل بسطه وقلنا له ما أنت وكيف دخلت وما استأذنت فقال أما أنا فعافي وطالب إسعاف وسر ضري غير خاف والنظر إلي شفيع لي كاف وأما الانسياب الذي علق به الارتياب فما هو بعجاب إذ ما على الكرام من حجاب فسألناه أنى اهتدى إلينا وبم استدل علينا فقال إن للكرم نشرا تنم نفحاته وترشد إلى روضه نفحاته فاستدللت بأريج عرفكم على نتائج عرفكم وبشرني تضوع رندكم بحسن المنقلب من عندكم واستخبرناه حينئذ عن لبانته لنتكفل بإعانته فقال إن لي مآربا ولفتاي مطلبا فقلنا كلا المرامين سيقضى وكلاكما سوف يرضى ولكن الأكبر أكبر فقال أجل ومرجاة للشيخ الغمر ثم وثب للمقال كالمنشط من العقال وأنشد

إني امرؤ أبدع بي ... بعد الوجى والتعب
وشقة شاسعة ... يقصر عنها خببي
وما معي خردلة ... مطبوعة من ذهب
فحيلتي ناشبة ... وحيرتي تلعب بي

إن ارتحلت راجلا خفت دواعي العطب
وإن تخلفت عن الرفقة ضاق مذهبي
فرقني في صعد وغرني في صبب
وأنتم منتجع الراجي ومرمى الطلب
لهاكم منهلة ولا انهلال السحب
وجاركم في حرم ووفركم في حرب
ما لأحد رباع بكم يخاف نائب النوب
ولا استدر آمل جاهكم فما حبي
فانعطفوا في قصتي واحتملوا منقلبي
فلو بلوتم عيشتي في مطعمي ومشربي
لساءكم ضري الذي أسلمني للكرب
ولو خبرتم حسبي ونسبي ومذهبي
وما حوت معرفتي من العلوم النخب
لما اعترتكم شبهة في أن دائي أدبي
فليتني لم أكن أرضعت ثدي الأدب
فقد دهاني شؤمه وعقني فيه أبي

فقلنا له أما أنت فقد شرحت أبياتك بفاقتك وعطب ناقتك وسنعطيك ما يوصلك إلى أهلك فأما أربة ولدك فقال له قم يا بني كما قام أبوك وفه بما في نفسك لا فض فوك فنهض نهوض البطل للبراز وأصلت لسانا كالعضب الجراز وأنشأ يقول

يا سادة في المعالي لهم مبان مشيده
ومن إذا ناب خطب قاموا بدفع المكيده
ومن يهون عليهم بذل الألوف العتيده
أريد منكم شواء وجردقا وعصيده
فإن عدا فرقاق به تروى الثريده
أو لم يكن ذا ولا ذا فشبعة من ثريده
فإن تعذر طرا فقحوة ونبيذه
فأحضروا ما تيسر ولو شظاما قديده
وزوجوني بنفسي لما يزوج مزيده
والزاد لا بد منه لرحلة لي بعيده
وأنتم خير رهط يدعون عند الشديده
أيديكم كل يوم لها أياد جديده
وراحكم واصلات شمل الصلات المفيده
وبغيتي في مطاوي ما تنبذون زهيده
وفي أجر وعقبى تنفيس كرب حميده
ولي نتائج فكر يفضحن كل قصيده

قال الحارث بن همام فلما رأينا الشبل يشبه الأسد أرحلنا الوالد وزودنا الولد فقابلا الصنع بشكر نشر أرديته وأدى بأديته ولما عزما على الإطلاق وعقد الرحال حبل النطاق قلت للشيخ هل صاهت عن تناعه عرقوب أو لقيت حاجة في نفس يعقوب فقال حاش لله وكلا بل جل معروفكم وجلاه فقلت له فبدا كما بدا ذلك وأفدنا كما أفدناك أين الثوية فقد ملكتنا خيل الكرم فتنفس تنفس من ادكر أوطانه وأنشد والشهيق يلعثم لسانه

سروج داري ولكن كيف السبيل إليها
وقد أناخ الأعادي بها وأخنوا عليها
فوالتي سرت أبغي حط الذنوب لديها
ما راق طرفي شيء مذ غبت عن طرفيها

ثم اغرورقت عيناه بالدموع وآذنت مدامعه بالهموع فكره أن يستوكفها ولم يملك أن يكفكفها فقطع إنشاده المستحلى وأوجز في الوداع وولى

المقامة الخامسة عشرة الفرضية

اخبر الحرث ابن همام قال أرقت في ليلة حالكة الجلباب هامية الرباب
ولا أرق صب طرد عن الباب ومني بصد الأحباب فلم تزل الأفكار يحتثن
همي ويجلن في الوساوس وهمي حتى تمنيت لمضض ما عانيت وأن أرزق
سميرا من الفضلاء ليقصر طول ليلتي الليلاء فما انقضت منيتي ولا أغمضت
مقلتي حتى قرع الباب قارع له صوت خاشع فقلت في نفسي لعل غرس التمني
قد أثمر وليل الحظ قد أقمر فنهضت اليه عجلان وقلت من الطارق الآن
فقال غريب أجنه الليل وغشيه السيل ويبتغي الإيواء لا غير وإذا أسحر قدم السير
قال فلما دل شعاعه على شمسه وتم عنوانه بسر طرسه علمت أن مسامرته غنم
ومساهرته نعم ففتحت الباب بابتسام وقلت ادخلوها بسلام فدخل شخص قد حنى الدهر
صعدته وبلل القطر بردته فحيا بلسان عضب وبيان عذب ثم شكر على تلبية
صوته واعتذر من الطروق في غير وقته فدانيته بالمصباح المتقد وتأملته تأمل
المنتقد فألفيته شيخنا أبا زيد بلا ريب ولا رجم غيب فأحللته محل من يطرقني
بقصوى الطلب ويعللني وقد الكرب إلى روح الطرب ثم أخذ يشكو الأين
وأخذت في كيف وأين فقال أبلغني ريقي فقد أتعبني طريقي فظننته
مستنبطا لريح الشغب متكاسلا لهذا السبب فأحضرته ما يحضر للضيف
المفاجي في الليل الداجي فانقبض انقباض المحتشم وأعرض إعراض المتبرم
فسؤت ظنا بامتناعه وأحفظني جفو طباعه حتى كدت أغلظ له
في الكلام وأسفعه بحد الملام فتبين من لمحات ناظري ما خامر خاطري
فقال يا ضعيف الثقة بأهل الثقة عد عما أخطرته ببالك واستمع إلى إملالك
فقلت هات يا أخا الترهات فقال اعلم أني بت البارحة حليف إفلاس
ونجي وسواس فلما فضى الليل جبته وغور الصبح شهبه غدوت وقت
الإشراق إلى بعض الأسواق متصديا بالصيد سنحا أو ربحا ليسمح

فلحظت

فلحظت بها تمرا قد حشي تصفيفه وأحضر اليه مصيص مجمع على التحقق صفا الرحيق
وقنو العقيق وقبالته لبا قلبا كالابريز الاحمر واجلى في اللون المزعفر فهو ينبي
على طاهيه بلسان ناهيه ويصوب رأي مشتريه ولو نقد حبة القلب فيه فاستهوتني
الشهوة بأشطانها واسلمتني العيمة إلى سلطانها فبقيت أحير من ضب وأذهل من صب لا
وجد يوصلني إلى نيل المراد ولذة الازدراد ولا قدم تطاوعني على الذهاب مع وقد الالتهاب
لكن حبلني الى القرم وشوارته والشغف وفورته إلى أن أنتجع تلك الأرض وأتنعم الورد
بترض فلم أزل أتجابه ذلك لها رادي ادلوي الى الانتهار وهي لا ترجع ببلة ولا تجلب
نقع غلة إلى أن ضعفت الشمس للغروب وضعفت النفس من اللغوب فرحت بكبد حرى
وانثنيت أقدم رجلا وأؤخر أخرى وبينما أنا أسعى وأقعد وأهبط وأصعد إذ قابلني
شيخ بائق أهة الثكلان وعيناه تهملان فما شغلني ما أنا فيه من داء الكرب
والألم المذيب عن تعاطي مداخلته والطمع في مخاتلته فقلت له يا هذا إن لبكائك سرا
ووراء تحرقك شرا فأطلعني على برحائك واتخذني من نصحائك فإنك ستجد مني طبا آسيا أو
عونا مواسيا فقال والله ما أتأوه لعثرات ولا من دهر فات بل لانقراض العلم
ودروسه وأفول أقماره وشموسه فقلت وأي حادثة نجمت وقضية استعجمت حتى هاجت
لك الأسف على فقد من سلف فأبرز رقعة من كمه وأقسم بأبيه وأمه لقد أراها أعلام المدارس
فما أماروا عن الأعلام الدوارس واستنطق لها أحبار المحابر فما سوا(?)
حرس سكان المقابر فقلت أرنيها فلعلي أغنى فيها فقال ما أبعدت في المرام
فرب رمية من غير رام ثم ناولنيها فإذا المكتوب فيها

أيها العالم الفقيه الذي فاق ذكاء فماله من شبيه
أفتنا في قضية حادعنها كل قاض وحار كل فقيه
رجل مات عن أخ مسلم حر تقي من أمه وأبيه
وله زوجة لها أيها الحر أخ خالص بلا تمويه
فحوت فرضها وحاز أخوها ما تبقى بالإرث دون أخيه

فاشفنا بالجواب عما سألنا   فهو نص لا خلف يوجد فيه

فلما رأيت شعرها ولمحت سرها قلت له على الخبير بها سقطت وعند ابن بجدتها
حططت إلا أني مضطرم الأحشا مضطر إلى العشا فالكرم مثواي ثم استمع فتواي
فقال لقد أنصفت في الاشتراط وتجافيت عن الاشتطاط فقم معي إلى ربعي لتنظم ما
تبتغي وتنقلب كما ينبغي قال فصاحبته إلى داره كما حكم الله فأدخلني بيتا أحرج
من بيت العنكبوت إلا أنه ضيق ربعه بتوسعة ذرعه فحكمني في القرى ومطايب ما يشترى
فقلت أريد أرهى راكب على أشهى مركوب وأنفع صاحب مع أضر مصحوب فأفكر ساعة طويلة
ثم قال لعلك تبغي بنت نخلة مع لبأ سخلة فقلت إياهما عنيت ولأجلهما تعنيت فنهض
نشيطا ثم ربض منتشطا وقال اعلم أصلحك الله أن الصدق نباهة والكذب عاهة فلا
تحملنك الجوع الذي هو شعار الأنبيا وحلية الأوليا على أن تلحى من سمات وتتخلق بالخلق
الذي يجانب الإيمان فقد تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ولو اضطرت إليه ثم إني لست كمن يزبون
ولا أغضي على صفقة مغبون وها أنا قد أنذرتك قبل أن ينتهك الستر وينفعل بيننا
الوتر فلا تلغ تدبر الإنذار وجانب المكاذبة جهارا فقلت له والذي حرم الربا وأحل أكل اللبا
ما فهت بزور ولا دليتك بغرور وستخبر حقيقة الأمر وتحمد بذل اللبا والتمر فهش هشاشة
المصدوق وانطلق معنقا إلى السوق فما كان بأسرع من أن أقبل بهما يدلج ووجه المتمني
يتبلج فوضعهما لدي وضع الممتن علي وقال اضرب الجيش بالجيش تحظ بلذة العيش فحسرت
عن ساعد النهم وحملت حملة الفيل المتلهم وهو يلحظني كما يلحظ الحنق ويود من الغيظ لو أختنق
حتى إذا أفنيت الموجود وغادرتهما أثرا بعد عين أوردت جرة في أطلال
الأبيات وكرم وحيات الأبيات فالتث أرقام واحضر الدواة والأقلام وقال هذه ملأت الجراب
فأمل الجواب وإلا فتهيأ إن نكلت لإغرام ما أكلت فقلت له ما عندي إلا العفو والكتب الجواب

قل لمن يلغز المسائل إني   كاشف سرها الذي تخفيه

إن ذاك الميت الذي قدم الشرع   أخا عرسه على ابن أبيه

رجل زوج ابنه عن رضاه   بحماة له ولا غرو فيه

ثم مات ابنه وقد علقت منه   فجاءت بابن يسر ذويه

فهو ابن ابنه بغير مراء   وأخو عرسه بلا تمويه

وابن الابن الصريح أدنى   إلى الجد وأولى بإرثه من أخيه

فلذا حين مات أوجب للزوجة   ثمن التراث تستوفيه

وحوى ابن ابنه الذي هو أخوها   من أمها باقيه

وتخلى الأخ الشقيق من الإرث   وقلنا تكفيك أن تبكيه

هاك مني الفتيا التي يحتذيها   كل قاض يقضي وكل فقيه

فلما أثبت الجواب واستثبت منه الصواب قال لي أهلك والليل فشمر الذيل
وبادر السيل فقلت إني بلد غربة وفي إيوائي أفضل قربة لا سيما وقد أغدف
جنح الليل أو شح الزهد في العام فقال أعزب عافاك الله إلى حيث شئت ولا
تطمع في أن تبيت فقلت ولم ذاك مع خلو دارك قال لأني ألفيتك الطرب في التفاتك
ما حضر حتى لم تبق ولم تذر وإنك لا تنظر في مصلحتك ولا تراعي حفظ صحتك ومن أمعن
فيما معنت وبطن ما بطنت لم يخلص من لطخة متخمة أو هيضة متلفة فدعني
بالله كفافا واخرج عني ما دمت معافى فوالذي يحيي ويميت ما لك عندي مبيت
فلما سمعت أليته وبلوت بليته خرجت مرتبة بالرغم وتزودت الغم جودي الشما
وتخبطني الظلما وتنبحني الكلاب وتقاذف بي الأبواب حتى ساقني إليك لطف
القضاء فشكرت لديه البيضاء فقلت له أحبب بلقائك المتاح إلى قلبي المرتاح
ثم أخذ يفتر في حكاياته ويشمط مضحكاته بمبكياته إلى أن عطس أنف الصباح
وهتف داعي الفلاح فناهض لإجابة الداعي ثم عطف إلي وداعي فعفته عن الانبعاث
وقلت الضيافة ثلاث فناشد وعرج ثم أم المخرج وأنشد إذ عرج

لا تزر من تحب في كل شهر   غير يوم ولا تزده عليه

فاجتلاء الهلال في الشهر يوم   ثم لا تنظر العيون إليه

قال الحارث بن همام فودعته بقلب داعي الترح ووددت لو أن لي لبيت بطيئة الصبح

المقامة السادسة عشرة المغربية

حكى الحرث بن همام قال شهدت صلاة المغرب في بعض مساجد المغرب فلما أديتها بفضلها وشفعتها بنفلها أخذ طرفي رفقة قد انتبذوا ناحية وامتازوا صحبة وهم يتعاطون كاس المناقشة ويقتدحون زناد المباحثة فرغبت في محادثتهم لكلمة تستفاد أو أدب يستزاد فسعيت إليهم سعي المتطفل عليهم وقلت لهم أتقبلون نزيلا يطلب جنى الأسمار لا جنى الثمار ويبغي ملح الحوار لا ملح الخوان فحلّوا لي الحبا وقالوا مرحبا مرحبا فما جلست إلا لمحة بارق خاطف او نغبة طائر خائف حتى غشينا جوّاب على عاتقه جراب فحيانا بالكلمتين وحيا المسجد بالتسليمتين ثم قال يا أولي الألباب والفضل اللباب أما تعلمون أن أنفس القرب تنفيس الكرب وأمتن أسباب النجاة مواساة ذوي الحاجات وإني ومن أحلني ساحتكم وأتاح لي استماحتكم لشريد محل ورسول صبية خماص فهل في الجماعة من يفثأ عنا حميا المجاعة فقالوا له يا هذا إنك حضرت بعد العشا ولم يبق إلا فضلات العشاء فإن كنت بها قنوعا فما تجد فينا منوعا فقال إن أخا الشدائد ليقنع بلفافات الموائد ونفاضات المزاود فأمر كل منهم عبده أن يزوده ما عنده فأعجبه الصنع وشكر عليه وجلس يرقب ما يحمل إليه وتنبينا نحن إلى استثارة ملح الأدب وعيونه واستنباط معينه من عيونه إلى أن خضنا فيما لا يستحيل بالانعكاس كقولك ساكب كاس فتداعينا إلى أن نستنتج له الأفكار ونفترع منه الأبكار على أن ينظم البادي ثلاث حبات في عقده ثم ينثر الزيادات من بعده فيربع ذو يمينه في نظمه ويتبع صاحب ميسرة على عزمه قال الراوي وكنا قد انتظمنا عدد أصابع الكف وألفنا ألفة أصحاب الكهف فابتدر لعظم محنتي صاحب ميمنتي وقال لم أخا مل وقال تاليه كبر رجا أجر ربك وقال الذي يليه من يرب إذا برّ ينم وقال الرابع سكت كل من نم لك تكس وأفضت النوبة إليّ وقد تعين نظم السمط علي فلم يزل فكري يصوغ ويكسر ويثري ويعسر وفي ضمن ذلك لا أستطيع ولا أجد ما أنظم إلى أن ركد النسيم وتمحص التسليم فقلت لأصحابي لو حضر السروجي هذا المقام لشفى الداء العقام فقالوا لو أنزلت هذه بإياس لأمسك على ياس وجعلوا ينفضون في استضعافها واستغلاق بابها وذلك الزور المغربي يلحظنا لحظ المزدري ويؤلف

الدرر ونحن لا ندري فلما عنّ على قنوطنا وقصور مخاضنا قال يا قوم إن من العناء العظيم استيلاد العقيم والاستشفاء بالسقيم وتوق كل ذي علم عليم ثم أقبل علي وقال سأنوب منابك وأكفيك ما نابك فإن شئت أن تنثر ولا تنظم فقل مخاطبا لمن ذم التحمل وأكثر العذل لذ بكل مؤمل إذا لم وملك بذل وإن أحببت أن تنظم للذي تعظم

أُسْ أرملاً إذا عرى ... وارعَ إذا المرءُ أسا

أسنِدْ أخا نباهةٍ ... أبِنْ إخاءً دنسا

أُسْلُ جنابَ غاشمٍ ... مشاغبٍ إنْ جلسا

أُسْرُ إذا هبَّ مِرا ... وارمِ به إذا رسا

أُسْكُنْ تقوَّ فعسى ... يُسعِفُ وقتٌ نكسا

قال فلما سحرنا بآياته وحسرنا ببعد غاياته مدحناه حتى استعفى ومنحناه حتى استكفى ثم شمر أثوابه وأبرز جرابه ونهض ينشد أصحابه

لله در عصابة صدق المقال مقاولا

فاقوا الأنام فضائلا ما تورع وفواضلا

جاورتهم فوجدت تحملا لديهم يا قلا

وحللت فيهم سائلا ووجدت جودا سائلا

اقتنيت لؤلؤ الكلام وحبا كما لؤا وابلا

ثم خطا قيد رمحين وعاد مستعيدا للمرحبين وقال أعزز علي عدم الآل وكثرة الطلال إن العاشق قلق وقد وقف ووجه المحجة قد انتقب وبيني وبين كلي ليل دامس وطريق طامس فهل من مصباح يؤمني العثار ويبين لي الآثار قال فلما جلى القمر الملتمس وحلي الوجه ضوء الشمس رأيت صاحب صيدنا هو أبو زيد فقلت لأصحابي هذا الذي أشرت إليه أنه إذا نطق أصاب وإن استمطر صاب فأتلعوا نحوه الأعناق وأحدقوا به الأحداق وسألوه أن يسامرهم ليلته إلى أن يحن وإعلته فقال حبا لما أجبتم وحباكم إذ حييتم غير أني قصدت لكم وأطفالي يتضوّرون من الجوع ويدعون لي بتيسير الرجوع ولئن أسترا توبي جاز لهم الهيش والبعيد لي العيش فدعوني أذهب فإني أشد محضنهم

وأتبع غمضهم ثم أنقلب إليكم على الأثر متأهبا للتسيار إلى السحر فقلنا لأجل الغلمه
إتبعه إلى فئته ليكون أسرع لفيئته فانطلق معه مضطبنا جرابه ومحتضنا إرابه
وأبطأ إبطاء جاوز حده ثم عاد إلى الغلام وحده فقلنا ما عندك من الحديث عن الخبيث قال أخذ بي
في طرق متشعبه وسبل منشعبه حتى أفضينا إلى دويرة خربه فقال ها هنا مأواي ووزر أرزائي
ثم استفتح بابه واختلج مني جرابه وقال لعمري لقد خففت عني واستوجبت الحسنى مني فهاك نصيحة
هي من أنفس النصائح ومغارس المصالح وأنشد

إذا ما حويت جنى نخلة ... فلا تقربنها إلى قابل
وإما سقطت على منهل ... فحو صل من النسل الكامل
ولا تلبثن إذا ما لقطت ... فتنشب في كفة الحابل
ولا توغلن متى ما سبحت ... فإن السلامة في الساحل
وخاطب بهات وجاوب بسوف ... وبع آجلا منك بالعاجل
ولا تنكر على صاحب ... فما أمل قط سوى الواصل

ثم قال اخزنها في تامورك واتخذها إمام أمورك وبادر إلى صحبك في كلاءة ربك فإذا بلغتهم فأبلغهم
تحيتي وأتل عليهم وصيتي وقل لهم عني إن السهر في الحر أفاد لمي أعظم الأجر ولست أنعى أحراسي
ولا أحل الهوس إلى راسي قال الراوي فلما وقفنا على شعره ونكره ومكره تلاومنا على تركه والاغترار
بإفكه ثم تفرقنا بوجوه باسرة وصفقة خاسرة

المقامة السابعة عشرة

حدث الحارث بن همام قال لحظت في بعض مطارح البين ومطامح العين فتية عليهم سيما الحجى وطلاوة
نجوم الدجى وهم في مماراة شتت الهوى ومباراة منشطة الألوب فهزني لقصدهم
هوى المحاضر وانجلاء الناظر فلما التحقت برهطهم وانتظمت في سمطهم قالوا أأنت ممن يلج
في الهيجا ويلقي دلوه في الدلاء فقلت بل أنا من رجال الحرب لا من أبناء الطعن والضرب فأضربوا عن
حجاجي وأصاخوا إلى التحاجي وكان في بحبوحة حلقتهم وإكليل رفقتهم شيخ قد برته الهموم
ولوحته السموم حتى عاد أنحل من قلم وأقحل من جلم إلا أنه كان يبده العجاب إذا أجاب
ويبتهي سحبان كلما أبان فأعجبت بما أوتي من الإصابه وأثرته على تلك العصابه
وما زال يفصح كل معمى ويصمي في كل مرمى إلى أن خلت الجعاب ونفد السؤال والجواب

فلما رأى إفحاص القوم واضطرارهم إلى القوم عرّض بالمطارحه واستأذن في المفاتحه فقالوا له
حبذا لو مر لنا ببال فقال أتعرفون رسالة أرضها سماؤها وصبحها مساؤها نسجت على منوالين وتجلت في
لونين وصلت للمحاسن وبدت ذات وجهين إلى رعشة مرة فاهتك بروقها واطلع مغربها فأخجل
فكأن القوم رموا بالصمات وخفت عليهم كلمة الإنصات فما تنبس منهم إنسان ولا فاه لأحدهم
لسان فحين رآهم كالأنعام وصموا كالأصنام قال قد أجلتكم أجل العدة وأرخيت لكم طول
المدة ثم ها هنا مجمع الشمل وموقف الفصل فإن سمحت خواطركم مدحنا وإن صلدت زنادكم قدحنا
فقالوا له والله ما لنا في لجة هذا البحر سبح ولا لأي ساحله منسرح فأرح أفكارنا من الكد وهنئ
العطية بالنقد واتخذنا إخوانا يثنون إذا أوتيت ويثنون متى انتقيت فأطرق ساعة
ثم قال سمعا لكم وطاعة فاستملوا مني وانقلوا عني الإنسان صنيعة الإحسان
ورب الجميل فعل الندب وشيمة الحر ذخيرة الحمد وكسب الشكر استثمار السعاده وعنوان
الكرم تباشير البشر واستعمال المداراة يوجب المصافاه وعقد المحبة يقتضي النصح وصدق الحديث
حلية اللسان وفصاحة المنطق سحر الألباب وشرك الهوى آفة النفوس وملل الخلائق
شين الخلائق وسوء الطمع يباين الورع والتزام الحزم زمام الأمن وتطلب
المثالب شين المعايب وتتبع العثرات يدحض المودات وخلوص النيه
خلاصة العطيه وتنبيه النوال ثمن السؤال وتكلف الكلف يسهل الخلف
وتيقن العون ينشي المؤمل وفضل الصدر سعة الصدر وزينة الرعاة مقت السعاة
وحر المدائح ثمن المنائح ومهر الوسائل تشييع السائل ومخيلة الغوايه استغراق الغايه
وتجاوز الحد يكل الجد وتعدي الأدب يحبط القرب وتناسي الحقوق يبس العقوق
وتحامي الريب يرفع الرتب وارتفاع الأخطار باقتحام الأخطار وتنوع الأقدار بتوالي الأقدار
وشرف الأعمال في تقضية الآمال وإطالة الفكر تنقيح الحكم ورأس الرياسة تهذيب السياسة
ومع اللجاجة تلغى الحاجة وعند الأوجال تتفاضل الرجال وبتفاوت الهمم تتفاوت القيم
وبتدبر التشبير يهون التدبير وبحلل الأحوال تنهض الأهوال وبموج الصبر ثمرة النصر
وباستكمال الإنعام بحسب الاجتهاد ووجوب الملاحظة كفاء المحافظة وصفاء الموالي بتعهد الموالي
وتحلي المروات حفظ الأمانات فاختبار الإخوان بتخفيف الأحزان ودفع الأعداء بكف الأذى

وامتحان العقلا بمقاربة الجهلا ونشر العواقب بؤس المعاطب واتقا الشنعه
بنشر السمعه وفتح الجفا بنأي الوفا وجوهر الأحرار عند الأسرار ثم قال هذه ما أنبأ
لفظه تحتوي على أدب وعظه فمن ساقه هذا المساق فلا مرا ولا شقاق
ومن رام عكس قالبه وأن يردها على عقبه فليقل الأسرار عند الأحرار جوهر الجفا
بنأي الوفا وفتح السمعه بنشر الشنعه ثم على هذا المنهج فلينسجها وإلى هذه
حتى تكون خاتمة فقرها وآخر دررها ورد الإحسان صنيعة الإنسان

قال الراوي فلما صدع برسالته الفريده وأملوحته المفيده علمنا كيف يتفاضل
الإنشا وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشا ثم اعتلق كل منا بذيله وقلده فلذة من نيله
فأبى تناول فلذتي وقال لست أرزأ تلامذتي فقلت له لكن أبا زيد على تحوب
سجيتك ونضوب ماء وجنتك فقال أباهي على تحولي وتحولي وتكشف مخولي
فأحدق في تفرسه على تفرسه وتعربه فحولق واسترجع ثم أنشد من قلب موجع

سل الزمان على عضبه ... ليروعني وأحد غربه
واستل من جفني كراه مراغما ... وأسال غربه
وكد المعيشة مغربي ... ولواه غربه
وأحلني الأفق الموى شرقه ... وأخوف غربه

ثم ولى يجر عطفيه ويخط بيديه ونحن بين متلهف إليه ومتهافت عليه ثم لم نلبث أن
جللنا الحجى وتفرقنا أيادي سبا

المقامة الثامنة عشرة السنجارية

حكى الحارث بن همام قال قفلت ذات مرة من الشام أؤم مدينة السلام في ركب من بني نمير ورفقة
أولي خير ومير ومعنا أبو زيد السروجي عقلة العجلان وسلوة الثكلان وأعجوبة
الزمان والمشار إليه بالبنان في البيان فصادف نزولنا سنجار أن أولم بها أحد التجار
فدعا إلى مأدبته الجفلى من أهل الحضارة والفلا حتى شملت دعوته العافي وجمع بها
بين الفريد والتأله فلما أجبنا مناديه وحللنا ناديه أحضر من أطعمة اليد والبد ما حلا في
الفم وحلا في العين ثم قدم جاما كأنما جمد من الهوى أو جمع من الهبا أو صيغ من نور الفضا

أو قشر من الدرة البيضا وقد أودع لطائف النعيم وضمخ بالطيب العميم وسيق إليه شرب
من تسنيم تنفر عن مرأى وسيم وأرج نسيم فلما اضطرمت مجمرة الشهوات وقرمت إلى مخبر اللهوات
وشارف أن تشن على سربه الغارات ويبادى عند نهبه بالثارات نشز أبو زيد كالمجنون
وتباعد عنه تباعد الضب من النون فراودناه على أن يعود وألا يكون كقدار في ثمود فقال والذي
ينشر الأموات من الرجام لا عدت دون رفع الجام فلم نجد بدا من تألفه وإبراز خلفه والعقول
معه تتأله والله يعلم ما بليه فلما آوى إلى مجثمه وخلص من مأثمه سألناه لم قام ولأي
معنى استرفع الطعام فقال إن الزجاج نمام وإني آليت منذ أعوام ألا يضمني ونماما مقام
فقلنا وما سبب يمينك المرعية وأليتك الكرية فقال كان لي جار لسانه يتقرب وقلبه عقرب
ولفظه شهد ينقع وخبئه سم منقع فملت لمحاورته إلى مجاورته واغتررت لمكاشرته
في معاشرته وتمهوت حضرة دمنته لمنادمته وأغرتني خدعة سمته لما سمته فمارحته
وعندي أنه جار مكاسن فبان أنه عقاب كاسر وأنسته على أنه حت مؤانس ووضح أنه جاسوس
مؤالس وما خشيته وما أعلم أنه عند ثقاته ممن يفرح بعقله وعاقرته ولم أدر أنه يعد قربه
ممن يطرب لمعرفة وكانت عندي جارية لا يوجد لها في الكمال مجاريه إن أسفرت خجل النيرات
وصليت القلوب بالنيران وإن ابتسمت أزرت بالجمان وبيع المرجان بالمجان
وإن رنت هيجت البلابل وحققت سحر بابل وإن نطقت عقلت لب العاقل واستنزلت
العصم من المعاقل وإن قرأت شفت المفؤود وأحيت الموؤود وخلتها أوتيت من مزامير
آل داود وإن غنت ظل معبد لها عبدا وقيل سحقا لإسحاق وبعدا وإن زمرت
أضحى زنام عندها زنيما بعد أن كان بحيله رغيما وبالإطراب عليما وإن رقصت أمالت العمائم
عن الرؤوس وأنستك رقص الحبب في الكؤوس فكنت أزدري معها حمر النعم وأحلى بتمليكها
جيد النعم وأخفي مرآها عن الشمس والقمر وأذود ذكراها عن سابع السمر وأنا مع ذلك
ألهج من أن يسري نبأها هانح أو يكشف بها طائح أو يتم عليه برق ملتح فاتفق لو شك الحظ
المنحوس ونكد الطالع المنحوس أن أنطقتني بوصفها حميا المدام عند الجار النمام ثم فات الفهم
بعد أن صرد السهم فاجتنيت الخبال والوبال وضيعة ما أودع ذلك الغربال بيد أني

ما هبته على علم ما لقطته وأن تحفظ السر ولو حفظته مع أنه تخزن الأسرار كما
تخزن اللئيم الدينار وأن لا تهتك الاستار ولو عرض لأن يلج في النار فاعز ذلك الزمان
الأيوم أو يومان حتى بدا لأمير تلك المدرة والناهي ذي المقدرة أن يفتصد باب قبله مجددا عرض خيله
ويستمطر عارض نيله وأرادا أن تطلبه تحفة تلايم هواه ليتفق مما بين يدي نجواه وجعل
ببذل الجعائل لرواده ويبني المراغب لمن يظفر بمراده فأسبق ذلك الحار الحار إلى
بيت وله وعصى في إذاع العار عذل عن وله فأتى الوالي ناشرا أذنيه وأنته ما كنت أسررته
إليه عارا على لا انتباه صاغيته إلي وانثيال حقدانه على بسوء إشاره بالدره
البتيمه على أن أحكم عليه في القيمه فغشيني من الغم ما غشيني من عون وجنوده من اليم ولم أزل
أدافع عنه ولا أبغي الدفاع وأستشفع إليه ولا يجدي الاستشفاع وكلما رأى مني ازديادا لا
وانسدادا للمناص تجرم وتضرم وحرق علي الأزم ولعسني مع ذلك لا أسمح لمفارقه بدربك
وبأن أنزع قلبي من صدري حتى آل الوعيد إيقاعا والتقريع قراعا فقادني الإشفاق من الحين
إلى أن قضته سواد العين بصفر العين ولم يحظ الواشي بغير الإثم والتشين فما هذا الله تعالى من
العهد الإخاض بما أمر بعقد والزجاج مخصوص بالطابع الذميمه وبه يضرب المثل في النميمه فقد جرى
عليه سبيل نمي ولذلك التبت لم تمتد إليه يميني

شعر

فلا تعذلوني بعدما قد شرحته على أن حرمتم بي اقتطاف القطايف
فقد بان عذري في ضنيني وإنني سأرتو قضي من لطيف طايف
على أن ما زودتكم من فكاهة ألذ من الحلوا لدى كل عارف

قال الحارث بن همام فقبلنا اعتذاره وقبلنا عذاره وقلنا له قد ما وقف التميمة خير البشر
حتى انتشر على حالة الحطب ما انتشر ثم سألناه عما أحدث جارة القتات ودخلة المغنيات بعد
أن رايك لحل السقايه وحرم حبل الرعايه فقال أخذني الاستحذا والاستكانه والاستشفاع
إلى بدوي المكانه وكنت حرجت على نفسي أن يسترجعه أنسي أو يرجع إلى أنسي فلم يكن لي مني
سوى الرد والإصرار على الصد وهو لا يتكلم من الشجة ولا يتثبت من وجدة الوجه

لن يلط بالوسائل ويلح في المسائل فما انفك في مرامه ولا أبعد عليه نيل مرامه إلا أبيات نفث
بها الصدر الموتور والخاطر المشنون فإنها كانت منه حرزة لشيطانه ومنجمة له في أوطانه
وعند انتشارها بت طلاق الحبور ودعا بالويل والثبور وأيس من نشدو مثلي المقبون
كما يئس الكفار من أصحاب القبور فناشدناه أن ينشدنا إياها ونستعتار رياها فقال أجل
خلق الإنسان من عجل ثم أنشد لا يروي بخجل والابتئيه وجل

وخل لي محضته صدق ودي إذ تو همته صديقا حميما
ثم أوليته قطيعة قال حين ألفيته صديقا حميما
خلته قبل أن تجرب لي لفا ذا ذمام فبان خلفا ذميما
تحيز كليما فأمسى منه قلبي بما جناه كليما
وتظنيته معينا رحيما فتبينته لعينا رجيما
ورأيته من بدا تجلى عنه يبكي له من بدا لئيما
ونوسمت أن يبث نسيما فأبى أن يبث إلا سموما
ست من لسعه لدى أغز الراقي سليما وبات مني سليما
وغدا أمر غداة افترقنا مستقيما والجسم مني سقيما
لم يكن رابعا حضينا ولكن كان بالشر رابعا لي خصيما
قلت لما تلوت لبته كان عديما ولم يكن لي نديما
بعض الصبح حين نم إلى قلبي لأن الصباح يلفي نموما
ولكم من يشي ولو فاه بالصدق أثاما فيما أتاه ولوما

قال فلما سمع رث المنزل قريضه ويتجعه وأتلج تفريضه دتبعه بقاء مهاد كرامته وصدر
على تكرمته ثم استحضر عشر صحاف من الغرب فيها حلوا القند والضرب وقال الراية بنوى
أصحاب النار وأصحاب الجنة ولا يسع أن تجعل البري لذى الظنة وهو بعاد
متنزل منزلة الأبرار في صون الأسرار فلا نولها الإبعاد ولا نلحق هوذا
ثم أمر خادمه بنقلها إلى مثواه ليحكم فيها بهواه فأقبل علينا أبو زيد وقال

امرأ رسو الفتح والبشر بانثيال الفرج فقد جبر الله ثكلكم وسنّى أكلكم وجمع في طي الحكاية شملكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ولما هم بالانصراف مال إلى استهداء القحاف فقال للأديب إن من دلائل الظرف سماحة المهدي بالظرف فقال كلاهما والغلام واحرف الكلام وانهض بسلام فوثب في أكواب وشكره شكر الروض للسحاب ثم اقتادنا ابو زيد الى جوائه وحملنا في حلوانه وجعل يتلو الأواني بيده وينفض عددها على عدده ثم قال لنا أدري أأشكو ذلك التمام أم أشكر وأتناسى فعلته أم أذكر فإنه وإن كان أسلف في الجمله ولمّ الثمه فمن غنيمة أنهلت هذه الديمه وبشفعة انجار هذا الغنيمه وقد خطر ببالي أن أرجع إلى أشبالي وأقنع بما تيسّر لي وألا أتعب نفسي ولا أجمالي وأنا أودعكم وداع مجافظ واستودعكم خير حافظ ثم استوى على راحلته راجعاً في حافرته ولا وبا إلى زاويته فغادرنا بعد أن وحدت عيشه وزايلنا أنسه كدهشة غاب صيد ثم أوليل أفل بدره

المقامة التاسعة عشرة النصيبية

روى الحارث بن همام قال لما حلّ العراق ذات العويم لإخلاف أنواء الغيم وتحدث الركبان برغف نصيبين وبلهنية أهلها المخصبين فانتعلت مجمّرتا واعتقلت سمهريا وسرت أطوي أرضاً إلى أرض وأجتاب بين رفع وخفض حتى بلغتها نقضاً على نقض فلما أنخت بمغناها الخصيب وضربت في مرعاها بنصيب نويت أن ألقي بها جراني واتخذ أهلها جيراني إلى أن تحيي السنة الجماد ويتعهد أرض قومي العهاد فوالله ما اكتحلت مقلتي بنومها ولا انمحضت لبلتي عن يومها أو ألفيت أبا زيد السروجي يجول في أرجاء نصيبين ويخبط بها خبط المصابين والمصيبين وهو ينثر فيه الدرر ويجتلب بكفيه الدرر فوجدت جهادي قد جاء مغنماً وقدحي الفذ قد صار توأماً ولم أزل أتبع ظله أينما انبعث والتقط لفظه كلما نفث إلى أن عراه مرض امتد مداه وعرقه مداه حتى كاد يسلبه ثوب الحيا ويلحقه إلى أبي يحيى فوجدت لفوت لقياه وانقطاع سقياه ما يجد المبعد عن مرامه والمرضع عند فطامه ثم انحف بأن رهنه قد علق

ويخلف الحمام به قد علق فقلق صحبه لإرجاف المرجفين وأنشأوا إلى عفوه موجفين

جبابرة لم يبد بهم شجوهم ... كأنهم ارتضعوا الخندريسا
أسالوا الغروب وغطّوا الجيوب ... وصكّوا الخدود وشقّوا الرؤوس
يودّون لو سالمته المنون ... وغالت نفائسهم والنفوسا

قال الراوي وكنت بين الثقة من أصحابه وأعجل إلى بابه فلما انتهينا إلى مثابه وتصدّينا لانتيابه برز إلينا فتاه نغبة شفيفتاه فاستطلعناه طلع الشيخ في شكاته وكنه ثواه وحركاته فقال قد كان في قبضة المرض وغرض الوعك إلى أن شفّه الدنف واستشف التلف ثم من الله تعالى بتقويم قناته فأفاق من غمايه فارجعوا أدراجكم وأنضوا أزعاجكم فكان قد غدى وراح وما قاله البراح فأعظمنا بشراه واقترحنا أن نراه قبل مودانا ثم خرج آذناً لنا فلقينا منه لقى ولساناً طلقاً وجلسنا محدقين بسريره محدّقين إلى أسارير فقلّطهم في الجماعة ثم قال اجتلوها بنت الساعة وأنشد

عافاني الله وشكراً له ... من علة كادت تعفّيني
ومنّ بالبرء على أنه ... لا بد من حتف سيرديني
ما بيننا سابق ولكنه ... إلى تقضّي الأكل ينسيني
إن حم لم يغن حميم ولا ... حمى كليب منه يحميني
وما أبالي أدنا يومه ... أم أخّر الحين إلى حين
وإنما حيرتي في حوب أرى ... فيه البلايا ثم تبليني

قال فدعونا له بامتداد الأجل وارتداد الوجل ثم تداعينا إلى القيام اتقاء الإبرام فقال كلا بل تثووا أبيات صبوحكم عندي لتشفوا بالمفاكهة وجدي فإن ما حاكم قوت نفسي ومغنا طيب أنسي فتحرّينا مرضاته وتحامينا معاصاته ثم أقبلنا على الحديث نمخض زبده ونلغي زبده إلى أن حان وقت المقيل وكلت الألسن من القال والقيل وكان يوماً حامي الوديقة يانع الحديقة فقال إن النعاس قد أمال الأعناق وزاود الآماق وهو خصم ألد وخطب لا يرد فصلوا حبله بالقيلوله

واقتدِ فيه بالآثار المنقولة قال الراوي فاتّبعنا ما قال وقلنا وقال فقرّ الله
على الآذان وافرع الألسنة في الأجفان حتى جنح جناح الوجود وضربنا بالهجوع عن التحوّم فما
استيقظنا إلّا والحرّ قد باح واليوم قد شاخ فتركنا الصلوة العجماوين وادّينا ما حلّ
من الدين ثم تحثحثنا للارتحال إلى ملقى الرحال فالتفت أبو زيد إلى شبله وكان
على شاكلته وشكله وقال إني أخال أبا عمرة قد أضرم في أحشائك الجمر فاستدع أبا جابر
فإنه بشرى كل جايع وأردفه بأبي نعيم الصابر على كل ضيم ثم عزّزه بأبي حبيب الحبّ إلى
كل لبيب المقلّب بإحراق وتعذيب واهتف بأبي ثقيف محبّذا هو من أليف وهلمّ بأبي
عون فما مثله من عون ولو استحضرت أبا جميل لتجمّل أي تجميل وجيء بأم القرى المذكّرة بكسرى
ولا تنسانّ أم جابر فكم لها من ذاكر وناد أم الفرج ثم أتبعها ولا حرج واختم بأبي زرير
فهو مسلاة لكل حزين وإن تعزّز به أبا العلاء نمح اسمك من البخلاء وإياك واستدناء المرجفين
قبل استقلال الحمول الثبن واذا نزع القوم عن المراس وصافحوا أبا إياس فاطّف عليهم أبا الفرو
فإنه عنوان السرو قال ففقه ابنه لطائف رموزه فلطافة تمييزه
وطاف علينا بالطيّبات والطيب إلى أن أذنت الشمس بالمغيب فلما اجمعنا على التوديع
قلنا له ألم تر إلى هذا اليوم البديع كيف بدا صبحه مقطرًا ومسيه مستبشرًا
فسجد حتى أطال ثم رفع رأسه وقال

لا تأسينّ عند النوب ... فرجة تجلو الكرب
فكم سموم هبّت ثم جرى ... نسيمًا وانقلب
وسحاب مكروه تنشّا ... فاضمحلّ وما سكب
ودخان خطب خيف منه ... فالنشأن له لهب
ولطالما طلع الأسى ... وعلى تقضّيه غرب
فاصبر إذا ما ناب روع ... فالزمان أبو العجب
وترجّ من روح الإله ... لطائفًا لا تحتسب

قال فانقلبنا أيادينا العرو ولينا الله ولى الشكر ووودعناه مسرورين

تفسير ما تضمّن هذه المقامة من ألفاظ لغوية

وكنى طفيلية وكنايات صوفية قوله ذات اليوم نعني به الزمان المتقادم ومثله
ذات الزمين والسمهرية الرماح وفي تسميتها بذلك قولان أحدهما أنها سمّيت
لذلك لصلابتها من قولهم اسمهرّ الشيء إذا اشتدّ وقيل إنها منسوبة إلى سمهر زوج
ردينة وكانا جميعًا يثقفان الرماح فنسبت إليهما وقوله وقر الله على
الآذان أي أنامنا ومنه قوله تعالى فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددًا أي أنمناهم
وقيل في تفسيره منعناهم السمع وقوله تركنا الصلاة العجماوين أي غسلنا أكارعنا وهو
كناية عن الوضوء والعجماوان صلاتا الظهر والعصر سمّيتا بذلك لإسرار القراءة فيهما ومنه
الحديث صلاة النهار عجماء وقوله هلم وهي بمعنى هات وأقبل والأفصح أن يوحّد لفظها
مع المذكر والمؤنث والاثنين والجمع وبه نطق القرآن في قوله تعالى والقائلين لإخوانهم
هلمّ إلينا ومن العرب من يقول للمذكر الواحد هلمّ وللاثنين هلمّا وللجميع هلمّوا وللمؤنثة الواحدة
هلمّي وللاثنتين هلمّا وللجميع هلممن وقوله حيّ هل أي عجّل تعالى حيّ هل بلا ان بتسكين
اللام وفتحها وبتنوينها وبإثبات النون معها ومنه قول ابن مسعود رحمه الله في عمر رضي الله عنه
إذا ذكر الصالحون فحيّ هلا بعمر وفي حي هل لغات أخر أضربنا عن ذكرها إذ ليس هذا موضع
استيعاب شرحها فهذا تفسير الألفاظ اللغوية وأمّا تفسير الكنى الطفيلية والكنايات
الصوفية فأبو يحيى كنية الموت وأبو عمرة كنية الجوع ويكنى أيضًا أبا مالك وأبو جامع الخوان
وأبو نعيم الخبز الحوّارى وأبو حبيب الجدي وأبو ثقيف الخلّ وأبو عون الملح
وأبو جميل البقل وأم القرى الشكباج وأم جابر الهريسة وأم الفرج الجوذابة
وأبو زرير الخبيص وأبو العلاء الفالوذج وأبو إياس العشوق والموجفان الطست
والإبريق وأبو الفرو والبخورة

المقامة العشرون الفارقية

حكى الحارث بن همام قال يممت ميّا فارقين مع رفقة موافقين لا يمارون في المناجاة ولا يدرون ما طعم المداجاة
فكنت بهم كمن لم يبرح عن وجاره ولا ظعن عن ألفه وجاره فلما أنخنا بها مطايا التسيار
وانتقلنا عن الأكوار إلى الأوكار تواصينا بتنكّب الصحبة وتناهينا عن

التقاطع في الغربة، واتخذنا ناديا نعتمره طرفي النهار، ونتهادى فيه طرف الأخبار، فبينا نحن في بعض الأيام، وقد انتظمنا في سلك الالتئام، وقف علينا ذو مقول جريّ، وجرس جهوريّ، فحيّا تحية نفّاث في العقد، مناضل للأسد والنقد، قال:

عندي يا قوم حديث عجيب ... فيه اعتبار للبيب الأريب
رأيت في ريعان عمري أخا ... بأس له حدّ الحسام القضيب
يقدم في المعرك إقدام من ... يوقن بالفتك ولا يستريب
فيفرج الضيق بكراته ... حتى يرى ما كان ضنكاً رحيب
ما بارز الأقران إلا انثنى ... عن موقف الطعن برمح خضيب
ولا سما يفتح مستصعبا ... مستغلق الباب منيعاً مهيب
إلا ونودي حين يسمو له ... نصر من الله وفتح قريب
هذا ولم يبله باتها ... يميس في برد الشباب القشيب
يرتشف الغيد ويرشفنه ... وهو لديه الكل المفدى الحبيب
فلم يزل يبتزّه دهره ... ما فيه من بطش وعود صليب
حتى أصارته الليالي لقى ... يعافه من كان منه قريب
قد عجز الراقي تحليل ما ... به من الداء وأعيا الطبيب
وصارم البيض وصار منه ... من بعد ما كان المجاب المجيب
وآض كالمنكوس في خلقه ... ومن يعش يلق دواهي المشيب
وها هو اليوم مسجّى لمن ... يرغب في تكفير ميت غريب

ثم إنه أعلن بالنحيب، وبكى بكاء المحب على الحبيب، ولما رقأت دمعته، وانقشعت لوعته، قال: يا نجعة الرواد، وقدوة الأجواد، والله ما نطقت ببهتان، ولا أخبرتكم إلا عن عيان، ولو كان لعصاي نير، ولعيني منظر، لاستأثرت بهاد عوّلكم إليه، ولما وقفت موقف الدالّ عليه، ولكن كيف الطيران بلا جناح، وهل على من لا يجد من جناح. قال الراوي: وطفق القوم يأتمرون فيما يأمرون، ويتخافتون فيما يأتون، فتوهم أنه على غرضه

بحرمان

بحرمان، أو مطالبة ببرهان، فقرّظه أن قال: بالإلماع القاع، ويراع اليفاع، ما هذا الإبّان الذي يأباه الحياء، حتى كأنكم كلّفتم مشقة لا شقة، أو استوهبتم بلدة لا بردة، أو هززتم لكسوة البيت لا لتكفين الميت، أفّ لمن لا تندى صفاته، ولا ترشح حصاته. فلما بصرنا الجماعة بذلاقته، ومرارة مذاقته، رفاه كلّ منهم بنيله، واحتمل ظلّه خوف سيله. قال الحارث بن همام: وكان هذا السائل واقفاً خلفي، ومحتجباً بظهري عن طرفي، فلما أرضاه القوم بنيلهم، وحقّ على اليأس منهم، خلجت حالي من حضري، ولفتّ إليه بصري، فإذا هو السروجي بلا فرية ولا مرية، فأيقنت أنها أكذوبة تكذّب بها، وأحبولة نصبها، إلا أني طويته على غرّه، ومشيت شعاه عن فترة، فحضنته بالختام، وقلت: ارصد لصفقة المأتم. فقال: واهاً لك ما أصرم شغلتك، وأكرم فعلتك. ثم انطلق يسعى قدماً، ويسرول هرولته قدماً، فنزعت إلى عرفان ميتته، وامتحان دعوى محنته، فقرعت ظنوني، وأنهبت أهوائي، حتى أدركته على علوة، واجتليته في خلوة، فأخذت بمجامع أردانه، وعقته عن سنن ميدانه، وقلت: والله ما لك مني منجى ولا ملجأ، أو تريني ميتك المسجّى. فكشف عن سراويله، وأشار إلى غرموله، فقلت له: قاتلك الله، فما أعبثك بالنهى، وأحيلك على اللهى. ثم عدت إلى أصحابي عود الرائد الذي لا يكذب أهله، ولا يبرقش قوله، فأخبرتهم بالذي رأيت، وما ورّيت ولا رأيت، فقهقهوا من كيت وكيت، ولعنوا ذلك الميت.

المقامة الحادية والعشرون

حدث الحارث بن همام قال: عنيت مذ أحكمت تدبيري، وعرفت قبيلي من دبيري، بأن أصغي إلى العظات، وألغي الكلم المحفظات، لأتحلّى بمحاسن الأخلاق، وأتخلّى مما يصم بالإخلاق، وما زلت آخذ نفسي بهذا الأدب، وأحمل به حمّة الغضب، حتى صار التطبع فيه طباعاً، والتألّف له هوى مطاعاً. فلما حللت الريّ، وقد حللت حبى الغيّ، وعرفت الحيّ من اللّيّ، رأيت بها ذات بكرة زمرة إثر زمرة، وهم منتشرون انتشار الجراد، ومستنّون استنان الجياد، ومتواصفون واعظاً يقصدونه، ويحلّون ابن سمعون دونه

القشيب الجديد
ابتزه اي سلبه
المسجى الممدد المغطى
العطايا

فلم يتمادَ في استماع المواعظ واحضار الواعظ أن أفاتني اللاغط واحتمل الضاغط فأصحبت أصحاب المطاوعة وانخرطت في سلكهم كالعقد حتى أفضينا إلى ناد جمع الأمير والمأمور وحشد القبيلة والجمهور وفي وسطها هالة ووسط أهلته شيخ قد تقوّس واقعنسس وتقلنس وتطلّس وهو يصدع بوعظ يشفي الصدور ويلين الصخور فسمعته يقول وقد افتتنت به العقول ابن آدم ما أغراك بما يغرّك وأضراك بما يضرّك وألهجك بما يطغيك وأبهجك بما يطريك تغلو بما يعنيك وتهمل ما يعنيك وتنزع في قوس تعدّيك وترتع في الحرص الذي يرديك لا بالكفاف تقنع ولا من الحرام تمتنع ولا للعظات تستمع ولا بالوعيد ترتدع دأبك أن تتقلّب مع الأهواء وتخبط خبط العشواء وهمّك أن تكثر في الأحراث وتجمع التراث للورّاث يعجبك التكاثر بما لديك ولا تذكر ما بين يديك وتسعى أبدا لغاريك ولا تبالي الكلام عليك أتظن أن ستترك سدى وأن لا تحاسب غدا أم تحسب أن الموت يقبل الرشا أو يميّز بين الأسد والرشا كلا والله لن يدفع المنون مال ولا بنون ولا ينفع أهل القبور سوى العمل المبرور فطوبى لمن سمع ووعى وحقق ما ادّعى ونهى النفس عن الهوى وعلم أن الفائز من ارعوى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم أنشد إنشاد وجل بصوت زجل

لعمرك ما تغني المغاني ولا الغنى ... إذا سكن المثري الثرى وثوى به

فجُد في مراضي الله بالمال راضيا ... بما تقتني من أجره وثوابه

فبادر به صرف الزمان فإنه ... بمخلبه الأشغى يغول وناب به

ولا تأمن الدهر الخؤون ومكره ... وكم خامل أخنى عليه ونابه

وعاص هوى النفس التي ما أطاعها ... أخو ضلة إلا هوى من عقابه

وحافظ على تقوى الإله وخوفه ... لتنجو مما يتّقى من عقابه

ولا تله عن تذكار ذنبك وابكه ... بدمع يضاهي الوبل حال مصابه

ومثّل

٢٢

ومثّل لعينيك الحمام ووقعه ... وروعة ملقاه ومطعم صابه

وإن قصارى منزل الحي حفرة ... سينزلها مستنزلا عن قبابه

فواها لعبد ساءه سوء فعله ... وأبدى التلافي قبل إغلاق بابه

فطأطأ القوم بين عزم يبدونها ونوايا يبطنونها حتى كادت الشمس تزول والفريضة تعول فلما خشعت الأصوات والتأم الإنصات واستكنت العبرات والعبارات استصرخ مستصرخ بالأمير الحاضر وجعل يجأر إليه من عامله الجائر والأمير صاغ إلى خصمه لاه عن كشف ظلمه فلما أيس من روحه استنهض الواعظ لنصحه فنهض نهضة الشمّير وأنشد معرّضا بالأمير

عجبا لراج أن ينال ولاية ... حتى إذا ما نال بغيته بغى

يسدي ويلحم في المظالم والخنا ... في وردها طورا وطورا في الولغا

ما إن يبالي حين يتبع الهوى ... فيها أأصلح دينه أم أوقعا

يا ويحه لو كان يوقن أنه ... ما حاله إلا يحول لما طغى

أو لو تبين ما ندامة من صغا ... سمعا إلى إفك الوشاة لما صغا

فانقل لمن أضحى الزمام بكفه ... وتغاض إن ألغى الرعاية أو لغا

وازع المزار إذا دعاك لرغبة ... ورد الأجاج إذا هماك الشبعا

واحمل أذاه ولو أمضك مسه ... وأسل غرب الدمع منك وأرزغا

فليضحكنك الدهر منه إذا نبا ... عنه وشب لكبده نار الوغى

وليتركن به الشمات إذا بلا ... متخليا من شغله متفرغا

ولتأوين له إذا ما خر ... أضحى على ترب الهوان ممرغا

لهذا له ولسوف توقف موقفا ... فيه يرى رب الفصاحة ألثغا

وليحشرن أذل من قفع الفلا ... ويحاسبن على النقيصة والشغا

ويود أحذر ما جنى ومراجني ... ويطالبن بما اجتنى وما ارتعى

حتى يعض على الولاية كفه ... ويود لو لم يبغ منها ما بغى

ثم قال أيها المتوشح بالولاية • المترشح بالرعاية • دع الإدلال بدولتك • والاغترار بصولتك
فإن الدولة زبح قلب • والقدرة برق خلب • فإن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته • وأشقاهم
في الدارين من شقيت برعايته • فلا تكن ممن يؤثر الآخرة ويلغيها • ويحب العاجلة ويبتغيها • ويظلم الرعية
ويؤذيها • وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها • فوالله ما يغفل الديان • ولا تهمل بالإنسان
بل سيوضع لك الميزان • وكما تدين تدان • قال فوجم الوالي لما سمع • وامتقع لونه وانتقع
وجعل يتأفف من الإمرة • ويردف الزفرة بالزفرة حتى عمد إلى الشاكي فأشكاه • وإلى المشكو فأشجاه
وألطف الواعظ وحباه • وعزم عليه أن يغشاه • فانقلب عنه المظلوم منصوراً • والظالم محصوراً
وبرز الواعظ يتهادى بين رفقته • ويتباهى بفوز صفقته • وأعقبته أخطو متقاصراً
وأريه لمحاً باصراً • فلما استشف ما أخفيه • وفطن لتقلب وجهي فيه • قال خير دليليك من
أرشد ثم اقترب مني وأنشد •

أنا الذي تعرفه يا حارث • حدث ملوك فكه منافث •
أطرب ما لا تطرب المثالث • طوراً أخو جد وطوراً عابث •
ما غيرتني بعدك الحوادث • ولا التحى عودي خطب كارث •
ولا فرى نابي حد فارث • بل مخلبي بكل صيد ضابث •
وكل سرح فيه ذئبي عائث • حتى كأني للأنام وارث •
شانئهم وحامهم ويافث •

قال الحارث بن همام فقلت له تالله إنك لأبو زيد ولقد هديت لله ولا عمرو بن عبيد فهش
هشاشة الكريم إذا ألم • وقال اسمع يا ابن أم •

عليك بالصدق ولو أنه • أحرقك الصدق بنار الوعيد •
وابغ رضى الله فأغبى الورى • من أسخط المولى وأرضى العبيد •

ثم إنه ودع أخدانه • وانطلق يسحب أردانه • فطلبناه بعد بالري • واستنشينا خبره من مدارج الطي
فما فينا من عرف قراره • ولا درى أي الجراد عاره •

المقامة الثانية

والعشرون

والعشرون الفراتية

حكى الحارث بن همام قال أويت في بعض الفترات
إلى سقي الفرات • فلقيت بها كتاباً أبرع من بني الفرات • وأعذب أخلاقاً من ماء الفرات فأطفت
بهم لتهذيبهم • وكاثرتهم لأدبهم لا لمآدبهم • فجالت منهم أطراف القعاقع بنشور ووصلت
بهم إلى الكون بعد الحور • حتى إنهم أشركوني في المرتع والمربع • وأحلوني محل الأنملة من الإصبع
واتخذوني ابن أنسهم عند الولاية والعزل • وخازن سرهم في الجد والهزل • فاتفق أن بدا لهم في بعض
الأوقات لاستقراء مزارع الرزداقات • فاختاروا من الجواري المنشآت جارية كالكه الثيات(؟)
تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب • وتنساب في الحباب كالحباب ثم دعوني إلى الموافقة
ثم دعوني واستدعوني للمرافقة • فلما تورّكنا على مطية الرحل • ونشطنا الواكية الماء(؟)
ألفينا بها شيخاً عليه سحق سربال • ورث بال • فعافت الجماعة محضره • وعنفت من أحضره
وهمت بإزعاجه من السفينة • لولا ما ثاب إليهم من السكينة • فلما لمح منا استثقال ظله • واستبراد طلة
تعرض للمنافثة فصمت • وحمل بعد أن عطس فما شمت • فأخرز(؟) يتطرف فيما آلت حاله إليه
وينتظر نصرة المبغي عليه • وجعلنا نخوض في شجون جد ومجون • إلى أن أغرينا بذكر الكاتبين
وفضلهما • وتبيان أفضلهما • فقال قائل إن كتبة الإنشاء أفضل الكتاب • ومال مائل
إلى تفضيل الحساب • واحتدم الحجاج • وامتد اللجاج • حتى إذا لم يبق للجدال مطرح ولا
للمراء مسرح • قال الشيخ لقد أكثرتم يا قوم اللغط • وأثرتم الصواب والغلط
وإن جلية الحكم عندي • فارتضوا بنقدي • ولا تستفتوا أحداً بعدي • اعلموا أن صناعة
الإنشاء أرفع • وصناعة الحساب أنفع • وقلم المكاتبة خاطب • وقلم المحاسبة حاطب
وأساطير البلاغات تنسخ لتدرس • ودساتير الحسابات تنسخ وتندرس • والمنشئ
جهينة الأخبار • وحقيبة الأسرار • ونجي العظماء • وكبير الندماء • وقلمه لسان الدولة
وفارس الجولة • ولقمان الحكمة • وترجمان الهمة وهو البشير والنذير • والشفيع والسفير
به تستخلص الصياصي • وتملك النواصي • ويقتاد العاصي • ويستدنى القاصي • وصاحبه
بريء من التبعات • آمن كيد السعاة • مقرظ بين الجماعات • غير معرض لنظم الجماعات

فلما انتهى في الفصل الى هذا الفصل لحظ من لحاظ القوم أنه ازدرع حبا وبغضا وأرضى بعضا
وأحفظ بعضا فعقب كلامه بأن قال إلا أن صناعة الحساب موضوعة على التحقيق وصناعة
الإنشاء مبنية على التلفيق وقلم الحاسب ضابط وقلم المنشئ خابط وبين إتاوة توظيف المعاملات
وتلاوة طوامير السجلات بون لا يدركه قياس ولا يعتوره التباس إذ الإتاوة تملأ الأكياس
والتلاوة تفرغ الراس وخراج الأوارج يغني الناظر واستخراج المدارج يعني الناظر ثم ان الحسبة
حفظة للأموال وحملة الأثقال والنقلة الأثبات والسفرة الثقات وأعلام
الإنصاف والانتصاف والشهود المقانع في الاختلاف ومنهم المستوفي الذي هو يد السلطان
وقطب الديوان وقسطاس الأعمال والمهيمن على العمال وإليه المآب في السلم والهرج وعليه
المدار في الدخل والخرج وبه مناط الضر والنفع وفي يده رباط الإعطاء والمنع ولولا قلم الحساب
لأودت ثمرة الاكتساب ولاتصل التغابن الى يوم الحساب ولكان نظام المعاملات محلولا
وجرح الظلامات مطلولا وجيد التناصف مغلولا وسيف التظالم مسلولا على أن
يراع الإنشاء متقول ويراع الحساب متأول والمحاسب مناقش والمنشئ ابو براقش ولكليهما
حمة حين يرقى الى أن يلقى ويرقى وإعنات فيما ينشى حتى يغشى ويرشى إلا الذين آمنوا وعملوا
الصالحات وقليل ما هم قال الحارث بن همام فلما أمتع الأسماع بما راق وراع استنسبناه
فاسترأب وأبى الانتساب ولو وجد منسابا لانساب فحصت مرتبكا على عمه حتى أكربت
بعد أمه فقلت والذي سخر الفلك الدوار والفلك السيار إنه لشيخنا أبو زيد فإن
كنت أعهده ذا رواء وأيد فتبسم ضاحكا من قولي وقال أنا هو على استحالة حالي وحولي فقلت
لأصحابي هذا الذي لا يفري فريه ولا يبارى عبقريه فخطبوا منه الود وبذلوا له الوجد
فرغب عن الإلف ولم يرغب في التحفة وقال أما بعد أن سخفتم حقي لأجل سخفي
وكنتم بالي للحلي شانين فما أراكم إلا بالعين السخينة ولا ألقاكم حتى صحبة السفينة
ثم انشد

اسمع أخي وصية من ناصح ... ما شاب محض النصح منه بغشه
لا تعجلن بقضية مشوهة ... في مدح من لم تبله أو خدشه
وقف القضية فيه حتى تجتلي ... وصفيه في حالي رضا وبطشه

وتبين خلب برقه من صدقه ... للشائم ونيله من رطشه
فهناك إن تر ما يشين فواره ... كرما وإن ترما يزين فأفشه
ومن استحق الارتقا فرقه ... ومن استحط فحطه في حشه
واعلم بأن التبر في عرق الثرى ... خاف الى أن يستثار بنبشه
وفضيلة الدينار يظهر سرها ... من حكه لا من ملاحة نقشه
ومن الغباوة أن تعظم جاهلا ... لصقال ملبسه ورونق رقشه
أو أن تهين مهذبا في نفسه ... لدروس بزته ورثة فرشه
وكم أخي طمر هيب لفضله ... ومفوف البردين عيب لفحشه
وإذا الفتى لم يغش عارا لم تكن ... أسماله إلا مراقي عرشه
ما إن يضر العضب كون قرابه ... خلقا ولا البازي حقارة عشه

ثم ما عتم ان استوقف الملاح وضعضع الشفيقة وشاح فندم كل منا على ما فرط في ذاته وأغضى
جفنه على قذاته وتعاهدنا على أن لا نحتقر شخصا لرثاثة برده والا نزدري سيفا مخبوا في غمده

المقامة الثالثة والعشرون

حكى الحارث بن همام قال نبا بي مألف الوطن في شرخ الزمن لخطب خشي وخوف غشي فأرقت كاس
الكرى ونضنضت ركاب السرى وجبت في سيري وعورا لم تدمثها الخطا ولا اهتدت
اليها القطا حتى وردت حمى الخلافة والحرم العاصم من المخافة فكروت بها كر الروع
واستشعاره وتسربلت لباس الأمن وشعاره وقصرت همي على لذة اجتنيها وملحة اجتليها
فبرزت يوما الى الحريم للأوطار وأجلت في طرفه طرفي فإذا فرسان متتالون
ورجال متتالون وشيخ طويل اللسان قصير الطيلسان قد لبب فتى جديد الشباب
خلق الجلباب فركضت إثر النظارة حتى وافينا باب الإمارة وهناك صاحب
المعونة مترتبا في دسته ومتروعا بسمته فقال له الشيخ أعز الله الوالي
وجعل كعبه العالي إني كفلت هذا الغلام فطيما وربيته يتيما ثم لم آله تعليما فلما
مهر وبهر جرد سيف العدوان وشهر ولم أخله يلتوي علي ويستحيل بري ويلتمع فقال

فقال له الوالي علام عزّرت منه حتى نشر هذا الخزي عني فوالله ما سترت وجه برّك ولا هتكت حجاب سترك ولا استنقصت عصا أمرك ولا ألبت بلاءك وشكرك فقال له الشيخ ويلك وأي ريب أخزى من ريبك وهل عيب أفحش من عيبك وقد ادّعيت سحري واستلحقته وانتحلت شعري واسترقته واستراق الشعر عند الشعراء أفظع من سرقة البيضاء والصفراء وغيرتهم على بنات الأفكار كغيرتهم على البنات الأبكار فقال الوالي للشيخ وهل حين سرق سلخ أم مسخ أم نسخ فقال والذي جعل الشعر ديوان العرب وترجمان الأدب ما أخذت سوى أبيات شمل شرحه وأغار على ثلثي كرحه فقال له أنشد أبياتك كلها ليتضح ما اجتاح من جملتها فأنشد

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى ... وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت في يومها أبكت غدى ... بعدًا لها من دار
وإذا أظلّ سحابها لم ينتقع منه صدى ... لجهامة الغرّار
غاراتها ما تنقضي وأسيرها لا يفتدى ... بجلائل الأخطار
كم مزدهٍ بغرورها حتى بدا متمرّدا ... متجاوز المقدار
قلبت له ظهر المجنّ وأولغت فيه المدى ... وزرت أخذ الثار
فاربأ بعمرك أن يمرّ مضيّعًا فيها سدى ... من غير ما استظهار
واقطع علائق حبها وطلابها تلق الهدى ... وترفّه الأسرار
وارقب إذا ما سالمت من كيدها حرب العدى ... وتوثّب الغدّار
واعلم بأن خطوبها تفجا ولو طال المدى ... ووشك سرى الأقدار

فقال له الوالي ثم ماذا صنع هذا قال أقدم للوقاحة على أبياتي الستة الأجزاء فحذف منها جزأين ونقص من أوزانها وزنين حتى صار أنزره فيه زيفين فقال ومن أين قلد فقال أزعني سمعك وأحل للتفهم عني ذرعك حتى أنشدت كيف أضلّت علي فتنقل عن قدر أجزائه إلى ثم أنشد والفاسه تتصعد

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى

دار متى ما أضحكت في يومها أبكت غدى
وإذا أظلّ سحابها لم ينتقع منه صدى
غاراتها ما تنقضي وأسيرها لا يفتدى
كم مزدهٍ بغرورها حتى بدا متمرّدا
قلبت له ظهر المجنّ وأولغت فيه المدى
فاربأ بعمرك أن يمرّ مضيّعًا فيها سدى
واقطع علائق حبها وطلابها تلق الهدى
وارقب إذا ما سالمت من كيدها حرب العدى
واعلم بأن خطوبها تفجا ولو طال المدى

والتفت الوالي إلى الغلام وقال له تبًّا لك من خِتّيت مارق ولص سارق فقال الفتى برئت من الأدب وبنيه ولحقت بمن يناويه وينقض مبانيه إن كانت أبياته نمت إلى علمي قبل أن لفقت نظمي وإنما اتفق توارد الخواطر كما قد يقع الحافر على الحافر قال فكأن الوالي حوّر صدق زعمه وندم على بادرة ذمّه فظل يفكر فيما يكشف له عن كمائن ويميز له العائف من المائق فلم ير إلا أخذهما بالمناضلة وكرّهما في قرن المساجلة فقال لهما إن أردتما افتضاح العاطل وانتصاح الحق من الباطل فترسلا في النظم وتباريا وتجاولا في حلبة الإجازة وتجاريا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة فقالا له بلسان واحد وجواب متوارد قد رضينا بسبرك فمرنا بأمرك فقال إني مولع من أنواع البلاغة بالتجنيس وأراه لها كالرئيس فانظما الآن عشرة أبيات تلحمانها بوشيه وترصعانها بحليه وضمّناها شرح حالي مع ألف بديع الصفة ألمى الشفة مليح التثني كثير التيه والتجنّي نعم أتناسى العهد وإطالة الصدّ وإخلاف الوعد وأنا له كالعبد قال فبرز الشيخ مجلّيًا وتلاه الفتى مصلّيًا وتجاريا بيتًا فبيتًا على هذا النسق إلى أن كمل نظم الأبيات واتّسق وهي

وأحوى حوى رقّي برقّة لفظه ... وغادرني إلف السهاد بغدره

تصدّى لقتلي بالصدود وإنني | لفي أسره مذ جار قلبي بأسره
أصدّق منه الزور خوفًا ازوراره | وأرضى استماع الهجر خشية هجره
وأستعذب التعذيب منه وكلما | أجدّ عذابي جدّ بي حب برّه
تناسى ذمامي والتناسي مذمّة | وأحفظ قلبي وهو حافظ سرّه
وأعجب ما فيه التباهي بعجبه | وأكبر عن أن أقمع بكبره
له مني المدح الذي طاب نشره | ولي منه طيّ الودّ من بعد نشره
ولو كان عدلًا ما تجنّى وقد جنى | عليّ وغيري يجتني رشف ثغره
ولولا تثنّيه ثنيت أعنّتي | بدارًا إلى من أجتني نور بدره
وإني على تصريف أمري وأمره | أرى الموت حلوًا في الغياب لأمره

فلما انشدها الوالي عرّاتلين نبهت لذكائهما المتعادلين وقال أشهد بالله إنكما فرقدا سما وكزندين وعا وإن هذا الحدث ليفضل مما آتاه الله ويستعطي ... الشيخ مراتهامه وثب إلى اكرامه فقال الشيخ هيهات أن تراجعه ... ويعلق به تعي وقد بلوت كفرانه للصنيع ومنيت منه بالعقوق التنبع فاعترضه الفتى وقال له هذا إن اللجاج شوم والحنق لوم وتحقيق الظنة إثم وإعنات البري ظلم وهبني اقترفت جريرة او اجترحت كبيرة أما لك إذ انشدتني لتعيتك في إبان أليتك

ناصح أخاك إذا خلط | منه الإصابة بالغلط
وتجاف عن تعنيفه | إن زاغ يومًا أو قسط
واحفظ صنيعك عنده | شكر الصنيعة أم غمط
وأطعه إن عاصى وهن | إن عزّ وادن إذا شحط
واقن الوفاء ولو اخل | بما اشترطت وما اشترط
واعلم بأنك إن طلبت | مهذبًا رمت الشطط
من ذا الذي ما ساء قط | ومن له الحسنى فقط

أو ما ترى المحبوب والمكروه لزّا في نمط
كالشوك يبدو في الغصون مع الجنيّ الملتقط
ولذاذة العمر الطويل يشوبها نغص الشمط
ولو انتقدت بني الزمان وجدت اكثرهم سقط

فجعل الشيخ ينضنض نضنضة الصل ويحملق حملقة البازي المطل ثم قال والذي زيّن السما بالشهب وانزل الماء من السحب ما روعي عن الاصطلاح إلا لتوقي الافتضاح فإن هذا الفتى اعتاد أن أمونه وأراعي شؤونه وقد كان الدهر يسح فلم أكن أشح وأما الآن فالوقت عبوس وحشو العيش بوس حتى ان يزني هذه عار وبيتي لا تطوره فاره قال فرق لهما قلب الوالي وأوى لهما من غير الليالي وصبا الى اختصاصهما بالإسعاف وأمر النظارة بالانصراف قال الراوي وكنت منشوقا الى مرأى الشيخ لعلي أعلم علمه اذا عاينت وسمه ولم يكن الزحام يسفر عنه ولا يفرج فادنو منه فلما تقوضت الصفوف وأجمل الوقوف توسمته فاذا هو ابو زيد والفتى فتاه فعرفت حينئذ مغزاه وكدت أنقض عليه لأتعرف إليه فزجرني بإيماض طرفه واتقى قفي بآيا كفه فلزمت موقفي واخرت منصرفي فقال الوالي ما مرامك والى ما سبب مقامك فابتدر الشيخ وقال إنه أنيسي وصاحب ملبوسي فتسمّح عند هذا القول بتأنيسي ورخص لي جلوسي ثم افاض عليهما خلعتين ووصلهما بنصاب من العين وتعهدهما أن يتعاشرا بالمعروف إلى ظلال اليوم المخوف فنهضا من ناديه متشدين بشكر اياديه وتبعتهما لأعرف مثواهما وأرود مرعاهما فلما أجزنا حمى الوالي وأفضينا الى الفضا الخالي أدركني أحد جلاوزته مهيبًا بي الى حوزته فقلت لأبي زيد ما أظنه استحضرني الا ليستخبرني فماذا أقول وفي أي واد معه أجول فقال بيّن له غباوة قلبه وتلعابي بلبّه ليعلم أن ريحه لاقت إعصارًا وجدوله صادف

نثارا فقلت أخاف أن ينقد غضبه فيلفحك لهبه أو تستشري طيشته فيسري إليك بطشه
فقال إني أرحل الآن إلى الرها وأنى يلتقي سهيل والسها فلما حضرت الوالي وقد خلا مجلسه
وانجلى تعبسه أخذ يصف أبا زيد وفضله ويذم الدهر له وأهله ثم قال نشدتك الله ألست
الذي أعاره الدست فقلت والذي أجلسك في هذا الدست ما أنا بصاحب ذاك الدست بل أنت
الذي تم عليه الدست فازورت مقلتاه واحمارت وجنتاه وقال والله ما يحسن بي قط فضح مريب
ولا تكشف معيب ولكن ما سمعت بأن تحضا ذلك بعد ما تطلس فيهما ثم له أن ليس أفندى
ابن سلع ذلك اللكع فقلت أنا أشفق منك لتعدي طوره وقطع عن بغداد مروره فقال
لا قرب الله له نوى ولا كلأه ابن ثوى فما أولعت بشاعر أنكره ولا ذقت أمر من مكره
ولولا حرمة أدبه لأوغلت في طلبه إلى أن يقع فأوقع به وإني لأكره أن تشيع فعلته بمدينة
السلام فأفتضح بين الأنام وتحبط مكانتي عند الإمام وأصير ضحكة الخاص والعام فعاهدته
على معاهدة من الإيتال ووفيت له كما وفى السموأل

المقامة الرابعة والعشرون القطيعية

حكى الحارث بن همام قال عاشرت بقطيعة الربيع
في إبان الربيع فتية وجوههم أبهى من أنواره وأخلاقهم أبهج من أزهاره وألفاظهم أرق من نسيم
أسحاره فاجتليت منهم ما يزري على الربيع الزاهر ويغني عن رنات المزاهر وكنا
تقاسمنا على حفظ الوداد وحظر الاستبداد وأن لا ينفرد أحدنا بالتذاذ ولا يستأثر
ولو برذاذ فأجمعنا في يوم سما دجنه وتما حسنه وحكم بالاصطباح مزنه على أن نلتهي
بالخروج إلى بعض المروج لنسرح النواظر في النواضر ونصقل الخواطر بشيم المواطر
فبرزنا ونحن كالشهور عدة وكندماني جذيمة مودة إلى حديقة أخذت زخرفها
وازينت وتنوعت أزاهرها وتلونت ومعنا الكميت الشموس والسقاة الشموس
والشادن الذي يطرب السامع ويلهيه ويفري كل نعم ما يشتهيه فلما اطمأن بنا
الجلوس ودارت علينا الكؤوس وغل علينا ذو طمرين عليه طمر فتجهمنا تجهم الغيد
الشيب ووجدنا صفو صبوحنا قد تشيب إلا أنه سلم تسليم أولي الفهم وحلس لعطف

لطائم النثر والنظم ونحن نتزوى من انبساطه وننبري لطي بساطه إلى أن تنادينا المعرب وتغردنا
المطرب

إلام سعاد لا تصلين حبلي ... ولا تأوين لي مما ألاقي
صبرت عليك حتى عيل صبري ... وكادت تبلغ الروح التراقي
وها أنا قد عزمت على انتصاف ... أساقي فيه خلي ما أساقي
فإن وصلا ألذ به فوصل ... وإن صرما فصرم كالطلاق

قال فلم تنبهنا العابث بالثاني لم نصب الوصل للأول ورفع الثاني فأقسم بتربة أبويه
لقد نطق بما اختاره سيبويه فتشعبت حينئذ آل الجمع في تجويز النصب والرفع فقالت فرقة
رفعهما هو الصواب وقالت طائفة لا يجوز فيهما إلا الانتصاب واستهم على أخي الجول
واستعر بينهم الاصطخاب وذلك لو أغل يبدي ابتسام ذي معرفة وإن لم يفه ببنت شفة حتى إذا
سكنت الزماجر وصمت المزجور والزاجر قال يا قوم أنا أنبئكم بتأويله وأميز صحيح القول
من عليله إنه ليجوز رفع الوصل ونصبهما والمغايرة في الإعراب بينهما وذلك بحسب اختلاف
الإضمار والتقدير للمحذوف في هذا المضمار قال فتفرطت الجماعة إفراطا في ممارته والجراط
إلى مباراته فقال أما إذ دعوتم نزال وتلببتم للنضال فما كلمة هي إن شئتم حرف محبوب
أو اسم لما فيه حرف حلوب وأي اسم يتردد بين فرد حازم وجمع ملازم وأية هاء إذا التحقت
أماطت الثقل وأطلقت المعتقل وأين يدخل التنوين فيعزل العامل من غير أن يحامل وما
منصوب أبدا على الظرف لا يخفضه سوى حرف وأي مضاف أخل من عرى الإضافة بعروة واختلف
حكمه بين مساء وغدوة وما العامل الذي يتصل آخره بأوله ويعمل معكوسه مثل عمله وأي
عامل نائبه أرحب منه وكرا وأعظم مكرا وأكثر لله تعالى ذكرا وفي أي موطن يلبس الذكران
براقع النسوان وتبرز ربات الحجال بعمائم الرجال وأين يجب حفظ المراتب على المضروب
والضارب وما اسم لا يفهم إلا باستضافة كلمتين أو الاقتصار منه على حرفين وفي وضعه الأول
التزام وفي الثاني إلزام وما وصف إذا أردف بالنون نقص صاحبه في العيون وقوم

بالدون وفرح من الزبون وتعرّض للهون فمهلًا ثبتت عشرة مثله وفوق عددكم
وزنة لبدكم ولو زدتم زدنا وإن عدتم عدنا قال المخبر بهذه الحكاية فورد علينا من أحاجيه
اللاتي هالت لما انهالت ما حارت له الأفكار وحالت فلما أعجزنا العوم في بحره واستسلمت
نا للعجز عن سبره عدلنا من اشتغال الروية له إلى استنزال الرواية عنه ومن بغي التبرّم
به إلى ابتغاء التعلّم منه فقال والذي نزّل النحو في الكلام منزلة الملح في الطعام لا أنلتكم
مرامًا ولا أنبأتكم إلمامًا أو تخوّلني كلّ يد وتختصّني كلٌّ منكم بيد فلم يسع الجماعة إلا من
أذعن لحكمه وسلّ إليه خبأة كمّه فكشف حينئذ عن أسرار ألغازه وبدائع إعجازه
ما جلا به صدأ الأذهان وجلّى مطلعه بنور البرهان قال الراوي فهمنا حين
وعجبنا إذ أجنا وندمنا على ما ندّ منّا وأخذنا نعتذر إليه اعتذار الأكياس ونعرض
عليه ارتضاع الكاس فقال ما أربٌ لأجفاوة ومشربٌ لم تنق له عندكم حلاوة ثم شمخ
بأنفه صلفًا ونأى بجانبه أنفًا وأنشد

نهاني الشيب عمّا فيه أفراحي — فكيف أجمع بين الراح والراح
وهل يجوز اصطباحي من معتّقة — وقد أنار مشيب الرأس إصباحي
آليت لا خامرتني الخمر ما علقت — روحي بجسمي وألفاظي بإفصاحي
ولا اكتست لي بكاسات السلاف يد — ولا أجلت قداحي بين أقداحي
ولا صرفت إلى صرف مشعشعة — همّي ولا رحت مرتاحًا إلى راح
ولا نظمت على مشمولة أبدًا — شملي ولا اخترت ندمانًا سوى الصاحي
محى المشيب مراحي حين خطّ على — رأسي فأبغض به من كاتب ماح
ولاح يلحى على جري العنان إلى — ملهى فسحقًا له من لائح لاح
ولو لهوت وفودي شائب لخبا — من المصابيح من غسّان مصباحي
قوم سجاياهم توقير ضيفهم — والشيب ضيف له التوقير يا صاح

ثم

ثم إنه أبتّ أسباب الأنس وأجذّ حبال الغيم فعلمت أنه السروجي وندم الأديب الذي
جانب الزوج وكان قصارانا التحرّق لبعده والتفرّق من بعده **تفسير ما أودع**
هذه المقامة من النكت العربية والأحاجي النحوية أما صدر البيت الأحجي
الأغنية الذي هو فأن وصلا إلى من وصل فانظر قولهم المرء مجزيّ بعمله إن خيرًا فخير
وإن شرًّا فشر وهذا المثل أوله عكس كتابته وجوّز في إعرابه أربعة أوجه
أحدها وهو أجودها أن تنصب خيرًا الأول وترفع الثاني وتنصب شرًّا
الأول وترفع الثاني ويكون تقديره إن كان عمله خيرًا فجزاؤه خير وإن كان
عمله شرًّا فجزاؤه شر فينتصب الأول على أنه خبر كان ويرتفع الثاني على أنه خبر مبتدإ
محذوف وقد حذفت في هذا الوجه كان واسمها لدلالة حرف الشرط الذي هو إن على
تقديرها وحذفت أيضًا المبتدأ لدلالة الفاء التي هي جواب الشرط عليه لأنه
كثيرًا ما يقع بعدها والوجه الثاني أن تنصبهما جميعًا ويكون تقدير الكلام إن
كان عمله خيرًا فهو يجزى خيرًا وإن كان عمله شرًّا فهو يجزى شرًّا فينتصب الأول على أنه
خبر كان وينتصب الثاني انتصاب المفعول به والوجه الثالث أن ترفعهما جميعًا
ويكون تقدير الكلام إن كان في عمله خير فجزاؤه خير فيرتفع خير الأول على أنه اسم كان
ويرتفع خير الثاني على ما بيّن في شرح الوجه الأول وقد يجوز أن يرتفع خير الأول
على أنه فاعل كان وتجعل كان المقدرة هاهنا هي التامة التي بمعنى حدث ووقع
ولا تحتاج إلى خبر كقوله تعالى وإن كان ذو عسرة ويكون التقدير في المثل إن
كان خير فجزاؤه خير أي إن حدث خير فجزاؤه خير والوجه الرابع وهو أضعفها
أن ترفع الأول على ما تقدم شرحه في الوجه الثالث وتنصب الثاني على ما تقدم ذكره في
الوجه الثاني ويكون التقدير إن كان في عمله خير فهو يجزى خيرًا وعلى حسب هذا
التفسير والتقديرات المحذوفات فيه يجري إعراب البيت الذي عنى به

وما ينتظم في هذا السلك قولهم المرء مقتول بما قتل به إن سيفًا فسيف وإن خنجر فخنجر

وأما الكلمة التي هي حرف مجهول او اسم لما فيه حرف حلوق فهي نعم إن أردت بها التصديق أو الإيجاب او العدة عند السؤال فهي حرف وإن عنيت بها الإبل فهي اسم والنعم يذكر ويؤنث وتنطلق على الإبل وعلى كل ما شبهه فيه إبل وفي الإبل الحرف وهي الناقة الضامر شبهت حرفًا تشبيهًا لها بحرف السيف وقيل انها الصحيحة تشبيهًا لها بحرف الجبل وأما الإسم المتردد بين فرد جازم وجمع ملازم فهو سراويل قال بعضهم هو واحد وجمعه سراويلات فعلى هذا القول هو فرد وكنى عن جمة الحضر بأنه جازم وقال آخرون بل هو جمع وواحده سروال مثل شملال وشماليل فهو على هذا القول جمع ومعنى قوله ملازم أي لا ينصرف وإنما لم ينصرف هذا النوع من الجمع وهو كل جمع بالثه الف بعدها حرف مشدد او حرفان او ثلثه لثقله وتفرده دون غيره من الجموع بأن لا نظير له في الأسماء الآحاد وأما الها التي إذا الحقت أماطت الثقل وأطلقت المعتقل فهي الها اللاحقة بالجمع المقدم ذكره مثل صيارفة وصياقلة فينصرف هذا الجمع عند لحاق الها به لانها قد أصارته إلى مثال الآحاد نحو رفاهية وكراهية فخف بهذا السبب وصرف لهذه العلة وقد كنى في هذه الأحجية عما لا ينصرف بالمعتقل كما كنى في التي قبلها عما لا ينصرف بالملازم وأما السين التي تعزل العامل من غير أن تجامله فهي إذا دخلت على الفعل المستقبل وفصلت بينه وبين أن التي كانت قبل دخولها من أدوات النصب فيرتفع حينئذ الفعل وتنتقل عن أن تكون أن عن كونها الناصبة للفعل إلى أن تصير المخففة من الثقيلة وذلك كقوله تعالى علم أن سيكون منكم مرضى وتقديره علم أنه سيكون منكم وأما المنصوب على الظرف الذي لا يخفضه سوى حرف فهو عند ولا يجر بغير من خاصة وقول العامة ذهبت الى عنده لحن وأما المضاف الذي أخل من عرى الإضافة ليعرف واختلف حكمه بين مسآء وغدوه فهو لدن ولدن من الاسما اللازمة للاضافة

التسمية اولى من صوت الشبه وحلو هو ...

وكما يأتي بعدها مجرور بها الا غدوة فان العرب نصبتها بلدن لكثرة استعمالهم إياها في الكلام ثم نونتها لتبيين بذلك أنها منصوبة لا أنها من نوع المجرورات التي لا تنصرف وعند بعض النحويين أن لدن بمعنى عند والصحيح أن بينهما فرقًا لطيفًا وهو أن عند يشتمل معناها على ما هو في ملكتك ومكنتك مما دنا منك وبعد عنك ولدن يختص معناها بما حضرك وقرب منك وأما العامل الذي يتصل آخره بأوله ويعمل معكوسه مثل عمله فهو يا ومعكوسها أي وكلتاهما من حروف النداء وعملهما في الاسم المنادى سيان وإن كانت يا أجول في الكلام وأكثر استعمالًا وقد اختار بعضهم أن ينادى بأي القريب فقط كالهمزة وأما العامل الذي نائبه أرحب منه وكرًا وأعظم مكرًا وأكثر لله تعالى ذكرًا فهو با القسم وهذه البا هي أصل حروف القسم بدلالة استعمالها مع ظهور فعل القسم في قولك اقسم بالله ولدخولها أيضًا على المضمر كقولك بك لأفعلن ثم أبدلت الواو منها في القسم لأنهما جميعًا من حروف الشفة ثم لمناسبة معنييهما لان الواو تفيد الجمع والبا تفيد الالصاق والمعنيان متقاربان ثم صارت الواو المبدلة من البا أدور في الكلام وأعلق بالإقسام ولهذا ألغز بأنها أكثر لله تعالى ذكرًا ثم إن الواو أكثر من البا موطنًا لان البا لا تدخل الا على الاسم ولا تعمل غير الجر والواو تدخل على الاسم والفعل والحرف وتجر تارة بالقسم وتارة باضمار رب وتنتظم أيضًا مع نواصب الفعل وأدوات العطف فلهذا وصفها برحب الوكر وعظم المكر وأما الموطن الذي فيه يلبس الذكران براقع النسوان وتبرز ربات الحجال بعمائم الرجال فهو أول مراتب العدد المضاف وذلك ما بين الثلاث الى العشرة فانه يكون مع المذكر بالها ومع المؤنث بحذفها كقوله تعالى سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا والها في غير هذا الموطن من خصائص المؤنث كقولك قائم وقائمة وعالم وعالمة فقد رأيت كيف انعكس في هذا الموضع حكم المذكر والمؤنث في غيره فافهمه وتزين به صاحبه وأما الموضع الذي يجب فيه حفظ المراتب على المعروف والضارب فهو حيث تشتبه الفاعل بالمفعول لتعذر ظهور علامة الإعراب فيهما أو في أحدهما وذلك إذا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى او من اسما الإشارة نحو ذلك وهذا فيجب لازالة اللبس أن يقر كل واحد منهما في رتبته ليعرف الفاعل منهما بتقدمه والمفعول

حتى اثنا عشر

بناحر وأما الإصر الذي لا نفهمه إلا باستضافة كلمتين أو الاقتصار منه على حرف منهما ومنها قولان أحدهما أنها مركبة من مه التي بمعنى الكف ومن ما والقول الثاني وهو الصحيح أن الأصل فيها ما فزيدت عليها أخرى كما تزاد ما على إن فصار لفظها ما ما فثقل عليهم تولي كلمتين بلفظ واحد فأبدلوا من ألف الأولى هاء فصارت مهما ومهما من أدوات الشرط والجزاء ومتى لفظت بها لم يتم الكلام ولا يعقل المعنى إلا بإيراد كلمتين بعدها كقولك مهما تفعل أفعل وتكون حينئذ ملتزمًا للفعل وإن اقتصرت منها على حرف التي بمعنى الكف فهم المعنى وكنت ملتزمًا خاطبته أن يكف وأما الوصف الذي إذا ردف بالنون نقص صاحبه في العيون وقوم بالدون وخرج من الزبون وتعرض للهون فهو ضيف إذا ألحقته النون استحال إلى ضيفن وهو الذي يتبع الضيف وينزل في النقل منزلة الزيف

المقامة الخامسة والعشرون الكرجية

حكى الحارث بن همام قال شتوت بالكرج لدين أقتضيه وأرب أقضيه فبلوت من شتائها الكالح وصرها الناتح ما عرفني جهد البلاء وعكفني على الاصطلاء فلم أكن أزايل وجاري ومستوقد ناري إلا لضرورة أدفع إليها أو إقامة جماعة أحافظ عليها فاضطررت في يوم جون منه إلى أن برزت من كناني لمهم عناني فإذا شيخ عاري الجلدة بادي الجردة وقد اعتم بريطة واستثفر بفوطة وحوله جمع كثيف الحواشي وهو ينشد ولا يحاشي

يا قوم لا ينبيكم عن فقري … أصدق من عريي أوان القر
فاعتبروا بما بدا من ضري … باطن حالي وخفي أمري
وحاذروا انقلاب دهر مغري … فإنني كنت نبيه القدر
آوي إلى وفر وحد يفري … نفيد صفري ونبيد سمري
وتشتكي كومي غداة أقري … فجرد الدهر سيوف الغدر

وشن غارات الرزايا الغبر … ولم يزل يسحتني ويبري
حتى عفت داري وغاض دري … وبار شعري في الورى وشعري
وصرت نضو فاقة وعسر … عاري المطا مجردًا من قشري
كأنني المغزل في التعري … لا دفء لي في القر والصنبر
غير التحسي واصطلاء الجمر … فهل حر ذو ردًى وغمر
يسترني بطرف أو طمر … طلاب وجه الله لا الشكر

ثم قال يا أرباب الثرى الرافل في الفرى من أوتي خيرًا فلينفق ومن استطاع أن يرفق فليرفق فإن الدنيا غرور والدهر عثور والمكنة زورة طيف والفرصة مزنة صيف وإني والله لطالما تلقيت الشتاء بكافاته وأعددت الأهب له قبل موافاته وها أنا اليوم يا سادتي ساعدي وسادي وجلدتي بردتي وحفنتي جفنتي فليعتبر العاقل بحالي وليبادر صرف الليالي فإن السعيد من اتعظ بسواه واستعد لمسراه فقيل له قد جلوت علينا أدبك فاجل لنا نسبك فقال تبًّا لمفتخر بعظم نخر إنما الفخر بالتقوى والأدب المستفاد ثم أنشد

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يومه … على ما تجلى يومه لا ابن أمسه
وما الفخر بالعظم الرميم وإنما … فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

ثم إنه جلس محقوقفًا واجرنثم متقفقفًا وقال اللهم يا من غمر بنواله وأمر بسؤاله صل على محمد وآله وأعني على البرد وأهواله وأتح لي حرًّا يؤثر من خصاصة ويواسي ولو بقراضة قال الراوي فلما جلى عن النفس العصامية والملح الأصمعية حملت عيني تجمه ومرامي لحظي ترجمه حتى استبنت أنه أبو زيد وأن تعريه أحبولة الصيد ولمح هو أن عرفاني قد أدركه ولم يأمن أن يهتكه فقال أقسم بالسمر والقمر والزهر والزهر إنه لن يسترني إلا من طاب خيمه وأشرب ماء المروءة أديمه فعقلت ما عناه وإن لم يفطن القوم معناه وساءني ما يعانيه من الرعدة واقشعرار الجلدة فعمدت لفروة هي بالنهار رياشي وفي الليل فراشي فنضوتها عني وقلت له اقبلها مني فما كذب أن افتراها وعيني تراها ثم أنشد

شتوت: كلح كلوحًا وكلاحًا إذا بدت أسنانه لفرط عبوسه … كما هو كالح

الوجار جحر الضبع

يوم جون بارد

الجردة العري … أيضًا أرض مستوية لا نبت فيها

الريطة الملاءة

الثلم والثلمة … الصلع

الوفر المال الكثير

لله من ألبسني فروة / أصبحت من الرعدة لي جُنّة
ألبسنيها واقياً مهجتي / وقيَ شرّ الإنس والجِنّة
سيكتسي اليوم ثنائي وفي / غدٍ يكتسي سندس الجَنّة

قال فلما افتتن علوق الجماعة بافتنانه في الرائعة ألقوا عليه من الفرا المفشّاة والجباب الموشّاة ما آده ثقله ولم يكد يُقِلّه فانطلق مستبشراً بالفرح مستنشقاً للكرج وتبعته إلى حيث ارتفعت التقية وبدت السمائية فقلت له لشدّ ما قرّسك البرد فلا تعرّ من بعد فقال ويك ليس من العدل سرعة العذل فلا تعجل بلوم هو ظلم ولا تقف ما ليس لك به علم فوالذي نوّر الشيبة وطيّب تربة طيبة لو لم أتعرّ لرجعت بالخيبة وصِفر العيبة ثم نزع إلى الفرار وتبرقع بالاكفهرار وقال أما تعلم أن شيبتي عقّتني الاستقلال من صيد إلى صيد والانعطاف من عمرو إلى زيد وأراك قد عقّقتني وأفتّني أضعاف ما أفدتني فأعفني عافاك الله من لغوك واسدد دوني باب جدّك ولهوك فحجزته حجز الثعالبة وجمجمت به للدعابة وقلت والله لولا أوازل وأعفني عن عوازل لما وصلت إلى حضله ولا انفلت الشيء من نصله فجازني عن إحساني إليك وتشتري لك وعليك بأن تشرح لي برد الفرو أو تعرّفني كافات الشتو فنظر إليّ نظر المتعجب وازهرّ ازهرار المتعصّب قال أما برد الفرو فانتفع من البرد الداثر والميت الغابر وأما كافات الشتو فسبحان من طبع على ذهنك وأوهى وعاء حفظك حتى أنسيت ما أنشدتك لابن سكّرة

جاء الشتاء وعندي من حوائجه / سبعٌ إذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كِنٌّ وكيسٌ وكانونٌ وكأسُ طلا / بعد الكباب وكسٌّ ناعمٌ وكسا

ثم قال لحوانيك تشفي خير من جلباب يدفي فاكتف بها وعيت والكف ففارقته وقد ذهبت فروتي لشقوتي وحصلت على الرعدة طوال شتوتي

المقامة السادسة والعشرون

وتعرف بالرقطاء حكى الحارث بن همام

٤١

قال حللت سوق الأهواز لإنشاد ضالّة الإعواز فلبثت فيها مدّة أكابد شظفاً وأزجي أياماً مسودّة إلى أن رأيت نادي المقام من عوادي الانتقام فرفقتها بعير القالي وفارقتها مفارقة الطلل البالي وطعنت عن وشلها [illegible] راكضاً إلى المياه الغزار حتى إذا شارفت منهم مرحلتين ولغدت شوى ليلتين تراءت لي خيمة مضروبة ونار مشبوبة فقلت آتيهما لعلّي أنقع صدى أو أجد على النار هدى فلما انتهيت إلى ظلّ الخيمة رأيت غلمة زرقة وشارة مرموقة وشيخاً عليه بزّة شيّبة ولديه فاكهة جنيّة فحيّيته ثم تحاميته فضحك إليّ واحتشن الردّ عليّ وقال ألا تجلس إلى من ترزق فاكهته وتشوق معاكهته فجلست لاغتنام محاضرته لا لالتهام ما حضرته فحين سفر عن آدابه وكشر عن أنيابه عرفت أنه أبو زيد خشن نحله وقبح فلجه فتعارفنا حينئذ وحفّت بي فرحتان ساعتئذ ولم أدر بأيّهما أنا أصفى فرحاً وأوفى مرحاً بإسفاره من دجنة أسفاره أم بخصب رحاله بعد إمحاله وتاقت نفسي إلى أن أفضّ ختم سرّه وأبطن داعية يسره فقلت له من أين إيابك وإلى أين انسيابك وبمَ امتلأ عيابك فقال أما المقدم فمن طوس وأما المقصد فإلى السوس وأما الجدة التي أضنتها فمن رسالة اقتضبتها فسألته أن يفرشني دخلته ويسرد عليّ رسالته فقال دون ما رمت حرف السوس أو تصحبني إلى السوس فصاحبته إليها قهراً وعكفت بها عليه شهراً وهو يعلّلني بكاسات التعليل ويحرزني باعثة التأميل حتى إذا حرج صدري وعيل صبري قلت له إنه لم يبق لك علّة ولا لي تعلّة وفي غد أزمع إياب البين وأرحل عنك بخفّي حنين فقال حاش لله أن أخلفك أو أخالفك وما أرجأت أن أحدّثك إلا لأثبتك وإذا كنت قد استربت بعدتي وأعراك ظنّ السوء لمباعدتي فاصخ لقصص سرّتي الممتدّة وأضفها إلى أخبار الفرج بعد الشدّة فقلت هات فما أطول طيلك وأهول حيلك

فقال اعلموا ان الدهر العبوس القاني الى طوس وأنا يومئذ فقير وقير لا قبيل لي
ولا نقير فالجأني صفر اليدين إلى التطوق بالدّين فادّنت لسنوّ الاتفاق
ممن هو عين الأخلاق وتوهمت تشتّت النفاق وتوسّعت في الإنفاق
فما أفقت حتى هاضني دين لزمني حقه ولازمني مستحقه فحرت في أمري واطلعت
غريمي على عسري فلم يصدّق إملاقي ولا نزع عن إرهاقي بل جدّ في التقاضي وجدّ في
ارتيادي إلى القاضي وكلما حصحصت له بالكلام واستنزلت منه رفق الكرام وعرّضته
أن ينظرني بياسره أو ينظرني إلى ميسره قال لا تطمع في الإنظار واستنجاز الأنظار
فوحقّ ما ترى مسالك الخلاص أو تريني سبائك الخلاص فلما رأيت احتباله لديه
وأن لا مناص لي من يده شاغبته ثم واثبته لنرافع إلى الوالي الحرام لا إلى الحاكم في المظالم
لما كان بلغني من إفضال الوالي وفضله وتشدّد القاضي وبخله فلما حضرنا باب
امير طوس آنست أن لا بأس ولا بؤس فاستدعيت دواة وبيضاء وانشأت
اليه رسالة رقطاء وهي

أخلاق سيدنا تحب وبعقوته يلب وقربه تحف ونائله تلف
وخلته نسب وقطيعته نصب وغربه ذلق وشهبه تألق وظلفه
زان وقويم نهجه بان وذهنه قلب وجرّب ونعته شرّق وغرّب
سيد قلّب سبوق مبرّ فطن مغرب عزوف عيوف
مخلف متلف أغرّ فريد نابه فاضل ذكيّ أنوف
مفلق إن أبان طب إذا ناب هاج وجل خطب مخوف
مناط شرف تالف وشؤبوب جابه يكف ونائل يديه فاض وسح قلبه غاض
وخلف سجاياه يختلب وذهب عبابه يجترب مرتفق لقفه فلج وغلب وناجز بابه
حلب وخلب كف عن هضم بزي وبري من دنس غوي وقرن ليانه بغير ولكن عن مذهب
كريم لبيس ثياب عند تهري شرّ بل يعف عفة برّ فلذا يحب

فلذا يحب ويحتوي عفافه شغفا به فلبابه خلاب
أخلاقه غرّ ترف وفوقه فوق إذا ناضلته غلاب
تسحّ بهش وذو تلاف لنهفا حل فلبس بحقه يرتاب
لا باخل إن نازل خرق إذا يبغته بتر لا البليه باب
إن عظ ازل فل غرب عطاطه بنابه فابحث منه ناب

وحب [illegible] وفطن وقرب وشطن أن أذعن لقرنع زمن وجائر زمن
من رضع ثدي لبانه خصّ بإقامة تهتانه نعش وفرح وضاق بابه وناقر بابح
وفاحق أنلي أقعب مسلي وفرط إذ دهر وبلي ونوح صفاته يحب عفاته

فلا خلا ذا بهجة ممتد ظل خصبه
فإنه برّ آنس ضوء شهبه
زان مزايا ظرفه بلبس خوف ربه

فليهن سيد فاق بمفاخر تألق وجلت وفقته بصنائع نمت ونمت ولا ثم قرب
حضرته غوث زقه بخطار حظوته فإنه نليل ندب وشر نل جذب وجرح نواب
أثرت وناظم قلائد نشرت إذا جاش لخطبة فلا بوحد قايل ثم قش ثم باقل فإن
جبر فلت جبر نمت وخلت ريا ضا قل نمت هدا ثم شرته بربض
وقوته قرض وقلقه غسق وجلبابه خلق وقل قلق لساقل غريم غاشم
يستحثه بحق لازم فإن من يتبد نائلة ببهتان كفه نوتيح لمجد
فاق وبا أعن فكي من وثاق لا خلت سجايا خلقه ترفد شائم برقه
بمن رب أزلي عن أبدي قال فلما استشف الأمر الأبه ولمح
السر المودع فيها أوعز في الحال بقضاء ديني وفصل ما بين خصمي وبيني ثم استخلصني لمحاورته
واختصني بأثرته فلبثت بضع سنين أنعم في نعم ضيافته وأرتع في ريف رأفته حتى إذا
عمرني مواهبه وأطال ذيلي ذهبه تلطفت في الإرتحال على ما ترى من حسن الحال

قال فقلت له فشكرا لمن أتاح لك لقيان الشيخ الكريم والفك بك من ضغطة الغريم فقال
الحمد لله على سعادة الجد والخلوص من الخصم الألد ثم قال أيما أحب إليك أن أجذ كم العطا
أم أتحفك بالرسالة الرقطا قلت إملاء الرسالة أحب إلي فقال هو وحقك أخف علي
فإن تحلة ما يجلى في الأذان أهون من تحلة ما يخرج من الأردان ثم كأنه أنف واستحيا
فجمع لحيي الرسالة والحيا ففرقت منه بسهمين وفصلت عنه بغنمين وأبت إلى وطني
قرير العين بما حزت من الرسالة والعين

المقامة السابعة والعشرون البروية

حكى الحارث بن همام قال جنحت في ريق زماني الذي غبر إلى
مجاورة أهل الوبر لآخذ أخذ نفوسهم الأبية وألسنتهم العربية فشمرت تشمير من لا
يألو جهدا وجعلت أضرب في الأرض غورا ونجدا إلى أن اقتنيت هجمة من الراعيه وثلة
من الثاغيه ثم أويت إلى عرب ذوي أقيال وأنا أقوال فأوطنوني أمنع جناب
وولوني على حد كل ناب فما أوبي عندهم هم ولا قرع صفاتي سهم إلى أن أضللت في
ليلة منيرة البدر لقحة غريرة الدر فلم أطب نفسا بإلغاء طلبها وإلغاء حلبها على غارب
فندرت فرسا محضارا واعتقلت لدنا خطارا وسريت ليلتي جمعاء أجوب
البيدا وأقري كل شجر ومدر إلى أن نشر الصبح راياته وحيعل الداعي إلى صلاته
فنزلت عن متن الركوبه لأداء المكتوبه ثم جلت في صهوتها وفررت عن شحوتها وأنا
لا أدري أثرا إلا قفوته ولا نشزا إلا علوته ولا واديا إلا جزعته ولا راكبا
إلا استطلعته وجدي مع ذلك يذهب هدرا ولا يجد ورده صدرا إلى أن جاءت
صكة عمي ولفح هجير يذهل غيلان عن مي وكان يوما أطول من ظل القناة
وأحر من دمع المقلات فأيقنت أني إن لم أستكن من الوقده وأستجم بالرقده أدنفني
اللغوب وعلقت بي شعوب فعجت إلى سرحة كثيرة الأغصان وريقة الأفنان
لأغور تحتها إلى الغيبان فوالله ما استروح نفسي والأشراح فرسي حتى أشرفت (؟)
نظرت إلى سانح في هيئة سائح وهو ينتجع نجعتي ويشتد إلى بقعتي فكرهت

العياجه

العياجه إلى معاني واستعذت بالله من تكل مفاجي ثم رجيت أن يتصدى منشدا أو
يبتدي مرشدا فلما اقترب من سرحتي وكاد يلم بساحتي ألفيته شيخنا السروجي متشحا
بجرابه ومتأبطا أهبة تجوابه فأنساني إذ ورد وآساني ما شرد ثم
استوضحته من أين أتى وكيف عرم وعتا فأنشد بديها ولم يقل إيها

قل للمستطلع دخلة أمري ... لك عندي كرامة وعزازه
أنا ما بين جوب أرض وأرض ... وسرى في مفازة ومفازه
زادي الصيد والمطية نعلي ... وجهازي الجراب والعكازه
فإذا ما هبطت مصرا فبيتي ... غرفة الخان والنديم جرازه
ليس لي ما أسى إن فات ... أو أحزن إن حاول الزمان ابتزازه
غير أني أبيت خلو ابن الهم ... ونفسي عن الهوى منحازه
أرقد الليل ملء أجفاني ... وقلبي بارد من حرارة وحزازه
لا أبالي من أي كأس تفوقت ... ولا ما حلاوة من مزازه
لا ولا أنحيز أن أجعل العار مجازا ... إلى تسني إجازه
وإذا اضطلت كأساجلة العار ... فبعدا لمن يروم نجازه
ومتى اهتز للدناءة نكس ... عاف طبعي طباعه واهتزازه
فالمنايا ولا الدنايا وخير ... من ركوب الخنا ركوب الجنازه

ثم رفع إلي طرفه وقال لأمر ما جدع قصير أنفه فأحرز حرز ما في الراح
وما عاينته في يومي والبارحه فقال دع الالتفات إلى ما فات
والطماح إلى ما طاح ولا تأس على ما ذهب ولو أنه واد من ذهب
ولا تستمل من مال عن ريحك وأضرم نار تباريحك ولو كان ابن يوحك
أو شقيق روحك ثم قال هل لك في أن نقيل ونتجافى القال والقيل
فإن الأبدان أنضاء تعب والهاجرة ذات لهب ولم يصقل الخاطر

ويبسط العاذر كقائل الهواجر وخصوصاً في شهري ناجر فقلت ذاك إليك وما أريد
أن أشق عليك فافترش الترب واضطجع وأظهر أن قد هجع وارتفقت على
أن أحرس ولا أنعس فأخذني النَّهْي لما رنّقت الأعين فلم أفق إلا والليل
قد تولّى والنجم قد تدلّى ولا الشوهى ولا المُسرج فبتّ بليلة نابغية
وأحزان يعقوبية أساور الوجوم وأساهر النجوم أفكّر تارة في رجلتي
وأخرى في رجعتي إلى أن وضح لي في فرار ثغر الصبح في وجه الجو راكب يخبّ
في الدوّ فألمعت إليه بثوبي ورجوت أن يعرّج إلى صوبي فلم يعبأ بالملاعي
ولا أوى للالتياع بل سار على هينته وأصماني بسهم إهانته فأوفضت
إليه لأستردفه وأحتمل تغطرفه فلما أدركته بعد الأين وأجلت فيه مسرح
العين وجدت ناقتي مطيته وضالتي لقطته فما كذبت أن
أدرته عن سنامها وجاذبته طرف زمامها وقلت أنا صاحبها وحليتها ولي
نتجها ونسلها فلا تكن كأشعب فتتعب وتتعب فطفق يلدغ
ويقصي ويتنحنح ولا يتنحى وبينا هو يزمجر ويلبي ويتشامس ويتلكأ
غشينا أبو زيد لابساً جلد النمر وهاجماً هجوم السيل المنهمر فتخوفت
والله أن يكون يومه كأمسه ويدّه مثل نفسه فألحق بالقارظين
وأصير خبراً بعد عين فلم أرَ إلا أن أذكرته العهود المنسية والفعلة
الأمسية وناشدته الله أوافى اليوم للتلافي أم لما فيه تلافي
فقال معاذ الله أن أجهز على جريحي أو أصل جرحي بتبريحي بل
أتيتك لأجبر كسر حالك وأكون يمنى لشمالك فسكن عند ذلك جأشي
وانجاب استيحاشي فأطلعته طلع اللقحة ونزوع صاحبي بالقحة فطرّ إليه طرور
العرّيس إلى الفريسة ثم انتزع عقلة الرحل وأقسم بمن أنار الصبح لئن لم ينجُ
منجا الذباب ويرض من الغنيمة بالإياب ليوردن سنانه وريده

ويلحقن به وليده وودَيه فنبذ زمام الناقة وحاص وأفلت وله حُصاص فقال لي أبو زيد تسلّمها
وتسنّمها فإنها إحدى الحسنيين وويل أهون من ويلين قال الحارث بن همام فحرت بين
لوم أبي زيد وشكره ورنة نفعه وضره فكأنه توسّم ما بدا من صدري أو تكهّن ما حام في سرّي
فقابلني بوجه طليق والسند بلسان ذليق

يا أخي الحامل ضيمي دون إخواني وقومي
إن يكن ساءك أمسي فلقد سرّك يومي
فاغتفر ذا لهذا واطّرح شكري ولومي

ثم قال أنا مشئم وأنت معرق فكيف نتفق وولّى يفري أديم الأرض ويركض طرفه
أيما ركض فما عدوت أنا فتعلوت مطيتي وعدت لطيتي حتى وصلت إلى حلّتي بعد
اللتيا والتي

تفسير ما أودع هذه المقامة من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية

قوله رنّق زماني يعني أوّله وآيته وقد يشدد فيقال رنّق وقوله أخذ أخذ
نفوسهم يعني فتك بهم يقال منه أخذ إخذه وأخذ بكسر الهمزة وفتحها والعجمى الناسبة
من الإبل والثلة القطيع من الغنم والراغية الإبل والثاغية الشاة ومنه قولهم ما له راغية
ولا ثاغية أي لا ناقة ولا شاة وقوله ازداف اقبال أي يخلفون الملوك إذا غابوا
وقوله أبنا أقوال أي فعلى يقال للمنطيق إنه ابن أقوال وقوله فندرت فرسا
مخصانا الندر الوثوب على ظهر الفرس والمخصان والمخصير السريع العدو ماخوذ
من الحضر وقوله أقرى كل شجراً ومرداً الأقرا التتبع الأرض والشجر ذات
الشجر والمرداء الخالية من النبات ومنه اشتقاق الأمرد لخلو وجهه من الشعر وقوله
حيعل الداعي إلى صلاته يعني به قول المؤذن حي على الصلاة حي على الفلاح والمصدر منه
الحيعلة ومثله من المصادر الهيللة والحمدلة والحولقة والبسملة والحسبلة والسبحلة والجعلفة
فالهيللة قول لا إله إلا الله والحمدلة حكاية قول الحمد لله والحولقة حكاية

قوله لا حول ولا قوة الا بالله والبسملة حكاية قول بسم الله والحسبلة حكاية قول حسبنا الله والتسبيحة حكاية قول سبحان الله وقوله فنزلت عن متن ازكوبه يعني المركوبة يقال ناقة زكوب وزكوبة وجلوب وجلوبة وقد قرئ فمنها ركوبهم والقهوة معتقد الفارس والشجو الخطو والجزع قطع الوادي عرضا وقوله منكة عمي يعني به قائم الظهيرة وصلهم مكة شديدة فصارت مثلا لكل من جاء ذلك الوقت وقيل المراد به الظبي لانه ينتزي في الهواجر فيصطك ما يستقبله كما يصطك الاعمى ثم صغر الاعمى تصغير الترخيم فقيل عمي كما صغروا اسود وازهر فقالوا سويد وزهير وقوله وكان يوما اطول من ظل القناة يوصف اليوم الطويل بظل القناة كما يوصف اليوم القصير بابهام القطاة والعرب تزعم ان ظل الرمح اطول ظل ومنه قول الشاعر ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الزق عنا واصطفاق المزاهر وقوله اعز من دمع المقلاة المقلات هي التي لا يعيش لها ولد فدمعها ابدا جار ولهذا قيل بحرها لانه يقال ان دمعة الحزن حارة ودمعة السرور باردة ولهذا قيل للمدعو له اقر الله عينه ماخوذ من القر وهو البرد وقيل للمدعو عليه اسخن الله عينه ماخوذ من السخنة وهي الحرارة وقيل ان اقرار العين ماخوذ من القرار فكانه دعا له ان يرزق ما تقر به عينه حتى لا تطمح الى ما لغيره وكانت الجاهلية تزعم ان المقلات اذا وطئت قتيلا شريفا عاش ولدها والى هذا اشار بشر بن ابي خازم في قوله

تظل مقاليت النساء يطانه يقلن الا يلقى على المرء مئزر

وقوله علقت بي شعوب يعني المنية ولا يدخل هذا الاسم اداة التعريف مثل دجلة وعرفة وقوله اغور تحتها الى المغيربان التغوير النزول للقائلة كما ان التعريس النزول في الليل للتهويم او الاستراحة والمغيربان تصغير المغرب وكان قياس تصغير المغرب الا ان العرب الحقت آخره الفا ونونا على طريق الشذوذ وقوله فضطغنا اهبة تحا به الاضطغان ان تحمل الشيء تحت حضنه والاصطبان ان تجعله تحت ضبنه والضبن ما بين الابط والكشح واول مراتب الحمل الابط ثم الضبن وهو اسفل الابط ثم الحضن

الحضن وهو عند الجنب والتجواب مصدر جاب وجميع المصادر التي جاءت على تفعال بفتح التاء الا قولهم تبيان وتلقاء وقال بعضهم تنضال ايضا وقوله عجري وبجري يريد به جميع امري الظاهر والباطن واصل العجر العقد الناتئة في العصب والبجر العقد الناتئة في البطن وقوله لم تقل ايها اي لم يأثر في ما كلف يقال للمستزاد ايه وللمستكف ايها وقوله لامر ما جدع قصير انفه قصير هو مولى جذيمة الابرش وكان جدع انفه بيده حين قتلت الزباء مولاه ثم اتاها واوهمها ان عمرو بن عدي ابن اخت جذيمة هو الذي جدع انفه لهما له بانه غش خاله جذيمة اذ اشار عليه بقصدها فحظي بهذا الفعل عندها حتى جهزته مرارا الى العراق فكان يأتيها بالطرف منه الى ان استصحب في آخر نوبة الرجال في الصناديق ووصل الى قتلها والاخذ بثار مولاه منها وقصته مشهورة وقوله ولو كان ابن بوح يعني ولد الثعلب اشارة الى انه ولد في باحة الدار وهي عرصتها وجمعها بوح وقيل ان البوح من اسماء الذكر وقوله في شهري ناجر هما شهرا الحر وقيل انهما حزيران وتموز وانكر ابو بكر بن دريد هذا القول وقال هما طلوع نجمين وقوله بت بليلة نابغية اومأ به الى قول النابغة

فبت كاني ساورتني ضئيلة من الرقش في انيابها السم ناقع

وقوله المعت ابه بثوبي يعني اشرت يقال منه المع ولمع بمعنى وقوله تلدغ وتصئي هذا مثل يضرب لمن يظلم ويشكو يقال صات العقرب تصئي صئيا وصئيا بفتح الصاد وكسرها اذا صوتت وكذلك الفرخ وما احسن قول ابن الرومي في هذا المعنى

تشكى المحب وتشكو وهي ظالمة كالقوس تصمي الرمايا وهي مرنان

وقوله يرغو ويلبن هذا المثل يضرب لمن يتعزز ثم يذل ويقال ان اصله الجدي يرغو وهو صغير فاذا كبر لان وقوله لا يشاحذ التمر هذا المثل يضرب للمتنحي الجاهل لان

التمر أجزأ أشبع وأقلّه احتمالا للصبر ومن هذا اشتقاق قولهم تمتّر أي صار مثل التمر وقوله فأحق بالقارظين الاصل في القارظ الذي يجني القرظ وهو النبات المدبوغ به والقارظان المشار إليهما أحدهما من عنزة والآخر من النمر بن قاسط وكانا خرجا يجنيان القرظ فلم يرجعا ولا عرف لهما خبر فضرب بهما المثل لكل غائب لا يرجى إيابه وإليهما أشار أبو ذؤيب في قوله

وحتى يؤوب القارظان كلاهما ... وينشر في القتلى كليب لوائل

وقوله حروري يشمّ من الحرور الريح الحارة ليلا والسموم الريح الحارة نهارا وقد يقام أحدهما مقام الآخر مجازا وقوله ليث العريسة يعني مأوى السبع يقال فيه عريس وعريسة بإثبات الهاء وحذفها كما يقال غاب وغابة وعرين وعرينة فأما الغيل والخيس فلم يلحقوا بهما الهاء وقوله أفلت وله حصاص هذا المثل يضرب لمن نجا من هلكة أشفى عليها بعد ما كاد يهوي فيها والحصاص العدو وقيل إنه الضراط وقوله وبل أهون من وبل هذا المثل يضرب تسلية لمن ناله بعض المكروه ومثله قول الشاعر و بعض الشر أهون من بعض

وقوله أنا تئق وأنت مئق فكيف نتفق هذا المثل يضرب للمتنافرين في الخلق فإن التئق هو الممتلي غيظا مأخوذ من قولهم أتأقت الإناء إذا ملأته والمئق هو الباكي فكأن التئق يسرع إلى الشر لغيظه والمئق يضيق ذرعا باحتماله ومثله قول الآخر أنا ألف وأنت صلف فكيف نأتلف وقوله لطيّتي يعني لقصدي ووجهتي وقد يقال فيها طية بالتخفيف وقوله بعد اللتيا والتي اللتيا هو تصغير التي وهو على غير قياس التصغير المطرد لأن القياس أن يضم أول الاسم إذا صغّر وقد أقرّ هذا الاسم على فتحته الأصلية عند تصغيره إلا أن العرب عوضته عن ضم أوله بأن زادت الفا في آخره وأقرّت أسماء الإشارة عند تصغيرها على حكمه فقالت في تصغير الذي والتي اللذيا واللتيا وفي تصغير ذا وذاك

ديا

46

ديا وذياك وقد اختلف في معنى قولهم بعد اللتيا والتي فقيل هما من أسماء الداهية وقيل المراد بهما بعد صغير المكروه وكبيره

المقامة الثامنة والعشرون

أخبر الحارث بن همام قال اشتصعت في بعض أسفاري الفلاة وقصدت بها سمرقند وكنت يومئذ قوم الشطاط جموم النشاط أرمي عن قوس المراح إلى غرض الأفراح وأستعير عن الشباب على ملاح التراب فوافيتها بكرة عروبة بعد أن كابدت الصعوبة فسعيت وما ونيت إلى أن حصل البيت فلما انقلبت إليه قدمي وملكت قول عندي عجت إلى الحمام على الأثر وأمطت عني وعثاء السفر وأخذت في غسل الجمعة بالأثر ثم بادرت في هيئة الخاشع إلى مسجدها الجامع لأحوز من يقرب من الإمام ويقرب أفضل الأنعام فحظيت بأن جلست في الحلبة وتخيرت المركز لاستماع الخطبة ولم يزل الناس يدخلون في دين الله أفواجا ويردون فرادى وأزواجا حتى إذا اكتظ الجامع بحفله واطل يساوي الشخص وظله برز الخطيب في أهبته متهاديا خلف عصبته فارتقى في منبر الدعوة إلى أن مثل بالذروة فسلم مشيرا باليمين وقعد حتى ختم نظم التأذين ثم قام وقال الحمد لله الممدوح الأسماء المحمود الآلاء الواسع العطاء المدعو لحسم اللأواء مالك الأمم ومصور الرمم وأهل السماح والكرم ومهلك عاد وإرم أدرك كل سر علمه ووسع كل مصر حلمه وعم كل عالم طوله وهد كل مارد حوله أحمده حمد موحد مسلم وأدعوه دعاء مؤمل مسلم وهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد العادل الصمد لا ولد له ولا والد ولا ردء معه ولا مساعد أرسل محمدا للإسلام ممهدا وللملة موطدا ولأدلة الرسل موكدا وللأسود والأحمر مسددا وصل الأرحام وعلم الأحكام ووسم الحلال والحرام ورسم الإحلال والإحرام كرم الله محله وكمل الصلاة والسلام له ورحم آله الكرماء وأهله الرحماء ما همر ركام ومرح سوام وسطا حسام إعملوا رحمكم الله عمل الصلحاء واكدحوا لمعادكم كدح الأصحاء وارْدَعوا أهواءكم ردع الأعداء وأعدوا للرحلة إعداد السعداء وادرعوا حلل الورع

ردعا

وداووا علل الطمع وسدّوا أود العمل وعاصوا وساوس الأمل وصوّروا لأوهامكم
تحوّل الأحوال وحلول الأهوال ومساورة الأعلال ومصارمة المال والآل
وادّكروا الحمام وسكرة مصرعه والرمس وهول مطّلعه واللحد ووحدة مودعه
والملك وروعة سؤاله ومطّلعه والمحوا الدهر ولؤم كرّه وسوء مجاله ومكره كم
طمس معلماً وأمرّ مطعماً وطحطح عرمرما ودمّر ملكا مكرّما همّه سكّ المسامع وسحّ
المدامع وإكداء المطامع وإرداء المسمع والسامع عمّ حكمه الملوك والرعاع والمتبوع
والمطاع والمحسود والحسّاد والأساود والآساد ما حوّل الأحوال وعكس الآمال
ولا وصل لأوصال وكلم الأوصال ولا سرّ الأوانا ولؤم وأسا ولا أضحى الأولد
البأ وروّع الأوداء الله الله رعاكم الله إلام مداومة اللهو ومواصلة السهو
وطول الإصرار وحمل الأصار واطراح كلام الحكماء ومعاصاة إله السماء أما
الهرم حصادكم والمدر مهادكم أما الحمام مبدركم والصراط مسلككم أما
الساعة موعدكم والساهرة موردكم أما أهوال الطامّة لكم مرصده أما دار العصاة
الحطمة الموصدة حارسهم مالك وورّادهم حالك وطعامهم السموم وهواهم السموم
لا مال أسعدهم ولا ولد ولا عدد حماهم ولا عدد ألا رحم الله امرأ ملك هواه
وأمّ مسالك هداه وأحكم طاعة مولاه وكدح لروح مأواه وعمل ما دام
العمر مطاوعا والدهر موادعا والصحة كامله والسلامة حاصله وإلا
دهمه عدم المرام وحصر الكلام وإلمام الآلام وهجوم الحمام وهدوّ الحواس
ومراس الأرماس آها لها حسرة ألمها مؤكّد وأمدها سرمد ومسارّتها
مكمّد ما لوليجه حاسم ولا لندمه راحم ولا له مما عراه عاصم ألهمكم الله
أحمد الإلهام وردّاكم رداء الإكرام وأحلّكم دار السلام وأسأله الرحمة
لكم ولأهل ملة الإسلام وهو أسمح الكرام والمسلّم والسلام قال

الحرث

قال الحرث بن همام فلما رأيت الخطبة نخبة بلا سقط وعروسا بغير نقط دعاني الإعجاب
بنظمها العجيب إلى استجلاء وجه الخطيب فأخذت أتوسّمه جدا وأقلّب الطرف فيه مجدّا
إلى أن وضح لي بصدق العلامات أنه شيخنا ذو المقامات ولم يكن بدّ من الصمت في ذلك الوقت
فأمسكت حتى تحلّل من الفرض وحلّ الانتشار في الأرض ثم واجهته بتلقاه وابتدرت لقاه
فلما لحظني خفّ في القيام وأحفى في الإكرام ثم استصحبني إلى داره وأودعني خصائص أسراره
وحين انتشر جناح الظلام وحان ميقات المنام أحضر أباريق المدام مختومة بالفدام
فقلت أتحسوها أمام النوم وأنت إمام القوم فقال مه أنا بالنهار خطيب
وبالليل أطيب فقلت والله ما أدري أأعجب من تسلّيك عن أناسك ومسقط راسك
أم من خطابتك مع أدناسك ومدار كاسك فأشاح بوجهه عني ثم قال اسمع مني

لا تبك إلفا نأى ولا دارا — ودر مع الدهر كيف ما دارا
واتخذ الناس كلهم سكنا — ومثّل الأرض كلها دارا
واصبر على خلق من تعاشره — وداره فاللبيب من دارى
ولا تضع فرصة السرور فما — تدري أيوما تعيش أم دارا
واعلم بأن المنون دائرة — وقد أدارت على الورى دارا
وأقسمت لا زال عاتقة — ما كرّ عصر الحجا وما دارا
فكيف يرجو النجاة من شرك — لم ينج منه كسرى ولا دارا

قال فلما اعتورتنا الكؤوس وطربت النفوس جرّعني اليمين الغموس على أن أحفظ
عليه الناموس فاتّبعت مرامه ورعيت ذمامه ونزّلته بين الملا منزلة الفضيل وسدلت
الذيل على مخازي الليل ولم يزل ذلك دأبه ودأبي إلى أن تهيّأ إيابي فودّعته
وهو مصرّ على التدليس ومستتر حشو الخنادريس

المقامة التاسعة والعشرون

حكى الحرث بن همام قال ألجأني حكم دهر قاسط إلى أن أنتجع أرض

فانسابت الى واسط فقصدتها وانا لا اعرف بها سكنا ولا املك فيها مسكنا ولما حللتها
حلول الحوت بالبيدا والشعرة البيضا فى اللمة السودا قادنى الحظ
الناقص والجد الناكص الى خان ينزله شذاذ الآفاق واخلاط الرفاق
وهو لنظافة مكانه وظرافة سكانه يرغب الغريب فى استيطانه وينسيه هوى
هوى اوطانه فاستفردت منه بحجرة ولم انافس فى اجرة فما كان الا كلمح الطرف
او خطرة حرف حتى سمعت جارى بيت بيت يقول لنزيله فى البيت قم يا بنى
لا قعد جدك ولا قام ضدك واستصحب الوجه البدرى واللون الدرى والاله النقى
والجسم الشقى الذى قبض ونشر وبحر وشهر وسقى وفطم وادخل النار بعد
ما لطم ثم اركض الى السوق ركض المشوق فقايض به اللاقح الملقح المفسد المصلح
الملمع المفرح المعتق المروح ذا الزفير المحرق والجبين المشرق واللفظ المقنع
والنيل الممتع الذى اذا طرق رعد وبرق وباح بالحرق ونفث فى الحرق
قال فلما قرت شقشقته الهادر ولم يبق الا صدر الصادر
برز فتى يميس وما معه انيس فرايتها عضلة تلعب بالعقول وتغرى بالدخول
فى الفضول فانطلقت فى اثر الغلام لاخبر فحوى الكلام فلم يزل يسعى سعى العفاريت
وينتقل تنقل الحوافيت حتى انتهى عند الرواح الى حجارة القداح فناول
بايعها رغيفا وناوله حجرا لطيفا فعجبت من فطانة المرسل والمرسل وعلمت
انها سن وجنة وان لم اتال وما كذبت ان بادرت الى الخان منطلق العنان
لابلغ كنه فهمى وهل قرطس فى التكهن سهمى فاذا انا فى الفراسة فارس وابو زيد
بوصيد الخان جالس فتهادينا بشرى الالتقا وتقارضنا تحية الاصدقا ثم قال
ما الذى نابك حتى زايلت جنابك فقلت دهر هاض وجور فاض فقال والذى
انزل المطر من الغمام واخرج الثمر من الاكمام لقد فسد الزمان وعم العدوان

وعدم

وعدم المعوان والله المستعان فكيف اقبلت وعلى اى وصفيك اقبلت فقلت
اتخذت الليل قميصا وادلجت فيه خميصا فاطرق ينكت فى الارض ويفكر فى ارتياد القرض
والفرض ثم اهتز هزة المرتاح اذا بدت له فرص وقال قد علق بقلبى ان
تصاهر من يسوى حال رحلك ويريش جناحك فقلت وكيف اجمع بين غل وقل ومن الذى يرغب
فى ضل بن ضل فقال وانا المشير بك والوكيل لك وعليك مع ان دين القوم جبر الكسير
وفك الاسير واحترام العشير واستصلاح المشير الا انهم لو خطبت اليهم ابن ادهم
او جبلة ابن الايهم لما زوجوه الا على خمسماية درهم اقتدا بما مهر الرسول عليه السلام
زوجاته وعقد به لحمة بناته على انك لم تطالب بالصداق ولا تلجا الى الطلاق
ثم انى ساخطب فى عقد عقدك واجمع حشد كل خطبة لم تفتق رتق سمع
ولا خطب بمثلها فى جمع قال الحرث بن همام فازدهانى فى وصف الخطبة الملوح
دون الخطبة المحلوم حتى قلت له قد وكلت اليك هذا الخطب فدبره
فلن يبر من طب لمن حب فنهض مهرولا ثم عاد متهللا وقال ابشر باعتاب
الدهر واجتلاب الدر فقد وليت العقد واكفل النقد وكان قد
ثم اخذ فى مواعدة اهل الخان واعداد حلوا الخوان فلما مد الليل اطنابه
واغلق كل ذى باب بابه اذن فى الجماعة الا احضروا فى هذه الساعة
فلم يبق منهم الا من لبى صوته وحضر بيته فلما اصطفوا لديه واجتمع الشهود
والمشهود عليه جعل يرنو الاصطرلاب ويصعده ويلحظ التقويم ويلحظه
الى ان نعس القوم وغشى النوم فقلت له يا هذا لقد ضع النعاس فى الراس
وخلص الناس فنظر نظرة فى النجوم ثم انتشط من عقلة الوجوم واقسم بالطور والكتاب
المسطور لينكشفن سر هذا الامر المستور ولينشرن ذكره الى يوم النشور
ثم انه جثا على ركبته واسترعى الاسماع لخطبته وقال

الملك المحمود المالك الودود مصور كل مولود ومآل كل مطرود ساطح المهاد وموطد
الأطواد ومرسل الأمطار ومسهل الأوطار عالم الأسرار ومدركها ومدمر
الأملاك ومهلكها ومكور الدهور ومكررها ومورد الأمور ومصدرها عم سماحه
وكمل وهطل ركامه وهمل وطاوع السول والأمل وأوسع المرمل والأرمل أحمده حمدا
ممدودا مداه وأوحده كما وحده الأواه وهو الله لا إله للأمم سواه ولا صادع لما
عدله وسواه أرسل محمدا علما للإسلام وإماما للحكام ومسددا
للرعاع ومعطلا أحكام ود وسواع أعلم وعلم وحكم وأحكم وأصل الأصول
ومهد وأكد الوعود وأوعد وأصل الله له الإكرام وأودع روحه السلام ورحم آله
وأهله الكرام ما لمع آل وملع رأل وطلع هلال وسمع إهلال إعملوا رعاكم الله أصلح
الأعمال واسلكوا مسالك الحلال واطرحوا الحرام ودعوه واسمعوا أمر الله وعوه وصلوا
الأرحام وراعوها وعاصوا الأهواء واردعوها وصاهروا لحم الصلاح والورع وصارموا
رهط اللهو والطمع ومصاهركم أطهر الأحرار مولدا وأسراهم سوددا وأحلاهم
موردا وأصحهم موعدا وها هو أمكم وحل حرمكم مملكا عروسكم المكرمة وماهرا
لها كما مهر الرسول صلى الله عليه وسلم أم سلمة وهو أكرم صهر أودع الأولاد وملك ما أراد
وما سها مملكه ولا وهم ولا وكس ملاحمه ولا وصم أسأل الله لكم إحماد وصاله ودوام إسعاده
وألهم كلا إصلاح حاله والإعداد لمعاده وله الحمد السرمد والمدح لرسوله محمد
فلما فرغ من خطبته البديعة النظام العرية من الإعجام عقد العقد على الخمس المائين
وقال لي بالرفاء والبنين ثم أحضر الحلواء التي كان أعدها وأبدى الأبدة عندها
فأقبلت إقبال الجماعة عليها وكدت أهوي بيدي إليها فزجرني عن المواكلة وأنهضني للمناولة
فوالله ما كان بأسرع من نهضة الأجفان حتى خر القوم للأذقان فلما رأيتهم كأعجاز
نخل خاوية أو صرعى بنت خابية علمت أنها إحدى الكبر وأم العبر فقلت له

يا عُدَيّ

يا عُدَيّ نفسه وحُبَيّب فلسه أأعددت للقوم حلوى أم بلوى فقال لم أعد خبيص البيض
في صحاف الخلنج فقلت أقسم بمن أطلع النجوم زهرا وهدى بها السارين طرا لقد جئت شيئا نكرا وأبقيت
لك في المخزيات ذكرا ثم حرقت فكري في صبور أمره وخيفة من عدوى عره حتى طار لفتي شعاعا
وأرعدت فرائصي ارتياعا فلما رأى استطارة فرقي واستشاطة قلقي قال ما هذا الفكر المرمض
والروع المومض فإن يكن فكرك في أجلي مراحلي فأنا الآن أرتع وأظفر وأقوى هله البنعة
متى وأقفر وكم مثلها فارقتها وهي تصفر وإن يكن نظرا لنفسك وحذارا من حبسك فتناول
فضالة الخبيص وطب نفسا عن القبيص حتى تأمن المستعدي والمعدي وتمهد لك المقام
والمقر المقر قبل أن تسحب وتجر ثم عمد إلى استخراج ما في البيوت من الأكياس والتخوت وجعل
يستخلص خالصة كل مخزون ونخبة كل مذروع وموزون حتى غادر ما ألفاه فخه
كعظم استخرج مخه فلما هم بما اصطفاه وزم وشمر عن ذراعه وحزم أقبل علي
إقبال من لبس الصفاقة وخلع الصداقة وقال هل لك في المصاحبة إلى البطيحة لأصلك
بأخرى مليحة فأقسمت له بالذي جعله مباركا أينما كان ولم يجعله ممن خان في كان إنه لا قبل لي
بنكاح حرتين ومعاشرة ضرتين ثم قلت له قول المتطبع بطباعه الكايل له بصاعه قد
كفتني الأولى فخرا فاطلب آخر للأخرى فتبسم من كلامي ودلف لالتزامي فلويت عنه
عذاري وأبديت له ازوراري فلما أبصر انقباضي وتجلى له إعراضي أنشد

يا صارفا عن المودة والزمان له صروف
ومعنفي في فضح من جاورت تعنيف العنوف
لا تلحني فيما أتيت فإنني بهم عروف
ولقد نزلت بهم فلم أرهم يراعون الضيوف
وبلوتهم فوجدتهم لما سبكتهم زيوف
ما فيهم إلا مخيف إن تمكن أو مخوف
لا بالصفي ولا الحفي ولا الوفي ولا العطوف

ووثبت فيهم وثبة الذيب الضري على الخروف
وتركتهم صرعى كأنهم سقوا كاس الحتوف
وحكمت فيما اقتنوه يدي ولهم رغم الأنوف
ثم انثنيت بمغنم حلو المجاني والقطوف
ولطال ما خلفت مكلوم الحشا خلفي لهوف
ووترت أرباب الأرائك والدرانك والسجوف
وكم بلغت بحيلتي ما ليس يبلغ بالسيوف
ووقفت في هول تراع الأسد فيه من الوقوف
ولكم سفكت وكم فتكت وكم هتكت حمى أنوف
وكم ارتكاض موبق في الذنوب وكم خفوف
لكنني أعددت حسن الظن بالمولى الرؤوف

قال فلما انتهى إلى هذا البيت لج بي الاستعبار والظ بالاستغفار حتى استمال الهوى قلبي المنحرف ورجوت له ما يرجى للمقترف المعترف ثم إنه غيض دمعه المنهل وتأبط جرابه وانسل وقال لابنه احمل الباقي والله الواقي قال الحارث بن همام فلما رأيت انسياب الحية وانتهاء الداء إلى الكية علمت أن ترنحي بالخان تجلبة للهوان فقوضت رحلي وجمعت للرحلة ذيلي وبت ليلتي أسري إلى الطيب وأحتسب الله على الخطيب

المقامة الثلاثون الصورية

حكى الحارث بن همام قال رحلت من مدينة المنصور إلى مدينة صور فلما حللتها ذا رفعة وخفض ومالك رفع وخفض تقت إلى مصر توقان السقيم إلى الأساة والكريم إلى المواساة فرفضت علائق الإقامة ونفضت عوائق الإقامة واعروريت ظهر ابن النعامة وأجفلت نحوها إجفال النعامة فلما دخلتها بعد معاناة الأين ومداناة الحين كلفت بها كلف الشنوان بالاصطباح

والحيران

والحيران بتنفس الصباح فبينما أنا يوما بها أطوف وتحتي فرس قطوف إذ رأيت على جرد الخيل عصبة كمصابيح الليل فسألت لانتجاع الزهر عن العصبة والوجهة فقيل أما القوم فشهود وأما المقصد فمحج وإملاك مشهود فحدتني منبعث النشاط على أن سرت مع الفراط لأفوز بحلاوة اللقاط وأجوز حلوا السماط فأفضينا بعد مكابدة العناء إلى دار رفيعة البناء وسيعة الفناء تشهد لبانيها بالثراء والسناء فلما نزلنا عن صهوات الخيول وقدمنا الأقدام للدخول رأيت دهليزها مجللا بأطمار مخرقة ومكللا بمخارف معلقة وهناك شخص على قطيفة فوق دكة لطيفة فرابني عنوان الصحيفة ومرأى هذه الطريقة ودعاني التطير بتلك المناحس إلى أن عمدت لذلك الجالس فعزمت عليه بمصرف الأقدار ليعرفني من رب هذه الدار فقال ما لها مالك معين ولا صاحب مبين إنما هي مصطبة المقيفين والمدرورين وولبجة المتقفقين والمجلوذين فقلت في نفسي إنا لله على ضلة المسعى وإمحال المرعى وهممت في الحال بالرجعى لكنني كرهت نحت العود مرفوري والقهقرى دون عيري فولجت الدار متجرعا الغصص كالملح المعضوض في القفص فإذا فيها أرائك منقوشة وطنافس مفروشة ونمارق مصفوفة وسجوف مرصوفة وقد أقبل الملك يميس في بردته ويتهادى بين حفدته محس جلس كأنه ابن ماء السماء نادى مناد من قبل الأحماء وحرمة ساسان أستاذ الأستاذين وقدوة الشحاذين لا عقد هذا العقد المبجل في ذا اليوم الأغر المحجل إلا الذي جال وجاب وشب في الكدية وشاب فأعجب رهط الصهر ما أشاروا إليه وأذنوا في إحضار المنصوص عليه فبرز حينئذ شيخ قد أمال

الملوان قامته ولوى الفتيان نعامته فتباشروا لمرآه وتبادروا إلى
استقباله فلما جلس على زربيته وسكنت الضوضاء لهيبته ازدلف إلى
منبره ومسح سبلته بيده ثم قال الحمد لله المبتدي بالإفضال
المبتدع للنوال المتقرب إليه بالسؤال المؤمل لتحقيق الآمال
الذي شرع الزكوة في الأموال وزجر عن نهر السؤال وندب إلى مواساة
المضطر وأمر بإطعام القانع والمعتر ووصف عباده المقربين في كتابه
المبين فقال وهو أصدق القائلين والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم
أحمده على ما رزق من مطعم هنيه وأعوذ به من استماع دعوة بلا نية وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يجزي المتصدقين والمتصدقات ويمحق
الربا ويربي الصدقات وأشهد أن محمدا عبده الرحيم ورسوله الكريم
ابتعثه لينسخ الظلمة بالضياء وينتصف للفقراء من الأغنياء فرفق صلى الله عليه وسلم
بالمسكين وفرض الحقوق في أموال المثرين وبين ما يجب للمقلين على المكثرين
صلى الله عليه صلاة تحظيه بالزلفة وعلى أصحابه إلى يوم الدين أهل الصفة
أما بعد فإن الله تعالى شرع النكاح لتتعففوا وسن التناسل لكي
تتآلفوا فقال سبحانه لتعرفوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل
لتعارفوا وهذا أبو الدراج ولاج بن خراج ذو الوجه الوقاح والإفك الصراح
والفرز والصياح والإبرام والإلحاح يخطب سليطة أهله قد ربطه بعلها
قنبس بنت أبي العنبس لما بلغه من التحافها بالحافها واسرافها في إشفاقها وإنكارها
على معاشها واستعاشها عند هراشها وقد بذل لها من الصداق شلاقا وعكازا
وصفاعا وكدارا فأنكحوه إنكاح مثله وصلوا حبلكم بحبله وإن
خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم

لي ولكم وأسأله أن يكثر في المخاطب نسلكم ويحرس من المعاطب شملكم فلما
فرغ الشيخ من خطبته وأبرم للختن عقد خطبته تساقط من النثار
ما استغرق حد الإكثار وأغرى الشحيح بالإيثار ثم نهض الشيخ يسحب الأذيال
ويقدم أراذله قال الحارث بن همام فتبعته لأنظر عرجة القوم وأكمل بهجة
اليوم فعاج بهم إلى سماط زينته طهاته وتناصفت في الصحن جفانه فجلس ربع
كل شخص في ربضته وطفق يرتع في روضته انسللت من الصف وفررت
من الزحف فحانت من الشيخ لفتة إلي ونظرة هجم بها طرفه علي فقال إلى أين
يا أبرم هلا عاشرت معاشرة من فيه كرم فقلت والذي خلقها طباقا وطبقها
إشراقا لا ذقت لها مذاقا ولا لست زقاقا أو تخبرني أين مدبت ضبابك ومن
أين هبت صباك فتنفس الصعداء مرارا وأرسل البكاء مدرارا حتى إذا استنزف
الدمع استنصت الجمع وقال لي اسمع أرعني السمع

مسقط الراس سروج وبها كنت أموج
بلدة يوجد فيها كل شيء ويروج
وردها من سلسبيل وصحاريها مروج
وبنوها ومغانيهم نجوم وبروج
حبذا نفحة رياها وقد أها البهيج
وأزاهير رباها حين تنجاب الثلوج
من رآها قال مرتضى جنة الدنيا سروج
ولمن نزاح عنها زفرات ونشيج
مثل ما لاقيت مذ عرجني عنها العلوج
عبرة تهمي وشجو كلما قر يهيج

وهموم حطّه حطّ مسّ نخ

ومناعٍ في الرحى فاز الخطو عوح

ليت يومي عُماحٌ لي به الخروج

قال فلما تبيّن لك وواعيت ما انشده ايقنت أنه علّامتنا أبو زيد وإن كان الهرم قد اوثقه بقيد فبادرت إلى مصافحته واغتنمت مؤاكلته من صحفته وظلت مدّة مقامي بمصر أعشو إلى شواظه وأحشو صدفتي من درر ألفاظه إلى أن نعب بيننا غراب البين ففارقته مفارقة الجفن للعين ٥

المقامة الحادية والثلاثون

حدث الحرث بن همام قال كنت في عنفوان الشباب وريعان العيش اللباب أقلي الاكتنان بالغاب وأهوى الإنصلات من القراب لعلمي أن السفر ينفج السفر وينتج الظفر ومعاقرة الوطن تعقر الفطن وتحقر من قطن فأجلت قداح الاستشاره واقتدحت زناد الاستخاره ثم استجشت جاشا أثبت من الحجاره وأصعدت إلى ساحل الشام للتجاره فلما خيمت بالرمله وألقيت بها عصا الرحله صادفت ركابا تعد للسرى ورجالا تشد إلى أم القرى فعصفت بي ريح الغرام وأهاج لي شوق إلى البيت الحرام فزممت ناقتي وودعت علقتي وعلاقتي وقلت للائمي أقصر فإني

سأختار المقام على المقام

وأنفق ما جمعت بأرض جمع

وأسلو بالحطيم عن الحطام

ثم انتظمت مع رفقة كنجوم الليل لهم في السير خرير السيل وإلى الخير جري الخيل فلم نزل بين إدلاج وتأويب وإيجاف وتقريب إلى أن حبسنا أيدي المطايا بالتحفه في إيصالنا إلى الجحفه فحللناها متأهبين للإحرام متباشرين بإدراك المرام فلم يك إلا أن أنخنا الركائب وحططنا الحقائب

حتى

٥٢

حتى طلع من بين الهضاب شخص ضاحي الإهاب وهو ينادي يا أهل ذا النادي هلم إلى ما ينجي يوم التنادي فانخرط إليه الحجيج وانضلتوا واحتفوا به وانضووا فلما رأى تأثفهم حوله واستطعامهم قوله تسنم إحدى الإكام ثم تنحنح مستفتحا للكلام وقال يا معشر الحجاج النازلين من الفجاج أتعقلون ما تواجهون وإلى من تتوجهون أم تدرون على من تقدمون وعلام تقدمون أتخالون أن الحج هو اختيار الرواحل وقطع المراحل واتخاذ المحامل وإنقال الزوامل كلا والله بل هو اجتناب الخطيه قبل اجتلاب المطيه وإخلاص النيه في قصد تلك البنيه وإمحاض الطاعه عند وجدان الاستطاعه وإصلاح المعاملات أمام إعمال اليعملات فوالذي شرع المناسك للناسك وأرشد السالك في الليل الحالك ما ينفع الاغتسال بالذنوب من الانغماس في الذنوب ولا تغني لبسة الإحرام عن الملتبس بالحرام ولا يشبع الاضطباع بالإزار مع الاضطلاع بالأوزار ولا يجدي التقرب بالحلق مع التقلب في ظلم الخلق ولا يرحض التنسك للتقصير دون التمسك بالتقصير ولا ينفع التعلل بعرفة غير أهل المعرفه ولا يزكو بالخيف من يرغب في الحيف ولا يشهد المقام إلا من استقام ولا يحظى بقبول الحج من زاغ عن المحجه فرحم الله امرأ صفا قبل مسعاه إلى الصفا وورد شريعة الرضا قبل شروعه في الإضا ونزع عن تلبيسه قبل نزع ملبوسه وفاض بمعروفه قبل الإفاضة من تعريفه ثم رفع عقيرته بصوت أسمع الصم وأجبال الشم وأنشد

ما الحج سيرك تأويباً وإدلاجا … ولا اغتباطك أجمالاً وأحداجا
الحج أن تقصد البيت الحرام على … تجريدك الحج لا تقضي به حاجا
وتمتطي كاهل الإنصاف متخذاً … ردع الهوى هادياً والحق منهاجا
وأن تواسي ما أوتيت مقدرة … من مد كفاً إلى جدواك محتاجا
فهكذا هكذا من حج حجته … وإن خلا الحج عنه كان إخداجا
حسب المرائين غبناً أنهم غرسوا … وما جنوا ولقوا كداً وإزعاجا
وأنهم حرموا أجراً ومحمدة … وألجموا عرضهم من عاب أو هاجا
أخي إن نفع ما تبديه من قرب … وجه المهيمن ولاجاً وخراجا
فليس يخفى على الرحمن خافية … إن أخلص العبد في الطاعات أو داجا
وبادر الموت بالحسنى تنقلها … فإنه ينتبه داعي الموت إن فاجا
واقن النواضح خلفاً لا تزايله … عنك الليالي ولو أبلين أنساجا
ولا تشم كل خال لاح بارقه … ولو ترى هتون السكب ثجاجا
ما كل داع بأهل أن يصاخ له … كم قد أضل بغي بعض من ناجا
وما اللبيب سوى من بات مقتنعاً … ببلغة تدرج الأيام إدراجا
فكل كثر إلى قل مغبته … وكل نار إلى لين وإن هاجا

قال الراوي فلما ألقح عقم الأفهام بسحر الكلام استروحت ريح أبي زيد وما دنا للارتياح إليه أي ميل تملكت أحنى استوعبت حكمته وأجدته الكتبه ثم دلفت إليه لأتصفح صفحات محياه وأستشف جوهر حلاه فإذا هو الضالة التي أنشدها وناظم القلائد التي أنشدها فعانقته عناق اللام للألف ونزلته منزلة البرء عند الدنف وسألته أن يلازمني فأبا

او

أو يزايلني فأبى وقال آليت في حجتي هذه أن لا أحتقب ولا أعتقب ولا أكتسب ولا أنتسب ولا أرتفق ولا أرافق ولا أوافق رفيقاً ففق ثم ذهب يهرول وغادرني أولول فلم أزل أقريه نظري وأودعه ناظري حتى توقل أحد الأطواد ووقف للحجيج بالمرصاد فحين شاهد إيضاع الركبان في الكثبان وقع بالبنان على البنان واندفع ينشد

ليس من زار راكباً … مثل ساع على القدم
لا ولا خادم أطاع … كعاص من الخدم
كيف يا قوم يستوي … سعي بان ومن هدم
سيعض المفرطون … غداً مأتم الندم
ويقول الذي تقرب … طوبى لمن خدم
ويك يا نفس قدمي … صالحاً عند ذي القدم
وازدري زخرف الحياة … فوجدانه عدم
واذكري مصرع الحمام … إذا خطبه صدم
واندبي فعلك القبيح … وتحيي له بدم
وادفعيه بتوبة … قبل أن يحلم الأدم
فعسى الله أن يقيك … السعير الذي احتدم
يوم لا عثرة تقال … ولا ينفع الندم

ثم إنه أغمد عضب لسانه وانطلق لشأنه فارتدت في كل مورد يرده ومعرس يتوسده أن أتفقده فأفتقده واستنجد من ينشده فلا أجده حتى خلت أن الجن اختطفته أو الأرض اقتطعته فما بليت في الغربة كهذه الكربة ولا منيت في سفرة بمثلها من زفرة

المقامة الثانية والثلاثون

حكى الحارث بن همام قال أجمعت حين قضيت مناسك الحج وأقمت وظائف العج والثج أن أقصد

طيبة مع رفقة من بني شيبة لأزور قبر المصطفى وأخرج من تبعة مخ وجفى
فأرجف بأن السالك شاغره وعرب الحرمين متشاجرة فحرت بين إشفاق يثبطني
وأشواق تنشطني إلى أن ألقي في روعي الاستسلام وتغلب زيارة قبره عليه الصلاة والسلام
فأعتمدت التعبئة واعددت العدة وشرقت والرفقة لا ألوي على عرجة ولا أتلوى
في أوب ولا دلجة حتى وافينا بني حرب وقد آبوا من حرب فأزمعنا أن
نقضي بحلتهم اليوم وحلة القوم وبينا نحن نتخير المناخ ونرود الورد النقاخ
إذ رأينا ناديهم يركضون كأنهم إلى نصب يوفضون فرابنا انثيالهم وسألنا ما بالهم
فقيل قد حضر ناديهم فقيه العرب فأهرعوا لهذا السبب فقلت لرفقتي ألا نشهد
مجمع الحي لنتبين الرشد من الغي فقالوا لقد أسمعت إذ دعوت ونصحت وما ألوت
ثم نهضنا نتبع الهادي ونؤم النادي حتى إذا أطللنا عليه واستشرفنا الفقيه
المنهود إليه ألفيناه أبا زيد ذا الشقر والبقر والفواقر والفقر وقد اعتم القفداء
واشتمل الصماء وقعد القرفصاء وأعيان الحي به محدقون وأخلاطهم عليه ملتفون
وهو يقول سلوني عن المعضلات واستوضحوا مني المشكلات فوالذي فطر السما وعلم
آدم الأسما إني لفقيه العرب العربا وأعلم من تحت الجربا فصمد له فتى متين اللسان
جريء الجنان فقال إني حاضرت فقهاء الدنيا حتى انتخلت منهم مائة فتيا فإن كنت
ممن يرغب عن نبأ غمر ويرغب في سبر فاستمع واجب لتقابل بما يجب
فقال الله أكبر سيبين المخبر وينكشف المضمر فاصدع بما تؤمر

فقال ما تقول فيمن توضأ ثم لمس ظهر نعله — قال انتقض وضوؤه بفعله — النعل الزوجة
قال فإن توضأ ثم أتكأه البرد — قال يجدد الوضوء من بعد — البرد النوم
قال أيجوز الوضوء مما يقذفه الثعبان — قال وهل أنظف منه للعريان — الثعبان مخرج الماء
قال أيمسح المتوضي أنثييه — قال قد ندب إليه ولم يوجب عليه — الأنثيان الأذنان

قال أيستباح ما الضرير — قال نعم ويجتنب ما البصير — الضرير حرف الوادي والبصير الكلب
قال أيحل الطواف في الربيع — قال يكره لما فيه من الحدث الشنيع — الطواف الغائط والربيع النهر
قال أيجب الغسل على من أمنى — قال لا ولو ثنى — أمنى نزل منى بعالية منى وأمنى إذا أتاها
قال فهل يجب على الجنب غسل فروته — قال أجل وغسل إبرته — الفروة جلدة الرأس والإبرة عظم المرفق
قال فإن أخل بغسل فأسه — قال هو كما لو أغفل غسل رأسه — الفأس العظم المشرف على نقرة القفا
قال فما تقول فيمن تيمم ثم رأى روضا — قال بطل تيممه فليتوضأ — الروض هاهنا جمع روضة وهي الماء المنتقع
قال أيجوز أن يسجد الرجل في العذرة — قال نعم وليجانب القذرة — العذرة فناء الدار
قال فهل له السجود على الخلاف — قال لا ولا على الأطراف — الخلاف الكم
قال فإن سجد على شماله — قال لا بأس بفعاله — الشمال جمع شملة
قال فهل يجوز السجود على الكراع — قال نعم دون الذراع — الكراع ما استطال من الحرة
قال أيصلى على رأس الكلب — قال نعم كسائر الهضب — رأس الكلب ثنية معروفة
قال ما تقول فيمن صلى وعانته بارزة — قال صلاته جائزة — العانة الجماعة من حمر الوحش
قال فإن صلى وعليه صوم — قال يعيد ولو صلى مائة يوم — الصوم ذرق النعام
قال فإن حمل جروا وصلى — قال هو كما لو حمل باقلا — الجرو الصغار من القثاء والرمان
قال أتصح صلاة حامل القروة — قال هو كما لو صلى فوق المروة — القروة ميلغة الكلب
قال فإن قطر على ثوب المصلي نجو — قال يمضي في صلاته ولا غرو — النجو السحاب الذي قد هراق ماءه
قال فهل يجوز أن يؤم الرجال مقنع — قال نعم ويصلي وهو مدرع — المقنع الذي يلبس الدرع
قال فإن أمهم من في يده وقف — قال يعيدون ولو أنهم ألف — الوقف السوار من العاج والذبل
وأراد أن الرجال لا يجوز لهم الائتمام بالنسا
قال فإن أمهم من فخذه بادية — قال الصلاة وصلاتهم ماضية — الفخذ العشيرة وبادية يسكنون البدو

واختار بعضهم في كبر الجار هذه فيحصل الغرو بينهما وبين الخدم الأعضاء

قال فإن أتهم الثور الأحم قال صل وخلاك ذم — الثور السيد والأحم الذي لا رمح معه

قال أيدخل الغمر في صلاة الشاهد قال لا والغايب الشاهد — قال الشاهد صلاة المغرب تسمى الشاهد لأنها عند طلوع النجم

قال أيجوز للمعذور أن يفطر في شهر رمضان قال ما رخص فيه إلا للصابي — المعذور المختون وهو أيضا المعذر يقال

قال فهل للمعرّس أن يأكل فيه قال نعم بملء فيه — المعرس المسافر الذي ينزل آخر ليله ثم يرتحل

قال فإن أفطر في العرواء قال لا ينكر عليه الولاء — العرواء التي يأخذهم العروا وهي الحمى برعدة

قال فإن أكل الصائم بعدما أصبح قال هو أحوط له وأصلح — أصبح أي استصبح بالمصباح

قال فإن عجل إلى أن أكل ليلا قال ليتمم للقضاء ذيلا — الليل فرخ الحبارى وقيل هو ولد الكروان

قال فإن كان قبل أن يتوارى البيضا قال يلزمه وأبيه القضا — البيضاء اسم الشمس

قال فإن استفار لصائم الكبد قال أفطر من أجل الصبر — الكبد القي وتثار هذا ستدعاه

قال فله أن يفطر بالحاجم الطابخ قال نعم لا بطاهي المطابخ — الطابخ الحمى الصالب

قال فإن ضحكت المرأة في صومها قال بطل صوم يومها — ضحكت ها هنا حاضت

قال فإن ظهر الجدري على ضرتها قال تفطر أدنى مضرتها — الضرة أصل الإبهام وأصل الثدي أيضا

قال ما يجب في مائة مصباح قال حقتان بإصلاح — المصباح الناقة التي تصبح في المبرك

قال فإن ملك عشر خناجر قال يخرج ابنين والأجر — الخناجر النوق الغزار واحدها خنجر

قال فإن سمح للساعي بجميمه قال تصعى له يوم قيامة — الساعي جابي الصدقة والجميمة خيار المال

قال أيستحق حمل الأوزار من الركون حرا قال نعم إذا كانوا غرا — الأوزار السلاح وغراة بسلاحهم

قال أيجوز للحاج أن يعتمر قال لا ولا أن يختمر — الاعتمار لبس العمامة وهي العمامة والإختمار

قال فهل له أن يقتل الشجاع قال نعم كما يقتل الشاع — الشجاع الحية

قال فإن قتل زمارة في الحرم قال عليه بدنة من النعم — الزمارة النعامة واسم صوتها الزمار

قال فإن رمى ساق حر فجدّله قال يخرج شاة بدله — ساق حر ذكر القماري

قال فإن قتل أم عوف بعد الإحرام قال يتصدق بقبضة من طعام — أم عوف الجرادة

قال أيحل للحاج استصحاب القارب قال نعم يستقيم إلى المشارب — القارب طالب الماء بالليل

قال ما تقول في إحرام بعد السبت قال قد حل في ذلك الوقت إحرام المحرم — والسبت حلق الرأس

قال ما تقول في بيع الكميت قال حرام كبيع الميت — الكميت الخمر

قال أيجوز بيع الحل بلحم الجمل قال لا ولا بلحم الحمل — الحل ابن المخاض ولا يحل بيع اللحم بالحيوان

قال أيحل بيع الهدية قال لا ولا بيع السبية — الهدية بالتشديد ما يهدى إلى الكعبة

قال ما تقول في بيع العقيقة قال محظور على الخليقة — العقيقة ما يذبح عن المولود اليوم السابع

قال أيجوز بيع الداعي على الراعي قال لا ولا على الساعي — الداعي بقية اللبن في الضرع

قال أيباع الصقر بالتمر قال لا وما أكل الخلق وللأمر — الصقر الدبس

قال أيشتري المسلم سلب المسلمات قال نعم ويورث عند الممات — السلب لحاء الشجر وهو أيضا خوص الثمام

قال فهل يجوز أن يباع الشافع قال ما الجوار من مانع — الشافع الشاة التي معها سخلها

قال أيباع الإبريق على بني الأصفر قال يكره كبيع المغفر — الإبريق السيف الصقيل اللامع وبنو الأصفر الروم

قال أيجوز أن يبيع الرجل ضيفنة قال لا ولكن ليبع صفقة — الضيفن الولد على الكبر والصفي الناقة الغزيرة

قال فإن اشترى عبدا فبان بأمته خراج قال ما في ذلك من هاج — الأم مجمع الدماغ

قال أتثبت الشفعة للشريك في الصحراء قال لا والشريك في الصقر — الصحراء الأتان التي يخالطها بياض وغبرة

قال أيحل أن يحمى ماء البئر والخلاء قال إن كان فيه لفلا فلا — يحمى يمنع والخلا الكلأ

قال ما تقول في ميتة الكافر قال حل للمقيم والمسافر — الكافر البحر وميتته السمك الطافي فوق مائه

قال أيجوز أن يضحى بالحول قال لا هو أجدر بالقبول — الحول جمع حائل

قال فهل يضحى بالطالق قال نعم ويقرى منه الطارق — الطالق الناقة التي ترسل ترعى حيث شاءت

قال فإن ضحى قبل طلوع الغزالة — قال شاة لحم بلا محالة
الغزالة الشمس وقال بعضهم بقال طلعت
قال أيحل الكسب بالطرق — قال هو كالقمار بلا فرق
الطرق الضرب بالحصا وهو من أفعال الكهنة
قال أيسلم القائم على القاعد — قال محظور فيها بل الأباعد
القاعد التي قعدت عن الحيض وعن الأزواج
قال أيباح الغاسل تحت الرقيع — قال أحسبه في البقيع
الرقيع السما وعنى بالبقيع بقيع المدينة
قال أيمنع الذمي من قتل العجوز — قال معارضته في العجوز لا يجوز
العجوز الخمر ونقلها من خرجها
قال ما تقول في التهود — قال هو مفتاح التزهد
التهود التوبة ومنه قوله إنا هدنا إليك
قال أيجوز أن ينتقل الرجل عن عمارة أبيه — قال ما حوت الجاهل بنيه
العمارة القبيلة
قال ما تقول في ضرب البليّة — قال أعظم به من خطية
الضرب الحبس والبلية الناقة تحبس عند قبر صاحبها فلا تسقى
ولا تعلف إلى أن تموت وكانت الجاهلية تزعم أن صاحبها يحشر عليها
قال أيحل ضرب السفير — قال نعم والحمل على المستشير
السفير ما تناثر من ورق الشجر والمستشير الجمل
السمين وهو أيضا الجمل الذي يعرف اللاقح من الحايل
قال أيعزر الرجل أباه — قال يفعله البر ولا يأباه
التعزير التعظيم والتضرع
قال ما تقول فيمن أفقر أخاه — قال حبذا ما توخاه
أفقره أعاره ناقة يركب فقارها
قال فإن أعرى ولده — قال يا حسن ما اعتمده
أعراه أعطاه ثمرة نخلة عاما
قال فإن أصلى مملوكه النار — قال لا إثم عليه ولا عار

المولى العجين الذي قد أجيد عجنه حتى قوي
قال أيجوز للمرأة أن تحرم بعلها — قال ما حظر أحد فعلها
البعل النخل الذي يشرب بعروقه من الأرض
قال فهل تؤدب المرأة على الحجل — قال أجل
الحجل سوء احتمال الغنى
قال ما تقول فيمن نحت أثلة أخيه — قال أثم ولو أذن له فيه
نحت أثلته إذا اغتابه وقدح في عرضه
قال أيحجر الحاكم على صاحب الثور — قال نعم ليأمن غائلة الجور
الثور الجنون
قال فهل له أن يضرب على يد اليتيم — قال نعم إلى أن يستقيم
يقال ضرب على يده إذا حجر عليه
قال فهل يجوز أن يتخذ له ربضا — قال لا ولو كان له رضا
الربض الزوجة
قال فمتى يبيع بدن السفيه — قال حين يرى له الحظ فيه
البدن الدرع القصير
قال فهل يجوز أن يبتاع له حشا — قال نعم إذا لم يكن معشا
الحش النخل الذي لم يحمل والمعشي منه الذي تراكب كربه حتى عشاه
قال أيجوز أن يكون الحاكم ظالما — قال نعم إذا كان عالما
الظالم الذي يشرب اللبن قبل أن يروب ويخرج زبده
قال أيستقضي من ليست له بصيرة — قال نعم إذا حسنت منه السيرة
البصيرة ها هنا الترس

قال فإن تعرّى من العَقْل   قال ذاك عنوان الفضل

العَقْل ضَرْبٌ من الوَشْي

قال فإن كان له زَهْو جبّار   قال لا إنكار ولا إكبار

الزَّهو البُسر المُلوّن والجبّار النخل الذي فات اليد
والقاعد من النخل ضدّها

قال أيجوز أن يكون الشاهد مُريبا   قال نعم إذا كان أريبا

المريب الذي يكثر عنده اللبن الرائب

قال فإن بان أنه لاط   قال هو كما لو حاط

لاط الحوض إذا طيّنه

قال فإن عثر على أنه غربل   قال تُرَدّ شهادته ولا تُقبل

غربل أي قتل

قال فإن وضح أنه مائن   قال هو وصف له زائن

المائن الذي يعول ويكفي المؤونة من مان يمون

قال ما يجب على عائف الحق   قال تخلّف بإله الخلق

العائف الجاحد وأكثر ما يقال في البر

قال فما تقول فيمن فقأ عين بلبل عامدا   قال تُفقأ عينه قَوَدًا واحدا

البلبل الرجل الخفيف

قال فإن جرح قطاة امرأة فماتت   قال النفس بالنفس إذا فاتت

القطاة ما بين الوركين

قال فإن ألقت الحامل حشّا من ضربه   قال ليكفّر بالإعتاق عن ذنبه

الحشّ الجنين الملقى ميتا

قال ما

قال ما يجب على المختفي في الشرع   قال القطع لإقامة الردع

المختفي نبّاش القبور

قال فإن سرق ثمينا من ذهب   قال لا قطع كما لو غصب

الثمين الثُّمن كما يقال للنصف النصيف وفي الكتاب ...

قال فإن بان على المرأة السَّرَق   قال لا حرج عليها ولا فرق

السَّرَق الحرير الأبيض

قال أينعقد نكاح لم تشهده القواري   قال لا والخالق الباري

القواري الشهود لأنهم يقرّون الأشياء أي يتبعونها

قال ما تقول في عروس باتت بليلة حُرّة   ثم رُدّت في حافرتها بسُحرة

قال يجب لها نصف الصداق ولا تلزمها عدّة الطلاق

يقال باتت العروس بليلة حرّة إذا امتنعت على زوجها
فإذا افتضّها قيل باتت بليلة شيباء والردّ في الحافرة
بمعنى الرجوع في الطريق الأول وكنى به عن طلاقها وعودها إلى أهلها

فقال له السائل لله درّك من بحر لا يُغضغضه الماتح وحَبر لا يبلغ مدحه المادح ثم أطرق إطراق الحَيي وأرمّ إرمام العَيي فقال له أبو زيد إيهٍ يا بني فإلى متى وإلى متى فقال إنه لم يبق في كنانتي مرماة ولا بعد إشراق صبحك مماراة فبالله أي ابن أرض أنت فما أحسن ما أبنت فأنشد بلسان ذَلِق وصوت صَهصَلِق

أنا في العالم مثله   ولأهل العلم قبله
غير أني كل يوم   بين تعريس ورحله
والغريب الدار لو حلّ   بطوبى لم تطب له

ثم قال اللهم كما جعلتنا من هُدي ويَهدي فاجعلنا ممن تَهدي ويُهدي فساق
اليه القوم ذودا مع قينه وسألوه أن يزورهم الفينة بعد الفينة فنهض
ملبيهم العود ويزجي الأمة والذود قال الحارث بن همام فاعترضته
وقلت وعهدي بك سفيها متى صرت فقيها فظلّ هنيهةً يحول ثم أنشأ
يقول

لبستُ لكل زمانٍ لبوسا ... ولابستُ صرفيه نعمى وبوسا
وعاشرت كل جليس بما ... يلائمه لأروق الجليسا
فعند الرواة أدير الكلام ... وبين السقاة أدير الكؤوسا
وطورا بوعظي أسيل الدموع ... وطورا بلهوي أسرّ النفوسا
وأقري المسامع إما نطقت ... بيانا يقود الحرون الشموسا
وإن شئت أرعف كف اليراع ... فساقط درا يحلي الطروسا
ولم مشكلات حكين السهى ... خفاءً فصيرتهن شموسا
وكم لي على خلب العقول ... وأسأرن في كل قلب رسيسا
وعز أوانٍ بها أنني ... عليه أتينا طليقا حبيسا
على أنني رعاني حصص ... بلكيد ولا كيد فرعون موسى
تسعّر لي كل يوم وغا ... أطام لظاها وطيسا وطيسا
ويطرقني بالخطوب التي ... يذبن القوى ويشبن الرؤوسا
ويدني إليّ البعيد البغيض ... ويبعد عني القريب الأنيسا
ولولا خساسة أخلاقه ... لما كان حظي منه خسيسا

فقلت له خفض الأعوان ولا تلم الزمان واشكر نقلك عن مذهب إبليس إلى

مذهب أبي إدريس فقال دع الهذار ولا تهتك الأستار وانهض بنا للضرب
إلى السحر بيثرب يعني أن يرحض المآثم ذرى الأوزار فقلت هيهات
أن أسير أو أوافقه التنسير فقال تالله لقد أوجبت ذمما وطلبت إذ طلبت
أمما فعالك ما يشفي النفس وينفي اللبس قال فأوضح لي المعمى وكشف
عني العمى شبّ دنا الأكوار وشرقت وسار ولم أرأم فسامرنه مدة مسايرته
فيما أنا في طلح الشقه وودت معه بعد الشقه حتى إذا دخلنا مدينة
الرسول وفزنا بالزيارة بالسول أشأم وأعرقت وغرب وشرقت

المقامة الثالثة والثلثون

حكى الحارث بن همام قال عاهدت الله تعالى
مذ يفعت ألا أؤخر الصلاة ما استطعت فكنت مع جوب الفلوات
ولهو الخلوات أراعي أوقات الصلوات وأحاذر من الفوات
وإذا رافقت في رحلة أو حللت بحلة نزعت بصوت الداعي إليها وأغريت
من حافظ عليها فاتفق حين قفلت من تفليس أن صليت مع غفة من مفاليس
فلما قضينا الصلاة وأزمعنا الانفتال برز شيخ بادي اللقوة بالي
الكسوة والقوة فقال عزمت على من خلق من طينة الحرية وتفوق دَرّ العصبية
إلا ما تكلف لي لبثه وسمع مني نفثه ثم له الخيار من بعد وبيده النقد
والزجر فعقد له القوم الحبى وسكنوا أمثال الربا فلما أنس حسن إنصاتهم
وتراءى حصاتهم قال يا أولي الأبصار الرامقة والبصائر الرائقة
أما يغني عن الخبر العيان وينبئ عن النار الدخان شيب لائح ووهن فادح
وداء واضح والباطن فاضح ولقد كنت والله ممن ملك ومال

ووَلِي وآلَ وزند ونال ووصل وصال فلم تزل الجوائح تُسحِت والنوائب تنحت حتى الوكر قفر والكف صفر والشعار رث والعيش مر والصبية يتضاغون من الطوى ويتمنّون مصاصة النوى ولم أُمّ هذا المقام الشائن والكشف لكم الدفائن إلا بعد ما شقيت ولقيت ونشبت مما لقيت وليتني لم أكن بقيت ثم تأوّه تأوّه الأسيف وأنشد بصوتٍ ضعيف

أشكو إلى الرحمن سبحانه ... تقلّبَ الدهر وعدوانه
وحادثاتٍ فرَّعت مَرْوتي ... وقوّضت مجدي وبنيانه
واهتصرت عودي وما أولم من ... تهصر الأحداث أغصانه
وأمحلت ربعي حتى خلت ... من ربعي المُمحِل جرذانه
وغادرتني حائرا بائرا ... أكابد الفقر وأشجانه
من بعد ما كنت أخا ثروةٍ ... يسحب في النعمة أردانه
تخبط العافون أوراقه ... ويحمد النازل نيرانه
فأصبح اليوم كأن لم يكن ... أعانه الدهر الذي عانه
وأزور من كان له زائرا ... وعاف عافي العرف عرفانه
فهل فتى يجبر ما يوى ... من كشح دهرٍ حانه
يفرّج الهمّ الذي همّه ... ويصلح الحال الذي شانه

قال الراوي فصبت الجماعة إلى أن نستنبئه لنستنجش خباءه ونستشفّ حقيقته فقلنا له قد عرفنا قدر زنتك ورأينا درّ مزنتك فعرّفنا دوحة شعبك واحسر اللثام عن نسبك فأعرض إعراض من مُني بالإعنات

أو

أو تيسر بالنبات وحصل بلعق الضروب وبتأفف من تعيّش المرؤات ثم أنشد بلفظ ضارع وجرس خادع

لعمرك ما كل فرعٍ يدلّ ... جناه اللذيذ على أصله
فكم ما جلا حين نوّابه ... ولا شار الشهد عن نحله
وميّز إذا ما اعتصرت الكروم ... سلافة عصرك من خلّه
لتعلي وترخص عن خبرة ... وتشري كلا شيء بمثله
فعارٌ على الفطن اللوذعي ... دخول الغبينة في عقله

قال فأدهى القوم بين كآبه ودهائه واختلبهم تحنّي آدابه مع دآبه حتى حمّوا الحبايا الحبى وحفّوا يا النبى وقالوا له يا هذا إنك قمت على ركبتك بكبّة وتعرّضت لخلبة حليته فخذ هذه الصبابة وهبها لا خطأ ولا إصابة فتزلّف لهم منزلة الكثر ووصل قبوله بالشكر ثم تولّى يجرّ شقّه ويهتف بالخبط طرقه قال المجرّب الحكاية فخشي لي أنه مخبل لحليته متصنّع في مشيته فنهضت أنبح مناهجه واقفو أدراجه وهو يلحظني شزرا ويوسعني هجرا حتى إذا خلا الطريق وأمكن التحقيق نظر إليّ نظر من هشّ وبشّ ومحّص بعد ما غشّ وقال إني لا أخالك أخا غربة وزائد صحبة فهل لك في رفيق برفق بك ويرتق ويُنفق عليك ويُنفق فقلت له لوانا في هذا الرفيق لو أتاني التوفيق فقال لجد وجدت فاغتبط واستكرمت فارتبط ثم ضحك مليّا وتمثّل لي بشرا سويّا فإذا هو شيخنا السروجي لا أقلبه بجسمه ولا أشبهه في وسمه ففرحت بلقيته وكذاب لقوته وهممت بلائمه على سوء مغامته فتجافاه وأنشد قبل أن أنحاه

طهرت بزيّ كيما يقال ... فقير يرجي الزمان المرجّي
وأظهرت للناس أن قد فلجت ... فكم نال قلبي به ما تزجّي
ولولا الزمانة لم يرث لي ... ولولا التفالج لم ألق فلجا

ثم قال إنه لم يبق لي بهذه الأرض مرتع ولا في أهلها مطمع فإن كنت الرفيق فالطريق الطريق

فرينا منها بحزدين ووافقته عامين أجردين وكنت على أن أصحبه ما عشت فأبى
الدهر المشتت

المقامة الرابعة والثلثون الزبيدية

أخبر الحرث الحرث بن همام قال لما جبت البلاد إلى زبيد صحبني غلام كنت ربيته إلى أن بلغ أشده وثقفته حتى كمل رشده وكان آنس بأخلاقي وخبر مجاري أخلاقي فلم يتخطى مرامي ولا أخطى في المرامي لا جرم أنه رخت الكأس بصفري وأخلفته لحضري وسفري فألوى به الدهر المبيد حين متنا زبيد فلما شالت نعامته وتكنت أمته نبيت عاما لا أسيغ طعاما ولا أريغ غلاما حتى ألجأني شوائب الوحدة ومتاعب الخدمة والعقدة إلى أن أعتاض عن الثاكل الحزن وأرتاد مرهوبا بدلا ذا مرعوبه فقصدت مربع العبيد بسوق زبيد وقلت أريد عبدا يعجب إذا قلب ويحمد إذا جرب ولكن ممن قرحه الأكياس وأخرجه إلى السوق الإفلاس فاهتز كل منهم لمطلبي ووثب وبذل تحصيله عن كثب ثم دار الأهلة دوزها ونقلت كورها وجوزها وما تحرص وعودهم وعد ولا أتيح لها زغد فلما رأيت النخاسين ناسين وتناسيت علمت أن ليس كل من حلق يبرى ولا كل حلاب مثل طغري فرفضت مذهب التفويض وبرزت إلى السوق بالصور والبيض فإني لا أتعرض الغلمان وأتعرف الأثمان إذ عارضني رجل قد اختطم بلثام وقبض على زند غلام وقال

أتشتري مني غلاما صنعا — في خلقه وخلقه قد برعا
يلفي لما نطته مضطلعا — ينبيك إن قال وإن قد وعى
وإن تصفحت غرة يقل لعا — وإن تسمه السعي في النار سعى
وإن تصاحبه ولو دهرا رعى — وإن تخبته بطلاط فيعا
وهو الكيس الذي قد جمعا — ما فاه قط كاذبا ولا ادعى
ولا أجاب طمعا حين دعا — ولا استحان ثقة ستر أودعا

وطالما أبدع فيما صنعا — وفاق في المطبوخ والمطبوع معا
والله لولا ضنك عيش صدعا — وصبية أضحوا عراة جوعا
ما بعته بملك كسرى أجمعا

قال فلما تأملت خلقه القويم ووجدته الصيم خلته من ولدان جنة النعيم وقلت ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ثم استنطقته عن اسمه لا لرغبة في علمه بل لأنظر إلى فصاحته من صباحته وكيف لهجته من لحته فلم ينطق بحلو ولا مر ولا فاه فوه بحلو ولا مر فصرت عنده ضحكا وقلت قبحا لعبيد وشقحا نعار في التضحك والتحنحن ثم انقض رأسه إلي وأنشد

يا من تكشف عن اسمي لم يهتك ما هتكه أمر بين يديه
إن كان لا بد من كشفه فأصغ له أنا يوسف أنا يوسف
ولقد كشفت لك الغطا إن كنت فطنا عرفت وما إخالك تعرف

قال فسل عنبي شعره وأشفى لي نبحه حتى شدهت عن التحقيق وأنسيت قصة يوسف الصديق ولم يكن لهم إلا مساومة مولاه فيه واستطلاع طلع الثمن الأوفى به ولكنني أحببت أنه سيطر شراءه إلي ويغلي السيمة علي فاجتلوا إلى حين حلقت ولا علق بابه اعتلقت ثم قال إن العبد إذا نزر ثمنه وخفت مؤنته تبرك به مولاه والتحف عليه هواه فإني لأوثر تحبيب هذا الغلام إليك أن أخفف نسمة عليك فزن مائتي درهم إن شئت واشكر لي ما جنيت فقدت المبلغ في الحال لما يتقوى إلى الرخص الحلال ولم يخطر لي ببال أن كل رخيص غال فما تحقق الصفقة وحق العرفه همت عينا الغلام ولا هوامل دمع الغمام ثم أقبل على صاحبه وقال

لحاك الله هل شيء يباع — لكيما تشبع الكرش الجياع

وهل في شرعة الانصاف انى أكلّف خطة لا تستطاع
وإني أبلى بروعٍ بعد روعٍ وتبلى حين تبلى الابرا ع
أما جرّبتني فخبرت مني نصائح لم يمازجها خداع
وكم أرصدتني شرك الصيد فعذت ولي حبائلي انساع
وذلت بي المصاعب فانقادت مطاوعة وكان بها امتناع
وأي كريهة لم أبل فيها وغنم لم يكن لي فيه باع
وما ابدت لي الايام حزما فيكشفه مقار مني القناع
ولم تعثر بحمد الله مني على عيب بكلتم او بدا
فاني مانع عندك بدعهد كما نبك من ترائبه الضاع
ولم تسمح قرونك بامتهاني وان أشرى كما يشرى المتاع
وهلا صنت عرضي عنه صونى حديثك يوم جدّ بي الوداع
وقلت المرء ليس يلام في هذا سكام ما يعار ولا يباع
فاما دون ذاكا لطرف يكري طباعك فوقها تلك الطباع
على اني سانشد عند بيعي اضاعوني واي فتى اضاعوا

قال فلما وعى الشيخ ابيانه وعقل منا غايته تنفس الصعدا وبكى حتى ابكى البعدا
ثم قال لي أجل هذا الغلام مجلّ ولدي ولا أبتز عن أفلاذ كبدي ولا اطلق والاحي وجنو
مصابحي لما درج عن عشه الى ان يشيع نعشي وقد ابنت ما نزل من لوعة البين
والمرء هبٌ لبّ فهل لك في تسلية قلبه وتبريد كربه بان نتعاهدي
على الاقالة فيه متى استقلت والا تستثقلي اذا ثقلت ففي الأثار المنقاه

المروية عن الثقات من أقال نادما بيعته أقاله الله عثرته قال المحرث بن همام وعرتني
وعد ابن يزيد انحيا وفي القلب أشيا فكتبت إلى الغلام البه وقبل ما بين عينيه وانشد
والدمع يرفض من جفنيه خفض فديتك النفس ما تلاقي من ريحها الوحيد للاشفاق
فانطول مدة الفراق ولا التنا اى كاس التلاقي
بحسن عون القادر الخلاق
ثم قال له استنفدعك من هوى المولى وشتم ذيله وولى فلبث الغلام في سفر وعويل ثم ابقطع
مبدى ميل فلما استفاق وكفكف دمعه المهراق قال ابدرعلم أعولت وعلام عولت
فلت اطن وان مولاك هو الذي ابكاك فقال الك لغى واد وانا في واد وكم بين مرتاد ومراد
ثم انشد
لم أبك والله على الفرح ولا على فوت نعيم ورح
وإنما مدمع اجفاني سفح على عمى لحظه حين طمح
وزطه حتى تعنى وافتضح وضع المنقوشة البيض الوضح
وبك اما ناحتك ها بيك الملح بانني حر وبيعي لم يصح
إذ كان في يوسف معنى قد وضح
فتمنت مقامك في مرآة المراعب ومعرض الملاعب فتصلت تصلت المحق
ونترامرطينة الرق فجلنا في مخاصمة اتصلت بالكمه وافضت إلى محاكمة فلما اوصحا
للقاضي الصورة وتلونا عليه السورة قال ان إثبات من أبدر فقال اعذر ومرجته كمن نشر
ومن نصرها فقصر وإن فيما شرحناه لدليلا على أن هذا الغلام قد تهتك فما ارعوين
ونصح لك فما رعويت فاسترد ابلهك واكتمه ولم نعسك ولا تلمه وحل ازمة
اعتلاقه والطمع في كنز فاقه فامرجة الاديم غير متعرض للتغريم وقد كان الوالحضرة

ابن قبيل أفول الشمس ۞ واعترف بأنه زرعه الذي أنشا ۞ وأن لا والد له سواه ۞
فقلت للقاضي أوتعرف أباه أعزّه الله ۞ فقال وهل يجهل أبو زيد الذي جرحه
جبار ۞ وعند كل قارن له أخبار ۞ فتحرّقت حينئذ وحوقلت ۞ وأُفقت ولكن حين فات
الوقت ۞ وأيقنت أن الشيخ كمثل بهر ۞ وبيت قصيده تر ۞ فنكست طرفي ما لقيت إلا ليت
إلا أعاتب شملتي ما بقيت ۞ ولم أزل أتأوّه لخسر صفقتي وافتضاحي بين رفقتي ۞ فقال لي
القاضي حين رأى امتعاضي ۞ وحرّ ارتماضي ۞ يا هذا ما دهمك ما لك وعظك ولا
أجرم البكر أنطقك ۞ فاتّعظ بما نابك ۞ وكاتم أصحابك ما أصابك ۞ وتدارك أبدًا ما
دهمك ۞ لتتقي الذكرى دراهمك ۞ وتحلق بحلو عرائك في قصر ۞ وتحلّت له العبر فاعتبر ۞
وودّ عنه لاتيًا ثوب الخجل والحزن ۞ ساحبًا ذيل الغبن والغبن ۞ ونويت مكاشفته
إلى زيد العمر ۞ ومصارمته يد الدهر ۞ فجعلت أتلكّأ عن دراه ۞ وأتجنّب أن أراه ۞ إلى
أن غشيني في طريق ضيق ۞ فحياني تحية شيق ۞ فما زدت على أن عبست وما نبست ۞ فقال
ما بالك شمخت بأنفك على إلفك ۞ فقلت أأنسيت أنك أختلت وختلت ۞ وفعلت فعلتك التي
فعلت ۞ فاضطرب متهاربًا ۞ وأنشد متلاعبا ۞

يا من نبا منه صدود موحش وتجهّم
وغدا يريش ملامه ويبرد دونه الأسهم
ويقول هل حرّ يباع كما يباع الأدهم
أقصر فإنّ أبا البنيّة غير ما تتوهّم
قد باع قبل الأسباط قبل يوسف وهم هم
هذا وأقسم بالنبي يبرء إليه المتهم

والطائف

والطائف وهم شعث النواصي شهم ۞
ما ثمّة آل الموقف الجري وعندي درهم ۞
فاعذر أخاك وكفّ عنه ملامه مراد يفهم ۞

ثم قال أما معذرتي فقد لاحت ۞ وأما
درأتك فقد طاحت ۞ فإن كان اقشعرّ اثر مني ۞ وازورارك عني لفرط شفقتك
على غير نعقتك ۞ فلست ممن يلسع مرتين ۞ ويوطئ على جمرتين ۞ وإن كنت طويت كشحك ۞
وأطعت شحّك ۞ لتستنقذ ما علق بأشراكي ۞ فلتبك على عقلك البواكي ۞ قال
الحارث بن همام فاضطرّني بلفظه الخالب ۞ وسحره الغالب ۞ إلى أن عدت له صفيًّا ۞
وبه حفيًّا ۞ ونبذت فعلته ظهريًّا ۞ وإن كانت شيئًا فريًّا ۞

المقامة الخامسة والثلاثون

حكى الحارث بن همام قال عرّ لي في تطوافي ۞
نشيرًا على نادٍ يستوقف المجتاز ۞ ولو كان على أوفاز ۞ فلم أستطع
تعدّيه ۞ ولا خطت قدمي في تخطّيه ۞ فعجت إليه لأستشف جوهر وأطّلع
كيف ثمر مزهره ۞ فإذا أهله أزواد ۞ والقائح إليهم شفاه ۞ وبينهم في
فكاهة أطرف من الأعاريب ۞ وأطيب من جلب الغنا فيك إذ احتف بنادو
طمرين ۞ فكاد يناهز الغريبين ۞ فحيا بلسان طليق ۞ وأبان إبانة منطيق ۞
ثم اجتبى حبوة المستميح ۞ وقال اجعلنا اللهم من المهتدين ۞ فازدراه القوم لطمرية ۞
ونسوا أن المرء بأصغرية ۞ وأخذوا يتبلغون فضل الخطاب ۞ ويختلفون عوكه من الأحطاب ۞
وهو لا يقبض بكلمة ۞ ولا يبين عن حجة ۞ إلى أن سفر الخصم ۞ وحرّ شايلهم واحتمم ۞
فحين استخرج دفائنهم ۞ واستثمل كنائنهم ۞ قال يا قوم لو علمتم أن وراء الوكام ۞

صفعوم المدام لما احتقر ذا أخلاق وقلتهم ثم تجرّم بما يبيع الأدب والنكت النخب ما جلب بدائع العجب وهنوجب أن نكتب به وبالذهب فلما خلب كل خلب وقلب إليه كل قلب تجلجل للرحل وتأهب للرهب فعلقت الكم بذيله وعاقت مسرب سيله وقلت له قد أريتنا وشم قد حل فخبّرنا عن قبضك ومحلك فقمت مصوّب وانحم ثم أعول حتى رجم قال الراوي فلما رأيت شوب أبي زيد وزيد وأسلوبه المألوف وصوبه تأملت الشيخ لأثبت معرفته نجباه وتسهولة رباه فإذا هو إياه فكتمت سري كما كتم الداء الدخيل وسترت مكره وإن لم يكن يخيل حتى إذا ارعى عوالي وقد عرى عشوري على حالة رثني بعين مضحاك ثم طفق ينشد بلسان متباك

أستغفر الله وأعنو لي ... من فرطات أثقلت ظهريه
يا قوم كم من عاتق عانس ... ممدوحة الأوصاف للأبنية
قتلتها لا التقى وارثا ... يطلب مني قودا أو دية
وكلما استدنيت بنتي بها ... أحللت بالذنب للأقضية
لم تزل نفسي في عيها ... وقلبه الأبكار مستشرية
حتى بها التست والبابدا ... في مفرق عن ذلكم المعصية
لم أرق مذ شاب قوي دنا ... من عانق يوما ولا انضية
وها أنا الأعلم ما يرى ... مني وجرحي المكدية
أرتب بكرا طالعنتها ... وجهتها حتى عن الأقوية

وهي على التعنيس محظوبة ... لخطبة العانسة المعيبة
وليس يكفيني لتجهيزها ... على الرضا إلا لدون الأمنية
واليد لا تقوى على درهم ... والأرض قفر والسما مصحية
فهل معين لي على نقلها ... مصحوبة بالقبنة المليبة
فيغسل الهم بصابونه ... والعلت من أفكاره المضنية
وتعنى من التمثال الذي ... تضوع رياه مع الأدعية

فلم يبق في الجماعة الأمن لث له كفه وانباع اليه عرفه فلما نجح بغيته وكلت ما بنته احدثني عليهم بنصائح وليتتم غرسا قاسح فتبعته لأتعرف زبيبة خدره ومن قتل من جمد تأثير أمره فكان وتشلغا في مثل له فرامي فازدلف مني وقال أفقه عني

قتل مثلي بامتزاج مزج المدام ... ليس تلي بلهذم أو حسام
والبكر عنيت في الكرم بنت الكرم لا ... إلا البكر من بنات الكرام
ولتجهيزها الى الكاس والطاس ... فيا بي الذي ترى وسقامي
فتفهّم ما قلته وتحكم في التعامي إن شئت أو في الملام

ثم قال أنا محرّبك وأنت زعيدبك ويمينا نون بعيد ثم ودّعني وانطلق وزوّدني نظرة من مزني علق

المقامة السادسة والثلاثون

اخبر الحرث بن همام قال أنخت بالملطية مطية البين وحقيبتي ملأى من العين فجعلت هجيري أي هنّد ألقيت بها عصاي أن أتورد موارد المرح وأتصيد شوارد الملح فلم تفتني بها منتظر ولا مستمع ولا خلى مني ملعب والمرتع حتى إذا لم يبق لي فيها مأرب ولا في الثواء بها مرغب عمدت لإنفاق الذهب في ابتياع الأهب فلما أكملت الأعداد ولم يبق الطعن بها أو كاد رأيت تسعة رهط

قد شبّوا وافتنّوا وأتوا ما زيّنوا وحاشيتهم قبل الإحاطة وفكاهتهم حلوة الألفاظ فنحوتهم
طلبا لمنادمتهم لمداناتهم وشغفا بممازجتهم لا بزجاجتهم فلما انتظمت عاشرهم وأصبحت
معاشرهم ألفيتهم أبناء علات وندائف فلوات إلا أنّ لحمة الأدب قد ألّفت شملهم
ألفة النسب وساوت بينهم في الرتب حتى أحوا مثل كواكب الجوزاء وكالحلقة المنا
الأجزاء فابتهجت للإهتداء إليهم وأحمدت الطالع الذي أطلعني عليهم وطفقت أقبس بقدحهم
مع قداحهم وأستشفي بزناجهم لا براحهم حتى إذ تناشجون المفاوضة إلى التحاجي بالمقايضة
كقولك إذا عبث بالكرامات ما مثل لنوم فات فإنشاء التحلواتها والقمر وتجني
الشوك والثمر وبينما نحن ننشر العشيب والرث وننثل السمين والغث طلع علينا سائح
قد دهمه خبره وأسره ولفي خبره وشره تمثل مثول مستمع وينظر وينقطع ما
يُنثر إلى أن ينضب الأكياس وتمحض الياس فلما رأى إجفال القرائح وإكداء
الماتح والمائح حدا ولا ناقة له وقال سالمكم سوء الكره ولا أمتع بهما همه
فاعتلقنا به اعتلاق الحرباء بالأعواد وضربنا دون وجهه بالأسداد وقلنا له
إن ذوات الشوى أن تخاض وإلا فالقصاص القصاص فلا تطمع في أن تخدع
وتنهز الفتوى وتخرج فلوى عنانه راجعا ثم جثم مكانه راضعا وقال أما إذا استفتوني بالبحث
فما أحكم كلمتي في الحرث اعلموا يا ذوي الشمائل الأدبية والشمول الذهبية أن وضع الأحاجي
الامتحان الألمعية واستخراج الخبيئة الخفية وشرطها أن تكون ذات مماثلة حقيقية وألفاظ
معنوية ولطيفة أدبية فمتى نافت هذا النمط ضاهت السقط ولم تدخل في السفط
ولم أركم حافظتم على هذه الحدود ولا ميزتم بين المقبول والمردود فقلنا له صدقت فكل لنا من لبابك
وأفض علينا من عبابك فقال أفعل لئلا يرتاب المطلوب وتطمئن إلى الظنون ثم قال يا طورة

القوم وقال

يا من سما بذكائه في الفضل وابن الزهاد … ماذا يماثل قولي جوع أمد بزاد

يا ذا الذي فاق فضلا ولم يدنّس بشين … ما مثل قول المحاجي ظهر أصابته عين

يا من نتائج فكره مثل العقود الكابنة … ما مثل قولك للذي حاجيته صادق حانه

أبا مستنبط الغامض من لغز وإضمار … ألا اكشف لي ما مثل تناول ألف دينار

يا أيها الألمعي الذي أخو الذكاء المنجلي … ما مثل أهمل حلبة بيت هدبت وعجل

يا من تقصر عن مداه خطى مجاريه وتضعف … ما مثل قولك للذي أضحى يحاجيك اكنف الكفف

يا من له فطنة تجلت وتبرير الكاحلت … بين بها لمن ذا بيان ما مثل قولي الشفو أفلت

يا من حدا أبو فضله طول الأزهار غضه … ما مثل قولك للمحاجي دي اللحى لما أحار أفضه

يا من يشار إليه في العلم الزكي وفي الرأي العد … أوضح لنا ما مثل قولك للمحاجي ذي جماعه

قال الراوي فلما انتهى إلى هنا منتهى قوله

يا من له النكت التي تشجي الخصوم بها وتبكت … أنت الخبير فقل لنا ما مثل قولي خالي كت

ثم قال قد أمهلتكم وأمهلتكم وإن شئت أن أعللكم عللتكم فأجابنا لهب العلل إلى نشفا العلل فقال أنشد كم

بيتا ثرعلي نهديه ولا ملن شمته ثم كرّ على الأوائل وقال

يا من إذا أعمل المعمى حلّه أفكاره الدقيقه … إن قال يوما لك المحاجي خذ بالك ما مثله حقيقه

يا من بدا بيانه عن فضله مجلّيا … ماذا مثال قولهم جار فخش جليا

ثم أومى إلى أنيا بلحظه وأنشد

يا من غدا في فضله وذكائه كالأصمعي … ما مثل قولك حاجاك أنفق تقسمع

يا من إذا ما عويض حاجه أنار ظلامه … ماذا يماثل قولي تنفش ريح مدامه

يا من أتتك منه عذان يروي أو يشكى … ما مثل قولك للذي أضحى يحاجي عظ هلكى

يا أخا الفِطنة التي بانَ فيها كمالُهُ ... سارَ بالليلِ مُدّةً أيُّ شيءٍ مِثالُهُ

يا مَن تحلّى بعلمٍ أقامَ في الناسِ سوقَهُ ... لكَ البيانُ فبيّنْ ما مِثلُ أخبِ فُروقِهِ بقلاعِ

يا مَن سَما ذِروةً في الفضلِ وافتكّ ذُروَه ... ما مِثلُ قولِكَ أعطِ ابنَ التقالبا بلوحِ

يا مَن حوى حُسنَ الدرايةِ والبيانَ بعزّ شأنٍ ... ما مِثلُ قولِكَ للمُحاجي ذي الذكاءِ الألمعيّ الثُّورُ مِلكي اللآلي

يا مَن سَما بثقوبِ فِطنتهِ في السِّلافِ ونور كوكبِهِ ... ماذا مِثالُ صفيرٍ جَحفلةٍ بنتُه تبيانٌ تُسمّيه

قال الحارث بن همّام فلما أطرَبَنا بما سمعناه وطالبناه بكشفِ معناه قلنا له لسنا من خيلِ هذا الميدان ولا لنا بحلِّ هذه العُقَدِ يدان فإن أبيتَ منّيتَ وإن كتمتَ غمّيتَ فظلّ يشاوِرُ نفسَه ويُقلّبُ قِدْحَيه حتى هانَ بذلُ المأمولِ عليه فأقبلَ حينئذٍ على الجماعةِ وقال ما علّمتُكم ما لم تكونوا تعلمون ولا ظننتُم أنكم تعقلون فأوكوا عليه الأوعيةَ وزوّدوا به الأنديةَ ثم أخذ في تفسيرِ صِحاحِ الأذانِ واستفرغ معه الأذهانَ حتى أصبتِ الأفهامُ أنور من الشمس والآكامُ كأن لم تغنَ بالأمس ولما همّ بالمغرِ شلعِ المُغرِ تنفّسَ كما تنفّسَ الثّكول ثم أنشأ يقول

أُشعِبَ لي شَعبٌ وبه رَبعي رَحِبُ
غيرَ أنّي نُزوحٌ سهامُ القلبِ ضُبُّ
هي أرضي لكنِ الحقُّ الذي منه المَهَبُّ
وإلى روضتِها العَنّاءِ دونَ الروضِ أصبو
ما حلا لي بعدَها حُلوٌ ولا أعذَبَ عَذبُ

قال الراوي فقلتُ لأصحابي هذا أبو زيدٍ السَّروجيّ الذي أدنى مُلَحِ الأحاجي وأحدثُ أصفُ لهم حُسنَ تَوشِيَتِه واتّساقَ الكلامِ المُنَبّئِه ثم التفتُّ فإذا به قد طَمَرَ وتآمَرَ فعجِبنا بما صنع ولم ندرِ أينَ شكّعَ وصقع

تفسير الأحاجي الموعود هذه

أمّا جوعٌ أمدّ بزادٍ فتلهُ طوامير وأمّا ظهرٌ أصابته عينٌ فمثله هاديه وأمّا أهملَ حِليَه فمثله الغاشيه وأمّا الغفُ الغفُ فمثلهُ مهمه وأمّا الشفيق أفلتْ فمثله الأخطار وأمّا اختبار فضّه فمثله أبارقه لأنّ الرِّقةَ من أسماءِ الفضة ومن نطقِ بها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال في الرّقةِ ربعُ العُشر وأمّا دُسَّ جاعه فمثله طأفئه وأمّا خالي اسكتْ فمثله خالصه لأنك إذا ناديتَ مضافًا إلى نفسِك جازَ لك حذفُ الياءِ وإثباتُها ساكنةً ومتحرّكةً وقد حُذِف هاهنا خوفًا لئلّا كما جُرِّد في أصلِ الأحجيه وصه معنى اسكت وأمّا خُذْ مُلكَ فمثله هاتيك وأمّا حمارُ الوحشِ ومنه الخبرُ كلُّ الصيدِ في جوفِ الفرا وأمّا قولُه ألقِ تمعْ فمثله مستقم لأنّ الأمرَ مما تموتُ من ومضارعُ وقَمْ نَمْ وأمّا استنشِ ريحَ مُدامه فمثله زجزاج لأنّ الأمرَ من استنشاق الرائحة رُخْ وأمّا غطِّ هلكي فمثله ضنبو لأنّ البوَّ هو الهلكي وفي العراق ولكنهم قومًا بوزا وأمّا سارَ بالليلِ مُدّةً فمثله سراجين وأمّا أخبِ غروقَه فمثله مقلاع واللاعُ الجبان يقال فلانٌ هاعٌ لاعٌ إذا كان جبانًا جزوعًا وأمّا أعطِ ابنَ التقالبا بلوحٍ لبعيرٍ غروه فمثله أشكوت لأنّ الأوسَ العطا والأمرُ منه أُسْ والكوبُ الإبريقُ بغير عروة وأمّا الثورُ ملكي فمثله اللآلي لأنّ اللآلي على وزن الفنا ثورُ الوحش وأمّا صفيرُ جحفله فمثله مكاشفه لأنّ المكاءَ الصفير قال الله تعالى وما كان صلاتُهم عند البيت إلّا مكاءً وتصديه والأصلُ في المكاءِ المدّ ولكنه قصر في هذه الأحجيه كما حذف همزةَ القرا في أحجيته على قول من همزه ولا الأمرين قصر الممدود وحذف الهمز جائز

المقامة السابعة والثلاثون

حكى الحارثُ بن همّام قال أصعدتُ إلى صعدة وأنا ذو شطاطٍ يحكي الصعدة واستعدادٍ يُبذلُ بناتِ صعدة فلما رأيتُ نضرتَها ورعيتُ خضرتَها سألتُ نحاريرَ الرواةِ عمّن يحوي بها التسراةَ ومعادنَ الخيرات لأتّخذه جذوةً في الظلمات وتجده في الظلامات فنُعِتَ لي بها قاضٍ رحيبُ الباعِ خصيبُ الرباعِ نميُّ النسبِ والطباعِ فلم أزل أتعرّفُ إليه بالإلمام وأتّفق

عليه بالإلحاح حتى صرتُ صِنْوَ أصفيائه وسلمانَ بيته ولبثتُ مع اشتيار شُهده
واشتياق رَنْده أشهد مشاجرة الخصوم وأشفق من المعصوم منهم والموصوم فبينما
القاضي جالسٌ للإسجال في يوم الحفل والاحتفال إذ دخل شيخٌ بالي الرياش
بادي الارتعاش فشتّت الحفل بشقّ نقّاد ثم زعم أنّ له خصماً عسِر الانقياد
فلم يلبث إلا كنشطة آثرٍ أو وحي إشارة حتى أحضر غلاماً كأنه ضِرغام فقال الشيخ
أيّد الله القاضي وعصمه من التغاضي إنّ ابني هذا كالقلم الرديّ والسيف
الصديّ يجهل أوصاف الإنصاف ويتّبع أخلاق الخلاف إن أقدمتُ
أحجم وإذا أعربتُ أعجم وإن أدنيتُ أجمح ومتى شوّقتُ زهد مع أني كفلته
مذ دبّ إلى أن شبّ وكنتُ له ألطف من رأمٍ وربّ فأكبر القاضي ما شكا إليه
وأطرق مرحاً لديه ثم قال أشهد أنّ العقوق أحد الثكلين ولرُبّ عقوقٍ أقذى للعين
فقال الغلام وقد أمضّه هذا الكلام والذي نصب القضاة للعدل وملّكهم أعنّة
الفصل والفضل إنه ما دعا قطّ إلا أجبتُ ولا ابتغى إلا أوجبتُ ولا أوعز إلا
وأصرّ منتُ بيد أنه يبغي بيض الأنوق ويطلب الطيران من النوق فقال له القاضي
وكم أعنتّك وامتحن طاعتك قال إنه مذ صفِر من المال ومُني بالإمحال يسومني
أن أتلظّى بالسؤال واستمطر سُحب النوال ليفيض نشبه الذي غاص ويتجبّر
رحاله ما انهاص وقد كان حين أخذني بالدرس وعلّمني أدب النفس أشرب قلبي أنّ
الحرص متعبة والطمع معيبة والشره منقصة والمسألة ملامة ثم أنشدني
وبلّغني فيه ونخبت فوائده

إرضَ بأدنى العيش واشكر عليه ... شكرَ من القُلُّ كثيرٌ لديه
وجانب الحرص الذي لم يزل ... يحطّ قدر المترقّي إليه

٦٦

وهام عن عِرضك واتّقه ... كما تحامي الليث عن لبدته
واصبر على ما نابَ من فاقةٍ ... صبرَ أولي العزم وأغمض عليه
ولا تُرِقْ ماءَ المحيّا ولو ... خوّلك المسؤولُ ما في يديه
فالحرّ من إن قذيتْ عينُه ... أخفى قذاها عن ناظريه
ومن إذا أخلق ديباجُه ... لم يرَ أن يُخلِق ديباجتيه

قال فحصّل الشيخ وانفقهر وأبدى أعلى أنّه وهرّ وقال ضه يا عقوقُ يا من هو الشجى والشرق
ويلك أتعلّم أنك أتلك البضاع وضرّك الإرضاع لقد تحككتَ العقرب بالأفعى واستنّت الفصال
حتى القرعى ثم كأنه ندم على ما فرط من فيه وحلّ به الملامة على تلافيه فرنا إليه بعين
عاطف وخفض له جناح ملاطف وقال ويلك يا بنيّ إنما أمرت بالقناعة ونُهيت
عن الضراعة هم أرباب البضاعة وأُولو المكسبة بالصناعة فأمّا ذوو الضرورات فقد
نُبيح عن المحظورات وهبك جهلت هذا التأويل ولم يبلغك ما قيل أليس الذي عارض أباه فيما
قال وما حاباه

لا تقعدنّ على ضرٍّ ومسغبةٍ ... لكي يقال عزيز النفس مصطبر
وانظر بعينك هل أرضٌ معطّلةٌ ... من النبات كأرضٍ حفّها الشجر
فعدّ عمّا يشير الأغبياء به ... فأيّ فضلٍ لعودٍ ما له ثمر
وارحل ركابك عن ربعٍ ظمئت به ... إلى الجناب الذي يهمي به المطر
واستنزل الريَّ من درّ السحاب فإن ... بُلّت يداك به فليهنك الظفر
وإن رُددت فما في الردّ منقصةٌ ... عليك قد رُدّ موسى قبلُ والخضر

فلما رأى القاضي تنافي قول الغويّ وفعله وتحلّيه بما ليس من أهله نظر إليه بعين غضبى وقال
أتميمياً مرةً وقيسياً أخرى أقلّ بنقض ما يقول ويتلوّن كما تتلوّن الغول فقال الغلام والذي جعلك
مفتاحاً للحق وفتّاحاً بين الخلق لقد أنشبتَ مذ أسيتَ وصدقتَ مذ نُهيتُ مه ضُدِبتَ
على أنّه أين الفتاة الفتيّ والعطاء التنيّ وهل بقي من يتبرّع باللُّهى وإذا استُطعم يقول ها
فقال له القاضي مه فما كلّ الحواطي سهم صائب وما كلّ برقٍ خالبٌ غيّر الروق

أصلح

إذا انتشيت ولا تستهد إلا بما علمت فلما تبين للشيخ أن القاضي قد غضب للكلام وأعظم تبجيل جميع الأنام علم أنه سيستنصر كلمه ويظهر ألوته فألقى أن نصب شكه وسوى على العرق سمكته وأنشأ يقول

يا أيها القاضي الذي علمه وحلمه أرجح من رضوى

لا تدعي هذا على جاهل أن ليس في الدنيا أخو جدوى

وما درى أن من عشيرة عطاؤهم كالمن والسلوى

لكن بما أنشئه سحرا ما افترى من كذب الدعوى

والله جذلان أبي بما أوليته عمدا وعن عدوى

قال فهش القاضي لقوله وأجزل له من طوله ثم لفت وجهه إلى الغلام وقد نصل له أسهم الملام وقال له أرأيت بطل زعمك وخطاءك فلا تعل بعدها بذمّ ولا تتخذ عودا أقبل عجم وإياك وتأبيك عن مطاوعة أبيك وإنك إن عدت تعقه حاق بك متى ما استحقه فسقط الغني في يده ولاذ بحقو والده ثم نهض نهض وتبعه الشيخ ينشد

من ضامه أو ضاره دهره فليقصد القاضي في صعده

سماحه أزرى بمن قبله وعدله أتعب من بعده

قال القاضي فحرت بين تعريف الشيخ وتنكيره إلى أن أغري ورق لمسيره فهاجت النفس عند ذلك اتباعه وكواني رباعه لعلي أحمر على أسراره وأعرف سحن نارة فنهدت العلق وانطلقت حين انطلق ولم يزل يخطو واعقب ويبتعد وأقترب إلى أن رأى الخصاص وحق التعارف على الخلصاص فأبدى الاهتشاش ونزع الارتعاش وقال من كان ذا أخاه فلا عاش تعرفت حسبه أنه السروجي لا محالة ولا حول حاله وسرعت إليه لأصافحه وأستعرف سانحه وبارحه فقال دونك أن حيلة وتركي ومن قلم يعد الفتى إن افتتم ونحاص تغرب وقد استغنت عينها وكيف أين هما

(علام حلبتي لا الفيتما غنيتما من الطرد الاتفاقات وأسعدا ه)

٦٧

المقامة الثامنة والثلاثون

حكى الحارث بن همام قال حبب إلي مذ سعت قدمي ونفث قلمي أن أتخذ الأدب شرعة والاقتباس منه نجعة فكنت أنقب عن أخباره وخزنة أسراره فإذا ألفيت منهم بغية الملتمس وجذوة المقتبس شددت يدي بغرزه واستنزلت منه زكاة كنزه على أني لم ألق كالسروجي في غزارة النجب ووضع الهناء مواضع النقب إلا أنه كان أسير من المثل وأسرع من القمر في النقل وكنت لهوى ملاقاته واستحسان مقاماته أرغب في الاغتراب وأستعذب السفر الذي هو قطعة من العذاب فلما تطوحت إلى مرو ولا غرو تبركت بملقاه زجر الطير والفأل الذي هو من زين الخير فلم أزل أنشده في المحافل وعند تلاقي القوافل فلا أجد عنه مخبرا ولا أرى له أثرا ولا عثيرا حتى غلب اليأس الطمع وانزوى التأميل والقمع فإني لدى ذات يوم في حضرة والي مرو وكان ممن جمع الفضل والثروة إذ طلع أبو زيد في حلق مملاق وخلق ملاق فحيا الوالي تحية المحتاج إذا لقي رب التاج ثم قال له اعلم وقيت الذم وكفيت الهم أن من علقت به للآمال أعلاق أغلقت به للآمال ومن زكت له الرحاب رفعت إليه الحاجات وإن السعيد من إذا قدر وواتاه القدر أدى زكاة النعم كما يؤدي زكاة النعم والتزم لأهل الحرم ما يلتزم للأهل والحشم وقد أصبحت بحمد الله عميد مصرك وعماد عصرك تزجى الركائب إلى حرمك وترجى الرغائب من كرمك وتنزل المطالب بساحتك وتستنزل الراحة من راحتك وكان فضل الله عليك عظيما ثم إني شيخ ترب بعد الإتراب وعدم الإعشاب حين شاب فقصدتك من محلة نازحة وحالة رازحة آمل من بحرك دفعه ومن جاهك رفعه والتأميل أفضل وسائل السائل

وما أبلُ النائلَ فأوجِبْ لي ما يجبُ عليك وأحسِنْ كما أحسنَ اللهُ إليك وإياك أن تلويَ عِذارك عمّن أزارك وأمَّ دارك أو تَنقُضَ راحك عمّن امتاحك وأمّلَ سماحك والله ما مجُدَ من جمد ولا رشَدَ من حشد بل اللبيبُ من إذا وجد جاد وإن بدأ بعائدةٍ عاد والكريمُ من إذا استُوهِبَ الذهبَ لم يهَبْ أن يهَبْ ثم أمسك يرقُبُ أُكُلَ غرسِه ويرصُدُ مطيّةَ نفسِه وأحبّ الوالي أن يعلمَ هل نطفتُه ثمَد أم لقريحتِه مدَد فأطرقَ يُروّي في استنباطِ ردّه واستشفافِ فِرِنْدِه والتبسَ على أبي زيد سرُّ صمتِه وسببُ إرتاجِ صِلَتِه فتنمّرَ غضَبا وأنشد مقتضِبا

لا تحقِرَنّ أبيتَ اللعنَ ذا أدبٍ ... لأن بدا خلَقَ السربالِ سُبروتا
ولا تُضِعْ لأخي التأميلِ حرمتَه ... أكانَ ذا لَسَنٍ أم كانَ سِكّيتا
وانْحَ بعُرفِكَ من وافاكَ مختبِطًا ... وانعَشْ بغوثِكَ من ألفيتَ منكوتا
فخيرُ مالِ الفتى مالٌ أشادَ له ... ذِكرًا تناقَلَه الركبانُ أو صِيتا
وما على المشتري حمدًا بموهبةٍ ... غَبْنٌ ولو كانَ ما أعطاه ياقوتا
لولا المروءةُ ضاقَ العذرُ عن فطِنٍ ... إذا اشرأبَّ إلى ما جاوزَ القوتا
لكنّه لابتناءِ المجدِ جدَّ ومن ... حبِّ السماحِ ثنى نحوَ الغِنى ليتا
وما تنشّقَ نشرَ المسكِ ذو كرمٍ ... إلا وأزرى بنشرِ المسكِ مفتوتا
والحمدُ والبخلُ لم يُقضَ اجتماعُهما ... حتى لقد خِيلَ ذا ضبًّا وذا حوتا
والشحُّ في الناسِ محبوبٌ خلائقُه ... والحاملُ الكَلَّ ما ينفكُّ ممقوتا
وللشحيحِ على أموالِه عِلَلٌ ... يوسِعْنَه أبدًا ذمًّا وتبكيتا
فجُدْ بما جمعَتْ كفّاكَ من نشَبٍ ... حتى يُرى مجتدي جدواكَ مبهوتا
وخُذْ نصيبَكَ منه قبلَ رائعةٍ ... من الزمانِ تُريكَ العودَ منحوتا
فالدهرُ أنكدُ من أن تستمرَّ به ... حالٌ تكرّهتَ تلكَ الحالَ أم شِيتا

فقال له الوالي تالله لقد أحسنتَ وأيُّ والدٍ للرجلِ أنت فنظرَ إليه عن عُرُضٍ ثم أنشدَ وهو مُغضٍ

لا تسألِ المرءَ مَن أبوه ورُزْ ... خِلالَه ثم صِلْه أو فاصرِمِ
فما يَشينُ السُّلافَ حينَ حلا ... مذاقُها كونُها ابنةَ الحِصرِمِ

قال فقرّبه القاضي لبيانه الفائق حتى أحلّه مقعدَ الخاتن ثم فرضَ له من سيوبِ نيلِه ما آذنَ بطولِ ذيلِه وقِصَرِ ليلِه فنهضَ عنه بذيلٍ ملآن وقلبٍ جذلان وتبعتُه حاذيًا حذوَه وقافيًا خطوَه حتى إذا خرجَ من بابه وفصلَ عن غابه قلتُ له هُنّئتَ بما أوتيتَ ومُلّيتَ ما أوليتَ فأسفرَ وجهُه وتلالا ووالى شكرَ الله تعالى ثم خطرَ اختيالا وأنشدَ ارتجالا

من يكن نالَ بالحماقةِ حظًّا ... أو سما قدرُه لطيبِ الأصولِ
فبفضلي انتفعتُ لا بفضولي ... وبقولي ارتفعتُ لا بقبولي

ثم قال تعسًا لمن جدبَ الأدب وطوبى لمن جدَّ فيه ودأب ثم ودّعني وذهب وأودعَ قلبي اللهب

المقامة التاسعة والثلاثون

حدّث الحارث بن همّام قال لهِجتُ مذ اخضرَّ إزاري وبقلَ عِذاري بأن أجوبَ البراري على ظهورِ المهاري أجِدُّ طورًا وأسلكُ تارةً غورًا حتى قلّبتُ المعالمَ والمجاهل وبلوتُ المنازلَ والمناهل وأدميتُ المناسكَ والمناسم وأنضيتُ السوابقَ والرواسم فلما مللتُ الإصحار وقد سنحَ لي أرَبٌ بصُحار ملتُ إلى اختيارِ التيّار واختيارِ الفلكِ السيّار فنقلتُ إليه أثاثي وذَوِيّ واستصحبتُ زادي ومِزوَدي ثم ركبتُ فيه ركوبَ حاذرٍ ناذرٍ عاذلِ النفسِ وعاذر فلما شرعنا في القلعة ورفعنا الشراعَ للسرعة سمعنا من شاطئ المرسى حين دجى الليلُ وأغسى هاتفًا يقول يا أهلَ ذا الفلكِ القويم المزجّى في البحرِ العظيم بتقديرِ العزيزِ العليم هل أدلّكم على تجارةٍ تنجيكم من عذابٍ أليم فقلنا له أفِدنا أيها الدليل وأرشِدنا كما يُرشدُ الخليلَ الخليل فقال أتستصحبون ابنَ سبيل زادُه في زبيل وظلُّه غيرُ ثقيل

وما يبغي سوى مقيل فأجمعنا على الجنوح إليه وألّا نبخل بالماعون عليه فلما استوى على الفلك
قال أعوذ بمالك الملك من مسالك الهلك ثم قال إنا روينا في الأخبار المنقولة عن الأحبار
أن الله تعالى ما أخذ على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا وإن معي لعوذة عن
الأنبيا مأخوذه وعندي لكم نصيحة تراهينها صحيحه وما وسعني الكتمان ولا من خيمي
الحرمان فتدبروا القول وتفهموا واعملوا بما تعلمون وعلّموا ثم صاح صيحة المباهي
وقال أتدرون ما هي هي والله حرز السفر عند مسيرهم في البحر والجنة من الغم إذا جاش
موج اليم وبها استعصم نوح يوم الطوفان ونجا من معه من الحيوان على ما صدعت به آي القرآن
ثم قرأ بعد أساطير تلاها وزخارف جلاها وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها
ثم تنفس تنفس المغرمين او عباد الله المكرمين وقال أما انا فقد قمت فيكم مقام المبلّغين
ونصحت لكم نصح المبالغين وسلكت بكم محجة الراشدين فاشهد اللهم وانت خير الشاهدين
قال الحارث بن همام فأعجبنا بيانه الباهر الطلاوة وعجّت له أصواتنا بالتلاوة وآنس قلبي من
جرسه معرفة عين شمسه فقلت له بالذي سخّر البحر اللجي ألست السروجي فقال لي
بلى وهل يخفى ابن جلا فحمدت حينئذ السفر وسفرت عن نفسي إذ سفر ولم نزل نسير
والبحر رهو والجو صحو والعيش صفو والزمان لهو وأنا أجد بلقيانه وجد المثري
بعقيانه وأفرح بمناجاته فرح الغريق بمنجاته إلى أن عصفت الجنوب وعسفت
الخنوب ونسي السفر ما كان وجاءهم الموج من كل مكان فلجأنا لهذا الحادث الثائر
إلى إحدى الجزائر لنريح ونستريح ريثما تلين الريح وتمادى اعتياص المسير حتى نفد الزاد
غير اليسير فقال لي أبو زيد إنه لن يجتني العود بالقعود فهل لك في استثارة السعود
بالصعود فقلت له إني لك لأتبع من ظلك وأطوع من نعلك فنهدنا إلى الجزيرة على
ضعف المريره لنركض في امتراء المير وكلانا لا يملك فتيلا ولا يهتدي فيه سبيلا

فأقبلنا نجوس خلالها ونستقري ظلالها حتى أفضينا إلى قصر مشيد له باب من حديد ودونه زمر
من عبيد فناشيناهم لنتخذهم سلّما إلى الارتقا وأرشية للاستقا فألفينا كلاً منهم في شغل كبير
وكرب أسير فقلنا أيتها الغلمه لم هذه الغمة فلم يحيروا الجوابا ولا فاهوا ببيضاء ولا سوداء
فلما رأينا نارهم نار الحباحب وخبرهم كسراب السباسب قلنا شاهت الوجوه وقبح
اللكع ومن يرجوه فابتدر خادم قد علته كبرة وعرته عبرة وقال يا قوم لا توسعونا
سبّا ولا توجعونا عتبا فإنا لفي حزن شامل وشغل عن الحديث شاغل فقال
له ابو زيد نفّس خناق البث وانفث إن قدرت على النفث فإنك ستجد مني عرّافا
كافيا ووصّافا شافيا فقال اعلم أن رب هذا القصر هو قطب هذه البقعة وشاه هذه
الرقعه إلا أنه لم يخل من كمد لخلوه من ولد ولم يزل يستكرم المغارس ويتخير من العرائس
النفائس إلى أن بشر بحمل عقيله وآذنت رقلته بفسيله فنذرت له النذور وحسبت
للايام والشهور ولما جاء ابان النتاج وصيغ الطوق والتاج عسر مخاض الوضع حتى خيف
على الأصل والفرع فما فينا من يعرف قرارا ولا يطعم النوم إلا غرارا ثم أجهش بالبكاء وأعول
وردد الاسترجاع وطوّل فقال له ابو زيد اسكن يا هذا واستبشر وانشر بالفرج وبشّر
فعندي عزيمة الطلق التي انتشر سمعها في الخلق فتبادرت الغلمه إلى مولاهم مبشّرين
بانكشاف بلواهم فلم يكن إلا كلا ولا حتى هلم بنا إليه فلما دخلنا عليه ومثلنا بين يديه
قال لأبي زيد ليهنك منالك إن صدق مقالك ولم يفل فالك فاستحضر قلما مبريا وزبدا طريا
وزعفرانا قد ديف في ما ورد نظيف فما إن رجع لتنفس حتى أحضر ما التمس فسجد ابو زيد
وعفّر وسبّح واستغفر ثم أخذ القلم واخترف وكتب على الزبد بالزعفران

أيها الجنين إني نصح لك والنصح من شروط الدين
انت مستعصم بكن كنين وقرار من الشكوك مكين

ما ترى فيه ما يروقك من إلف مداجٍ ولا عدوٍّ مباين
فمتى ما برمت منه تحوّلت الى منزل الاذى والهون
وترى لك الشقا الذي تلتقي فيه لدى مع هون
فاندم عيشك للرغيب وحاذر أن تبيع المحقوق بالمظنون
واحترس من مخادع لك يرقيك ليلقيك في العذاب المهين
ولعمري لقد نصحت ولكن كم نصيح مشبّهٍ بظنين

ثم انه طبن المكتوب على غفلة ونقل عليه ما به نقله وشدّ الزبل في خرقة حرير بعد ما ضمّخها بالعبير وأمر بتعليقها على فخذ الماخض وأن لا تعلق بها يد حائض فلم يك الا كرو ناشز او فواق حالب حتى اندلق شخص الولد بخيص الزبد بقدرة الواحد الصمد فامتلأ القصر حبورا واستطير عميده وعبيده سرورا وحاطت الجماعة بأبي زيد تثني عليه وتقبّل يديه وتتبرك بمساس طمريه حتى خيّل الي أنه القرني أويس او الاسدي دبيس ثم انثال عليه مرجوّ المجازاة ووسائل الصلات ما قيّض له الغنى وبيّض وجه المنى ولم تخل بنانه الراحل منذ نتج السخل الى أن أعطى البحر الأمان وتسنّى الإتمام الى عمان وانكفى ابو زيد بالنحلة وتأهب للرحلة فلم يسمح الوالي بحركته بعد تجربة بركته بل أوعز بضمّه الى حوزته وأن تطلق يده في خزانته قال الحرث بن همام فلما رأيته قد مال الى حيث يكسب المال أنحيت عليه بالتعنيف وهجّنت له مفارقة المألف والأليف فقال لي دعني واسمع مني

لا تصبونّ الى وطن فيه تضام وتمتهن
وارحل عن الدار التي تعلي الوهاد على القنن
واهرب الى كنٍّ يقي ولو انّه حضنا حضن
وارأب بنفسك أن تقيم بحيث يغشاك الدرن
وجب البلاد فأيّها أرضاك فاختره وطن
ودع التذكّر للمعاهد والحنين الى السكن
واعلم بأنّ الحرّ في أوطانه يلقى الغبن
كالدرّ في الأصداف يستزرى ويبخس في الثمن

ثم قال حسبك ما استمعت وحبذا أنت لو اتّبعت فأوضحت له معاذيري وقلت له كن عذيري فعذر واعتذر وزوّد حتى لم يذر ثم شيّعني تشييع الأقارب الى أن ركبت في القارب فودّعته وأنا أشكو الفراق وأديمه وأودّ لو كان هلك الخصب وأمّه

المقامة الاربعون التبريزية

اخبر الحرث بن همام قال أزمعت التبريز من تبريز حين نبت بالذليل والعزيز وخلت من المجير والمجيز فبينا أنا في اعداد الأهبة وارتياد الصحبة لقيت بها ابا زيد السروجي ملتفّا بكساء ومحتفّا بنساء فسألته عن خطبه والى اين يسرب مع سربه فأومأ الى امرأة منهن باهرة السفور ظاهرة النفور وقال تزوّجت هذه لتؤنسني في الغربة وترحض عني قشف العزبة فلقيت منها عرق القربة فإنها تمطلني بحقي وتكلّفني فوق طوقي وأنا منها نضو وجى وحلف شجو وشجى وها نحن قد تساعينا الى الحاكم ليضرب على يد الظالم فإن انتظم بيننا الوفاق والا فالطلاق والانطلاق قال فملت الى أن أخبر لمن الغلب وكيف يكون المنقلب فجعلت شغلي دبر أذني وصحبتهما وإن كنت لا أغني فلما حضر القاضي وكان ممن يرى فضل الإمساك ويضنّ بنفاثة السواك جثا ابو زيد بين يديه وقال أيّد الله القاضي وأحسن اليه إنّ مطيّتي هذه أبيّة القياد كثيرة الشراد مع أني أطوع لها من بنانها وأحنى عليها من جنانها فقال لها القاضي ويحك أما علمت أنّ النشوز يغضب الربّ ويوجب الضرب فقالت إنه ممن يدور خلف

الدار ويأخذ الجار بالجار. فقال له القاضي تبًّا لك أتبذر في السباخ وتستفرخ حيث
لا أفراخ. اعزب عني لا نعم عوفك ولا أمن خوفك. فقال أبو زيد إنها ومرسل الرياح
لأكذب من سجاح. فقالت هو ومطوق الحمامة وجناح النعامة أكذب من أبي ثمامة حين مخرق
باليمامة. فزفر أبو زيد زفير الشواظ واستشاط استشاطة المغتاظ وقال لها ويلك
يا دفار يا فجار يا غصة البعل والجار أتعمدين في الخلوة لتعذيبي وتبدين في الحفلة تكذيبي
وقد علمت أني حين بنيت عليك وزففت إليك ألفيتك أقبح من قردة وأيبس
من قدة وأخشن من ليفة وأنتن من جيفة وأثقل من هيضة وأقذر من حيضة وأبرد
من قرة وأحمق من رجلة وأوسع من دجلة فسترت عوارك
ولم أبد عارك على أنك لو حبوت شيرين بجمالها وزبيدة بمالها وبلقيس بعرشها
وبوران بفرشها والزباء بملكها ورابعة بنسكها وخندف بفخرها والخنساء بشعرها
في صخرها لأنفت أن تكوني قعيدة رحلي وطروقة فحلي. قال
فتنمرت المرأة وتنمرت وحسرت عن ساعدها وشمرت وقالت له يا ألأم
من مادر وأشأم من قاشر وأجبن من صافر وأطيش من طامر أترميني بشنارك
وتفري عرضي بشفارك وأنت تعلم أنك أحقر من قلامة وأعيب من بغلة أبي دلامة وأفضح
من حبقة في حلقة وأحير من بقة في حقة وهبك الحسن في لفظه ووعظه
والشعبي في علمه وحفظه والخليل في عروضه ونحوه وجريرا في غزله وهجوه وقسا في
فصاحته وخطابته وعبد الحميد في بلاغته وكتابته وأبا عمرو في قراءته وإعرابه
وابن قريب في روايته عن أعرابه أتظنني أرضاك إماما لمحرابي وحساما لقرابي
لا والله ولا بوابا لبابي ولا عصا لجرابي. فقال لهما القاضي أراكما شنًّا
وطبقة وحدأة وبندقة فاترك أيها الرجل اللدد واسلك في مشيتك

الجدد

٧١

الجدد. وأما أنت فكفي عن سبابه وقري إذا أتى البيت من بابه. فقالت المرأة والله ما
أسجن عنه لساني إلا إذا كساني ولا أرفع له شراعي دون إشباعي. فحلف أبو زيد
بالمحرجات الثلث إنه لا يملك سوى أطمار الرثاث. فنظر القاضي في قصتهما بطرف الألمعي
وأفكر فكرة اللوذعي ثم أقبل عليهما بوجه قد قطبه ومجن قد قلبه وقال ألم يكفكما التساب
في مجلس الحكم والإقدام على هذا الجرم حتى ترقيتما من فحش المقاذعة إلى خبث المخادعة
وايم الله لقد أخطأت استكما الحفرة ولم يصب سهمكما الثغرة فإن أمير المؤمنين
أعز الله ببقائه الدين نصبني لأقضي بين الغرماء لا لأقضي دين الغرماء. وحق نعمته
التي أحلتني هذا المحل وملكتني العقد والحل لئن لم توضحا لي جلية خطبكما وخبيئة
ختلكما لأنددن بكما في الأمصار ولأجعلنكما عبرة لأولي الأبصار. فأطرق أبو زيد
إطراق الشجاع ثم قال له شجاع شجاع

أنا السروجي وهذي عرسي ... وليس كفء البدر غير الشمس
وما تنافى أنسها وأنسي ... ولا تناءى ديرها عن قسي
ولا عدت سقيا أرض غرسي ... لكننا منذ ليال خمس
نصبح في ثوب الطوى ونمسي ... لا نعرف المضغ ولا التحسي
حتى كأنا لخفوت النفس ... أشباح موتى نشروا من رمس
فحين عز الصبر والتأسي ... وشفنا الضر الأليم المس
قمنا لسعد الجد أو للنحس ... هذا المقام لاجتلاب فلس
والفقر يلجي الحر حين يرسي ... إلى التحلي بلباس اللبس
فهذه حالي وهذا درسي ... فانظر إلى يومي وسل عن أمسي
وأمر بجبري إن تشا أو حبسي ... فمن يديك صحتي ونكسي

فقال له القاضي ليثب أنسك ولتطب نفسك فقد حق لكما أن تغفر خطيئتكما وتوفر

عطيتك. فبادرت الزوجة عند ذلك واستطالت. وأشارت إلى الحاضرين وقالت

يا أهل تبريز لكم حاكم ... أوفى على الحكام تبريزا

ما فيه من عيب سوى أنه ... يوم الندى قسمته ضيزى

قصدته والشيخ نبغي جنى ... عود له ما زال مهزوزا

فسرّح الشيخ وقد نال من ... جدواه تخصيصا وتمييزا

وردّني أخيب من شائم ... برقا خفيّا في شهر تموزا

كأنه لم يدر أني التي ... لقنت ذا الشيخ الأراجيزا

وأنني إن شئت غادرته ... أضحوكة في أهل تبريزا

فلما رأى القاضي اجتراء جنانيهما. وانصلات لسانيهما. علم أنه قد مُني منهما بالداء العضال. والداهية الدهياء. وأنه متى منح أحد الزوجين وصرف الآخر صفر اليدين. كان كمن قضى الدين بالدين. أو صلى المغرب ركعتين. فاطرق يطلس ويرنو. واخرنطم واسبطر. وهمهم وغمغم. والتفت يمنة وشامة. وتململ كآبة وندامة. وأخذ يلوم القضاء ومتاعبه. ويعدد شوائبه ونوائبه. ويتغبط طالبه وخاطبه. ثم تنفس كما يتنفس الحريب. وانتحب حتى كاد يفضحه النحيب. وقال إن هذا لشيء عجيب. أأرشق في موقف بسهمين. أألزم في صفقة بغرمين. أأطيق أن أرضي الخصمين. ومن أين ومن أين. ثم عطف إلى حاجبه المتفقد لمآربه. وقال ما هذا يوم حكم وقضاء. وفصل وإمضاء. هذا يوم الاعتمام. هذا يوم الاغترام. هذا يوم الخسران. هذا يوم الحسران(?). هذا يوم عصيب. هذا يوم يصاب فيه ولا يصيب. فأرحني من هذين المنذرين(?). واقطع لسانيهما بدينارين. ثم فرّق الأصحاب. وأغلق الباب. وأشع أنه يوم مغموم. وأن القاضي فيه مغموم. لئلا يحضرني فيه الخصوم. قال فأمّن الحاجب على دعائه. وتباكى لبكائه. ثم نقد أبا زيد وعرسه المثقالين. وقال أشهد أنكما لأحيل الثقلين

لكن

احترما مجالس الحكام. واجتنبا فيها فحش الكلام. فما كل قاض قاضي تبريز. ولا كل وقت تسمع الأراجيز. فقالا له مثلك من يحب(?). وشكرك قد وجب. ونهضا وقد حظيا بدينارين. واصليا قلب القاضي نارين.

تفسير ما تضمن هذه المقامة من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية

قوله لقيت منها عرق القربة. مثل يضرب لمن يلقى شدة من الأمر الذي يزاوله كما أن حامل القربة يلقى جهدا حتى يعرق. وقوله جعلته دبر أذني يعني اطرحته وهو كقوله تعالى فنبذوه وراء ظهورهم. وقوله الكذب من سجاح يعني التي تنبأت في عهد مسيلمة الكذاب. وسارت إليه لتناظره وتختبره ثم آمنت به ووهبت نفسها له. وهذا الاسم مبني على الكسر مثل حذام وقطام لكونه من الأسماء المعدولة. واشتقاقه من السجاحة وهي السهولة ومنه قولهم ملكت فاسجح. وقولها الكذب من أبي ثمامة هي كنية مسيلمة الكذاب وكان تنبأ باليمامة وخرج إليه إلى أن سار إليه خالد بن الوليد وقتله. وقوله لا نعم عوفك العوف الحال وصوابها الذكر ويدعى للباني على أهله فيقال له نعم عوفك. وقوله يا دفار يا فجار هذان الاسمان معدولان عن دفرة وفاجرة. والدفر النتن وبه سميت الدنيا أم دفر. وكلما سمي بصفة غالبة ثم عدل بها إلى فعال بني على الكسر عند البناء كقولك يا لكاع يا خباث يا فجار. ولا يكون استعمال ذلك في غير النداء إلا في ضرورة الشعر كقول الشاعر

أطوف ما أطوف ثم آوي ... إلى بيت قعيدته لكاع

وأما قوله الحوم رجله فهو ضرب من الحمض ينبت في مجاري السيل فيجرفه. وأما قولها ألأم من مادر فهو رجل من بني هلال بن عامر كان اتخذ حوضا ليسقي إبله فلما رويت سلح فيه ومدره بسلحه لئلا ينتفع به من بعده. وأما قولها أشأم من قاشر فإنه فحل كان في بعض قبائل سعد بن زيد مناة ما طرق إبلا إلا ماتت. وقيل المراد به العام المجدب وسمي قاشرا لأنه يقشر وجه الأرض من النبات. وأما قولها أحمق من صافر فقد اختلف في تفسيره فقال بعضهم عني به كل ما يصفر من الطير وخص بالحمق لكثرة ما يتبعه من جوارح الجو ومصايد الأرض. وقيل إنه طائر معروف بعينه إذا جنه الليل يعلق ببعض الأغصان ولم يزل يصفر طول ليلته خوفا من أن ينام فيؤخذ. وقيل إنه الذي يصفر بالمرأة لريبة فهو يحبس وقت

صفيره مخافة أن يظهر أمره وقيل إن المراد به المثل المضروب به وهو الذي ينذر بالصفير
فعلى هذا القول فاعل هنا بمعنى مفعول كقوله تعالى من ماء دافق أي مدفوق وكقولهم راحلة
بمعنى مرحولة وهو كثير في كلامهم وقد جاء مفعول بمعنى فاعل كقوله [illegible] حجابا مستورا أي ساترا وأما
قولها أطيش من طامر فالمراد به البرغوث ويسمى طامر بن طامر للكرة ونوبه وأما قول
القاضي أركما شئتما طبقة وحداة وبندقة فإنه أراد بأن كلا منكما كفؤ لصاحبه ومقاوم له
ولكل من الأمثال تفسير مختلف فيه أما شن وطبقة فإن العلماء مختلفون في معنى قولهم وافق شن طبقة
فقال الأكثرون إنهما قبيلتان فشن هو ابن قصي بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار وطبقة
حي من إياد وكانت طبقة لا تطاق فأوقعت بها شن فانتصفت منها وقال بعضهم كان شن
رجلا من دهاة العرب وكان ألزم نفسه ألا يتزوج إلا امرأة تلائمه فكان يجوب البلاد في
ارتياد طلبته فصاحبه رجل في بعض أسفاره فلما أخذ بهما السير قال له شن أتحملني أم
أحملك فقال له الرجل يا جاهل هل يحمل الراكب الراكب فأمسك وسارا حتى أتيا على زرع فقال له شن
أترى هذا الزرع أكل أم لا فقال له يا جاهل أما تراه في سنبله فأمسك إلى أن استقبلتهما
جنازة فقال له شن أترى صاحبها حيا فقال ما رأيت أجهل منك أتراهم حملوا إلى القبر حيا
ثم إنهما وصلا إلى قرية الرجل فصار به إلى منزله وكانت له بنت تسمى طبقة فأخذ يطرفها بحديث
رفيقه فقالت له ما نطق إلا بالصواب ولا استفهمك إلا عما يستفهم عن مثله أما قوله
أتحملني أم أحملك فإنه أراد أتحدثني أم أحدثك حتى نقطع الطريق بالحديث وأما قوله
أترى هذا الزرع أكل فإنه أراد هل استسلف ربه ثمنه وأما استفهامه عن حياة صاحب الجنازة
فإنه أراد أنه خلف عقبا يحيي ذكره أم لا فلما خرج إلى الرجل حدثه بتأويل ابنته كلامه
فخطبها إليه فزوجه إياها فلما سار إلى قومه وخبروا ما فيها من الدهاء والفطنة قالوا
وافق شن طبقة فسارت مثلا وحكي أن الأصمعي سئل عن تفسير هذا المثل فقال
الطبق الشن وعاء من أدم كان قد تشنن فلما اتخذ له غطاء وافقه فضرب فيه هذا المثل
وأما حداة وبندقة فإنه يقال في المثل المضروب لمن يقترع بعدو أو يبلى بنظيره
حدأ حدأ وراءك بندقة وكان الأصل حداة بإثبات الهاء فرخم في النداء وقد اختلف

في

في المراد بهما فقيل هما الطائر المعروف والبندقة الرامي وقيل إنهما قبيلتان من سعد العشيرة فأغارت
حداة وكانت تنزل الكوفة على بندقة وكانت تنزل اليمن فنالت منهم ثم كرت بندقة على حداة فأبحت
عليهم ويروي بعضهم هذا المثل جدا أجدا غير مهموز على مثال عصا وقفا وزعم أنه اسم القبيلة
وأما قوله أخطأت استك الحفرة فإنه مثل لمن يضرب يخطئ في مقصده ويضع الشيء في
غير موضعه وأما قوله طلسم وطرسم فمعنى طلسم كلح وجهه ومعنى طرسم أطرق وقوله
اخرنطم وبرطم أي غضب وقطب وقيل معنى اخرنطم أي غضب مع تكبر ومعنى برطم أي غضب
مع تعبس وقولهم همهم وغمغم أي لم يبين الكلام

المقامة الحادية والأربعون التنيسية

حدث الحارث بن همام قال أطعت دواعي التصابي في غلواء شبابي فلم أزل زيرا للغيد
وأذنا للأغاريد إلى أن وافى النذير وولى العيش النضير فقرمت إلى رشد الانتباه
وندمت على ما فرطت في جنب الله ثم أخذت في كسح الهنات باكتساب الحسنات وتلافي الهفوات
قبل الفوات فملت عن معاطاة الغادات إلى ملاقاة التقاة وعن معاناة القينات
إلى مداناة أهل الديانات وآليت أن لا أصحب إلا من نزع عن الغي وقام منشره إلى الطي
وإن ألفيت رهين خليع الرسن مديد الوسن أنأيت داري عن داره وفررت من عره
وعواره فلما ألقتني الغربة بتنيس وأحلتني مسجدها الأنيس رأيت به ذا حلقة
ملتحمة ونظارة مزدحمة وهو يقول بجأش متين ولسان مبين مسكين ابن آدم وأي
مسكين ركن من الدنيا إلى غير ركين واستعصم منها بغير مكين وذبح من حبها بغير سكين
يكلف بها لغباوته ويكلب عليها لشقاوته ويعتد فيها لمفاخرته ولا يتزود منها لآخرته
أقسم بمن مرج البحرين ونور القمرين ورفع قدر الحجرين لو عقل ابن آدم لما نادم ولو
فكر فيما قدم لبكى الدم ولو ذكر المكافاة لاستدرك ما فات ولو نظر في المآل
لحسن قبح الأعمال يا عجبا كل العجب لمن يقتحم ذات اللهب في اكتناز
الذهب وخزن النشب لذوي النسب ثم من البدع العجيب أن يعظك وخط المشيب

وبنوذن تمسك العيب ولست ترى أن تنيب وتهذب العيب ثم اندفع ينشد إنشاد من رشد

يا ويح من أنذره شيبه ... وهو على غي الصبى منكمش
يعشو إلى نار الهوى بعدما ... أصبح من ضعف القوى يرتعش
ويمتطي اللهو ويعتده ... أوطأ ما يفترش المفترش
لم يهب الشيب الذي ما رأى ... نحوه ذو اللب إلا دهش
ولا انتهى عما نهى عنه ولا ... بالى بعرض خدش
فذاك إن مات فسحقاً له ... وإن يعش عد كمن لم يعش
لا خير في محيا امرئ نشره ... كنشر ميت بعد عشر نبش
وحبذا من عرضه طيب ... يروق حسناً مثل برد رقش
فقل لمن شاكر ذنبه ... هلكت يا مسكين أو تنتعش
فاخلص التوبة تطفئ بها ... من الخطايا السود ما قد نفش
وعاشر الناس بخلق رضي ... ودار من طاش ومن لم يطش
ورش جناح الحر إن حصه ... زمانه لا كان من لم يرش
وانجد الموتور ظلماً فإن ... عجزت عن إنجاده فاستجش
وانعش إذا ناداك ذو كبوة ... عساك في الحشر به تنتعش
وهاك كأس النصح فاشرب وجد ... بفضلة الكأس على من عطش

قال فلما فرغ من مبكياته وقضى إنشاد أبياته نهض صبي قد شدن وأعرى البدن وقال لأولي الحصاة والإنصات إلى الوصاة قد وعيتم الإنذار وفهمتم الإرشاد فمن نوى منكم أن يقبل ويصل المستقبل فليبن ببر عزيمته ولا يعتد على عطيته فوالذي يعلم الأسرار ويغفر الإصرار إن سريرتي لكما ترون وإن وجهي ليستحق الصون فاعينوني رزقتم العون قال وأخذ الشيخ فيما يعطف عليه القلوب ويستنزل له المطلوب حتى أنبط جفره واعشوشب قفره فلما أن نزع الكيس انصلت يميس وجد يتبيس ولم يخل للشيخ المقام بعدما أضاع

ازدهر

العلام

العلام فاستدفع الأيدي للدعاء ثم نحا نحو الارتكاء قال الراوي فاتبعته إلى أن أعجمه وأجل مترجمه فتبعته وهو يترقل تشنبل في شمته ولا يفتق رتق صمته فلما أمن اللواحي وأمكن التناجي لفت جيده إلي وسلم تسليم البشاشة علي قال أرأيت ذكاء ذاك الشويدن فعلمت أني والمؤمن المهيمن فقال إنه فتى السروجي ومخرج الدر اللجي فقلت أشهد أنك لشجرة ثمرته وشواظ شرارته فصدق كهانتي واستحسن إبانتي ثم قال هل لك في ابتداء البيت لنتنازع كأس الكميت فقلت له ويحك أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم فافتر افترار متضاحك ومر عن ملاحك ثم بدا له أن تراجع إلي وقال احفظها عني وعلى

إصرع بصرف الراح عنك الأسى ... وروح القلب ولا تكتئب
وقل لمن لامك فيما به ... تدفع عنك الهم فكف اتئب

ثم قال أما أنا فمنطلق إلى بيت أصطبح وأغتبق وإذا كنت لا تصحب ولا تلائم من يطرب فلست لي برفيق ولا أطرقك لي بطريق فحل سبيلي وتنكب ولا تنفر عني ولا تنقب ثم ولى مدبراً ولم يعقب قال الحارث بن همام فالتهبت وجداً عند انطلاقه وودت لو لم ألاقه

المقامة الثانية والأربعون النجرانية

حكى الحارث بن همام قال ترامت بي مرامي النوى ومسارح الهوى إلى أن صرت ابن كل تربة وأخا كل غربة إلا أني لم أكن أقطع وادياً ولا أشهد نادياً إلا لاقتباس الأدب المسلي عن الأشجان المغلي قيمة الإنسان حتى عرفت لي هذه الشنشنة وتناقلتها الألسنة وصارت أعلق بي من الهوى ببني عذرة والشجاعة بآل أبي صفرة فلما ألقيت الجران بنجران واصطفيت بها الخلان والجيران اتخذت أنديتها معتمري وموسم فكاهتي وسمري فكنت أتعهدها صباح مساء وأظهر فيها على ما سر وساء فبينما أنا في ناد محشود ومحفل مشهود إذ جثم لدينا هم عليه هدم فحيا تحية ملق بلسان ذلق ثم قال يا بدور المحافل وبحور النوافل قد بين الصبح لذي عينين وبان للعيان ما غاب عن عين فما تدرون فيما ترون أتحسنون العون أم تنأون إذ تدعون فقالوا له لقد غظت وزمت أنبطت فغضت فناشدهم الله عما صدهم حتى نبوا جوارهم فقالوا كنا

تناضل بالإلغاز كما يتناضل يوم البراز فما ملك أن شوّق من المفضول وأكن هذا الفضل بنمط الفضول فلسنه لسن القوم ووخزوه بأسنة اللوم وأخذ هو يتنصل من هفوته ويتندم على فرطته وهم مصممون على مؤاخذته وملبون داعي منابذته إلى أن قال لهم يا قوم إن الاحتمال من كرم الطباع فعدوا عن اللذع والقذع ثم هلم إلى أن نلغز ونحكّم المبرز فسكن عند ذلك توقدهم وانحلت عقدهم ورضوا بما شرط عليهم ولهم واقترحوا أن يكون أولهم فأمسك ريثما تعقد شعشع أو ينشد نسع ثم قال اسمعوا وقيتم الطيش ومليتم العيش وأنشد ملغزا في مروحة الخيش

وجارية في سيرها مشمعلة ... ولكن على إثر المسير قفولها

لها سائق من جنسها يستحثها ... على أنه في الاحتثاث رسيلها

ترى في أوان القيظ تنطف بالندى ... ويبدو إذا ولى المصيف نحولها

ثم قال وهاكم يا أولي الفضل ومراكز العقل وأنشد ملغزا في جانوك الرقل

ومنتسب إلى أم تنشا أصله منها ... يعانقها وقد كانت نفته بزهد عنها

به يتوصل الجاني ولا يلحى ولا ينها

ثم قال ودونكم الخويدمة العلم المعتكمة الظلم وأنشد ملغزا في القلم

وما مؤمم به عرف الإمام ... كما باهت بصحبته الكرام

له إذ يرتوي طيشان صاح ... ويسكن حين يعروه الأوام

ويذري حين يستسقي دموعا ... يرقن كما يروق الابتسام

ثم قال وعليكم بالواضحة الدليل الفاضحة ما قيل وأنشد ملغزا في الميل

وما ناكح أختين جهرا وخفية ... وليس عليه في النكاح سبيل

متى يغش هذي يغش في الحال هذه ... وإن كان يعلو لم يجده ميل

يزيدهما عند المشيب تعهدا ... وبرا وهذا في البعول قليل

ثم قال وهذه يا ذوي الألباب معيار الآداب وأنشد ملغزا في الدولاب

وجاف وهو موصول وصول لبر يا جافي

غريق بار ما عجبت له من راسب طافي

يسح دموع مظلوم ويهضم هضم متلاف

وتخشى منه حدته ولكن قلبه صافي

قال فلما رشق بالخمس التي نشق قال يا قوم تدبروا هذه الخمس واعقلوا عليه الخمس ثم رائكم وضح الدليل أو الارتداد بأكبر الكيل قال فاستقرت القوم شهوة الزيادة على ما أشربوا من البلادة فقالوا له إن فوقنا دون جدك لنبحث عن استثمار زندك قال انتحت عشرا من عندك فما هو إلا أن فلج سهمه وانحل خصمه ثم افتتح النطق بالتسمية وأنشد ملغزا في المرتّلة

ومنشورة مضمومة طول دهرها ... وما هي تدري ما السرور ولا الغم

تفرق أحيانا إذا حل حينها ... وكم ولد لولاه طلقت الأم

وتجمع أحيانا وما حال عهدها ... وإيعادها لم يستحل عهده ظلم

إذا قصر الليل استطال وصالها ... وإن طال فالإعراض عنه لها هم

لها ملبس بادي النفوس مبطن ... بما يرد ترى لكن لها بردى الحكم

ثم كشر عن أنياب القمر ثم أنشد ملغزا في الظفر

ومرهوب الشباة بلا حديد ... وما يرعى ولا يشرب

يرى في العشر دون النحر فاسمع ... وصفه واعجب

ثم تجاذب تجاذب العقرب وأنشد ملغزا في [illegible]

وما محقورة تدني وتقصى ... وما منها إذا فكرت بد

لها اثنان مشتبهان جدا ... وكل منهما للجبهة صد

تعذب إن هما خصبا وتلقى ... إذا عدما الخضاب ولا تعد

ثم تمطط تمطط القرم وأنشد ملغزا في طلب الكرم

وما شيء إذا فسدا ... تحول غيه رشدا

وإن هو راق أوصافا ... أثار الشر حيث بدا

زكي العرق والده ... ولكن بئس ما ولدا

ثم اعتضد عصى التسيار وأنشد ملغزا في الطيار

وطر

وذي طيشةٍ شقُّه مائلٌ ... وما عابه بهما عاقلُ
يُرى أبداً فوق عِلّيةٍ ... كما يعتلي الملكُ العادلُ
تساوى لديه الحصا والنضار ... وما يستوي الحقُّ والباطلُ
وأعجبُ أوصافه إن نظرتَ ... كما ينظرُ الكيّسُ الفاضلُ
تراضي الخصوم به حاكماً ... وقد عرفوا أنّه مائلُ

قال فطفقت الأفكار تهيم في أودية الأوهام، وتجول جولان المستهام، إلى أن طال الأمد، وحصحص الكمد. فلما رآهم يُريدون وِرْد شَنًا، ويقضّون النهار بالمُنى، قال يا قوم إلامَ تُنظَرون، وحتّام تَنظُرون. ألم يأنِ لكم استخراج الخبيّ، أو استسلام العَييّ. فقالوا والله لقد أعوصت، ونصبت الشرك فقنصت، فتحكّم كيف شئت، وجُزِ الغُنم والصيت. ففرض عن كلّ معمّى فرضاً، واستخلص منهم نضّاً. ثم فتح الأقفال، ووسم الأغفال، وحاول الإجفال. فاعتلق به مِدْرَهُ القوم وقال له: لا لُبسة بعد اليوم. فاستنسب قبل الانطلاق، وهبه مُتعة الطلاق. فأطرق حتى قلنا مُريب، ثم أنشد والدمع مجيب:

سروجُ مطلعُ شمسي ... وربعُ لهوي وأنسي
لكن حُرِمتُ نعيمي ... بها ولذّة نفسي
واعتضت عنها اغترابي ... ...
مالي مقرٌّ بأرضٍ ... ولا قرارٌ لعَنْسي
يوماً بنجدٍ ويوماً ... بالشام أُضحي وأُمسي
أُزجي الزمان بقوتٍ ... منغّصٍ مستخسّ
ولا أبيتُ وعندي ... فلسٌ ... بفلسِ
ومن يعش مثل عيشي ... باع الحياة ...

المقامة الثالثة والأربعون

أخبر الحارث بن همام قال: هفا بي البين المطوّح، والسير المبرّح، إلى أرضٍ يضلّ بها الخِرّيت، وتفرق فيها المصاليت، فوجدت ما يجد الحائر الوحيد، ورأيت ما كنت منه أحيد، إلا أني شجّعت قلبي المزؤود، ونشأت نضوي المجهود، وسرت سير الضارب بقِدحه، المستسلم للحَين، ولم أزل بين وخدٍ وذميل، وإجازة ميلٍ إلى ميل، إلى أن كادت الشمس تجب، والضياء يحتجب، فارتعت لإظلال الظلام، واقتحام جيش حام، ولم أدرِ أأكفّ الذيل وأرتبط، أم أعتمد الليل وأختبط. وبينا أنا أقلّب العزم، وأنتخل الحزم،

تراءى لي شبح جمل، مستدبرٍ بجبل، فترجّيته قِعدة مرتحل، فقصدته قصد مُشيح، فإذا الظنّ كهانة، والفِعلة غير مُلامة، والمرتحل قد ازدمل بجلباله، واكتحل برقاده، فجلست عند رأسه، حتى هبّ من نعاسه، فلما ازدهر من جاه، وأوجس من فجاءة، نفر كما ينفر المريب، وقال: أخوك أم الذيب؟ فقلت: بل خابطُ ليلٍ ضلّ المسلك، فأضئ لي أقدح لك. فقال: ليُسرّ عنك همّك، فربّ أخٍ لم تلده أمّك. فانسرى عند ذلك إشفاقي، وسرى الوسن إلى آماقي. فقال: عند الصباح يحمد القوم السُّرى، فهل ترى ما أرى؟ فقلت: إني لك لأطوع من حذائك، وأوفق من غذائك. فصدع بمحبّتي، وتبجّح بصحبتي. ثم احتملنا مجدّين، وارتحلنا مُدلجين، ولم نزل نجاب السُّرى، ونتعاصى الكرى، إلى أن بلغ الليل غايته، ورفع الفجر رايته، فلما أسفر الصبح الفاضح، ولم يبق إلا واضح، توسّمت رفيق رحلي، وسمير ليلي، فإذا هو أبو زيد مطلب المتنشّد، ومعلم المرشد. فتهادينا تحيّة المحبّين إذا التقيا بعد البين، ثم تباثثنا الأسرار، وتناثثنا الأخبار، وبعيري يتخطّم الكلال، وراحلته تزفّ زفيف الرئال، فأعجبني اشتداد أسرها، وامتداد صبرها، وأخذت أستشفّ جوهرها، وأسأله من أين تخيّرها. فقال: إنّ لهذه الناقة خبراً، حلو المذاقة مليح السياقة، فإن أحببت استماعه فأنخ، وإن لم تشأ فلا تنخ. فأنخت لقوله نضوي، وأهدفت السمع لما يروي. فقال: اعلم أني استعرضتها بحضرموت، وكابدت في تحصيلها الموت، وما زلت أجوب عليها البلدان، وأطسّ بها الظِّرّان، إلى أن وجدتها عِبْر أسفار، وعُدّة فرار، لا يلحقها العنا، ولا تبوأ هفها وخنا، ولا تدري ما الهنا، فارتصدتها للخير والشرّ، وأحللتها محلّ البرّ اليسر، فاتّفق أن ندّت منذ مدّة، وما لي سواها عُدّة، فاستشرفت الأشجان واستشرفت التلف، ونسيت كلّ رزءٍ سلف، ومكثت ثلاثاً لا أستطيع انبعاثاً، ولا أطعم النوم إلا حثاثاً. ثم أخذت في استقراء المسالك، وتفقّد المسارح والمبارك، وأنا لا أُنشَد منها أثراً، ولا أستغني بأسارير نجا، وكلّما ادّكرت مضاءها في المسير، وانبراءها للمبار في الطبر لأعيى الأدلّا، واستهوتني الأفكار. فبينما أنا في حواء بعض الأحياء، إذ سمعت شخصاً متلفّعاً وصوت

منجرد • مرصّت له مطية حضرمية وطية جلدها قد وُشم وعرّها قد خُشم وزمامها قد ضفر وظهرها كأن كسرتم جبر تزين الماشية وتعيي الناشية وتقطع المسافة النائية وتظل أبدًا لك مداينة لا يعتورها الونا ولا يعترضها الوجى ولا تحوج الى العصا ولا تعصي فيم عصا

قال ابو زيد فحدث بي الصوت الى الصائت • وبشرني بدرك الفائت • فلما أفضيت إليه وسلمت عليه • قلت له تسلّم المطية • وتسلّم العطية • فقال وما مطيتك غفرت خطيئتك • قلت ناقة جثتها كالهضبة • ودرّتها كالقبة • وحلبها ملأ العلبة • وكنت أعطيت بها عشرين • إذ حلّت بيثرب • فاستزدت الذي أعطى • ودريت أنه أخطا • فأعرض حين سمع صفقتي • ومال النشء بصاحب لقطتي • واخذت بتلابيبه • وأصررت على تلبيبه • وهممت بتمزيق جلابيبه • وهو يقول • ما هذا مطيتي بطلبك • فاكفف من غربك • وعد عن سبك • والا فقاضني الى حكم هذا الحي البري من الغي • فان اوجبها لك فتسلّم • وان زواها عنك فلا تتكلم • فلم أر دواء قضيتي • ولا مساغ غصتي • إلا أن آتي الحكم • ولو لكم • فانحرطنا الى شيخ راكب النصية • أنيق العصية • يؤنس منه سكون الطائر • وان ليس بالحائر • فاندرأت أتظلم • وأنا أتم • وصاحبي مترمم • لا يتزمزم • حتى إذا انثالت كنانتي • وقضيت من القصص لبانتي • أبرز نعلًا زرينة الوزن • محذوة لسلك الحزن • وقال هذه التي عرفت • وإياها وصفت • فان كانت هي التي أعطى بها عشرين • ها هو من المنصرين • فقد كذب في دعواه • وكبر ما افتراه • اللهم الا أن يمد يده • ويبين مصداق ما قاله • فقال الحكم اللهم عفرا وجعل يقلب النعل بطنًا وظهرًا • ثم قال أما هذه النعل فنعلي • وأما مطيتك ففي رحلي • فانهض لتسلّم ناقتك • وافعل الخير بحسب طاقتك • فقمت وقلت

• أقسم بالبيت العتيق ذي الحرم • والطائفين العاكفين في الحرم •

• إنك نعم المالك المحتكم • وخير قاض في الأعارب حكم •

• فكم ودم دوم النعام والنعم •

فأجاب من غير رويّة • ولا عقد نية • وقال

• جزيت خيرًا يا ابن عم • إذ لست تشوي شكر أبلتزم •

• شر الأنام من إذا انقضى ظلم • ثم من استرعى فلم يرع الحرم •

• فذان والكلب سواء في القيم •

ثم انه نقّل من سلّم الناقة إليّ • ولم يمنّ بها عليّ • فرحت أجر ذيل الطرب • وأقول يا للعجب • قال الحارث بن همام فقلت له بالله لقد اطرفت • وظرفت ما عرفت • فناشدتك الله هل لقيت أسحر منك • وأحسن للفظ صياغة • فقال اللهم نعم • فاسمع وانعم • كنت عزمت حين لهمت على أن أتخذ طعينة • لتكون لي معينة • حين تعيي الخطب • وكاد الأمر يستتب • أفكرت فكر المتحير والمتوهم المتأمل كيف يسقط السهم • وبت ليلتي أناجي القلب المعذب • وأقلب العزم المذبذب • الى أن أجمعت على أن أسحر • وأشاور أول من أبصر • فلما قوض الظلام أطنابه • وولت الشهب أذنابه • غدوت غدو المعترف • وابتكرت ابتكار المتعيف • فانبرى لي يافع في وجهه سافع • فتيمنت لمنظره البهيج • واستقدحت رأيه في التزوج • فقال أو تبغيها عوانًا ام بكرًا تغالي • فقلت اختر لي ما ترى • فعندك البكر العرى • فقال الى التبيين وعليك التعيين • فاسمع أنا أفديك لتغدو في أعاديك • أما البكر فالدرة المخزونة • والبيضة المكنونة • والباكورة الجنية • والسلافة الشهية • والروضة الأنف • والطوق الذي لم يلبس وشرف • لم يدنسها لامس • ولا استغشاها لابس • ولا مارسها عابث • ولا وكسها طامث • ولها الوجه الحيي • والطرف الخفي • واللسان العيي • والقلب النقي • ثم هي الدمية الملاعبة • واللعبة المداعبة • والغزالة المغازلة • والملحة الكاملة • والوشاح الطاهر القشيب • والضجيع الذي يشب ولا يشيب • وأما الثيب فالمطية المذللة • واللهنة المعجلة • والبغية المسهلة • والطبة المعللة • والقرينة المتحببة • والخليلة المتقربة • والصناع المدبرة • والفطنة المختبرة • ثم هي عجالة الراكب • وأنشوطة الخاطب • وفرصة العاجز • ونهزة المبارز • عريكتها لينة • وعقلتها هينة • ودخلتها متبينة • وخدمتها مزينة • وأقسم لقد صدقت في النعتين • وأجليت

المهاتين وبابهما هام قلبك وعلى أيتهما قام ربك قال الراوي أبو زيد فرأيته جذلًا له يتقيها المزاحم ونذمى منها المحاجم إلى أن ثم قلت له كنت سمعت أن البكر أشد حبًا وأقل خبًا فقال وفي لعمري قبل هذا ولكن كم قول أذى فويحك أما هي المهرة الأبية العنان والمطية البطية الإذعان والزندة المتعسرة الإقتداح والقلعة المستعصية الإفتتاح ثم إن مؤنتها كثيرة ومعونتها يسيرة وعشرتها صلفة ودالتها مكلفة ويدها خرقاء وفتنتها صماء وعريكتها خشناء وليلتها ليلاء وفي رياضتها عناء وعلى خبرتها غشاء وطالما أخزت المنازل وتركت المغازل وأحنقت الهازل وأضرعت الفنيق البازل ثم إنها التي تقول أنا ألبس وأجلس فاطلب من يطلق ويحبس فقلت له فما ترى في الثيب يا أبا الطيب فقال ويحك أترغب في فضالة المآكل وثمالة المنهل واللباس المتبذل والوعاء المستعمل والدواقة المطرحة المنحرفة والوقاح المتسلطة والمحتكرة المتسخطة ثم كلمتها كنت وصرت وطالما بغي علي ونصرت وشتان بين اليوم وأمس وأين القمر والشمس وإن كانت حنانة الزول أو الطماحة الهلوك فهي الغل القمل والجرح الذي لا يندمل فقلت له فهل ترى أن أترهب وأسلك هذا المذهب فانتهرني انتهار الموتور عند ترك المتأدب ثم قال ويلك أتقتدي بالرهبان واتحق فقد استبان أفك ولو هن رأيك وتبًا لك ولأوليك أتراك ما سمعت بأن لا رهبانية في الإسلام أو ما حدثت بمناكح نبيك عليه أفضل الصلاة والسلام ثم أما تعلم أن السكن الصالحة رب بيتك وملبي صوتك وتغض طرفك وتطيب عرفك وبها ترى قرة عينك وريحانة أنفك وفرحة قلبك وذخيرة يومك وغدك فكيف رغبت عن سنة المرسلين ومتعة المتأهلين وشرعة المحصنين ومجلبة المال والبنين والله لقد ساءني فيك ما سمعت من فيك ثم أعرض إعراض المغضب وتزاور تزاور المعتب فعلت له قاتلك الله انطلق متنحرًا ونذعى متحيرًا فقال أظنك بقيت على الحيرة لتخلد عميرة وتستغني عن المهيرة فقلت لو قبح الله ظنك ولا أثبت قرنك ثم رحت عنه مراح الخزيان وبت ملتهبًا بتشاورة

الصبيان

الصبيان قال الحرب هام فقلت له اقسم عن أبت الأيك إن الجد لمنك وإليك فاعزب في التحكم وطوب طريقة المتهتكم قال إلى العسل ولا تسل فأخذت أسهب في مدح الأدب وأفضل ربه على ذات النشب وهو ينظر إلي نظر المستجهل ويغضي عني إغضاء المتمهل فلما أفرطت في العصبية للعصبة الأدبية قال صه واسمع مني وافقه

يقولون إن جمال الفتى وزينته أدب راجح
وما إن يزين سوى المكثرين ومن طود سودده شامخ
فأما الفقير فخير له من الأدب القرص والكامخ
وأي جمال له أن يقال أديب يعلم أو ناسخ

ثم قال يضع لك صدق لهجتي واستنارة حجتي وسرنا لا نألو جهدًا ولا نشفي وجدًا حتى أدنانا السير إلى قرية عزب عنها الخير فدخلناها للارتياد وكلانا منفض من الزاد فما إن بلغنا المحط والمناخ المختط أو لقينا غلامًا لم يبلغ الحنث وعلى عاتقه ضغث فحياه أبو زيد تحية المسلم وسأله وقفة المتفهم فقال وعم تسأل وفقك الله قال أيباع هاهنا الرطب بالخطب قال إي والله ولا البلح بالملح قال كلا والله ولا التمر بالشعر قال هيهات والله قال ولا العصائد بالقصائد قال اسكت عافاك الله قال ولا الثرائد بالفرائد قال أين يذهب بك أرشدك الله قال ولا الدقيق بالمعنى الرقيق قال عد عن هذا أصلحك الله واستحلى أبو زيد تراجع السؤال والجواب والتكايل من هذا الجراب ولمح الغلام أن الشوط بطين والشيخ شيطان فقال حسبك يا شيخ فقد عرفت فنك واستبنت أنك تخذ الحواس ضبن واكتف بهذا جرم أما بهذا المكان فلا يشترى الشعر بشعيرة ولا النثر بنثارة ولا القصص بقصاصة ولا الرسالة بغسالة ولا حكم لقمان بلقمة ولا أخبار الملاحم بلحمة وأما جيل هذا الزمان فما فيهم من يمنح إذا صنع له المديح ولا من يجيز إذا أنشدت له الأراجيز ولا من يغيث إذا أطربه الحديث ولا من يمير ولو أنه أمير وعندهم أن مثل الأديب كالربع الجديب إن لم تجد الربع ديمة لم تكن له قيمة ولا دانته بهيمة وكذا الأدب إن لم يعضده نشب

قد ربشه نصب وعرته حصب ثم انسل يعدو وولى يحدو فقال لي الوريك أعلمت أن الأدب
قد بار وولت الصارة للأدباء تنوب لا يحس البصير وتلمت بحكم القدرة فقال دعنا الأن
من المصاع وخض في حديث البضاع واعلم أن الاشجاع لا تشبع من جاع فما التدبير فيما
تمسك الرمق وتطفي الحرق فقلت الأمر إليك والزمام بيديك فقال أرى أن ترهن
سيفك لنشبع جوفك وضيفك فناولنيه وأتم لأنقلب إليك بما تلتقم فاحسنت به الظن
وقلدته السيف والرهن فما لبث أن ركب الناقة وترفض الصدق والصداقة فكنت مليا أرقبه
ثم نهضت أتعقبه فكنت كمن ضيع في الصيف ولم ألقه ولا السيف

المقامة الرابعة والأربعون

حكى الحارث بن همام قال عشوت في ليلة داجية الظلم
فاحمة اللمم إلى نار تضرم على علم وتخبر عن كرم وكانت ليلة جوها مقرور وجيبها مزرور
ونجمها مغموم وغيمها مركوم وأنا فيها أصرد من عين الحربا والعنز الجربا فلم أزل أكف عنسي وأقول
طوبى لك ولنفسي إلى أن تبصر الموقد إلي وتبين زفيفي فانحدر يعدو والجمر ويُنشد

من نجل ... حييت من خابط ليل سار ... هداه بل أهداه ضوء النار
إلى رحيب الباع رحب الدار ... مرحب بالطارق الممتار
رحب جعد الكف بالدينار ... ليس بمزور عن الزوار
ولا بمعتام القرى منحار ... إذا اقشعرت ترب الأقطار
وحم أرماك من هف الشفار ... لم يخل في ليل ولا نهار
وضنت الأنوا بالأمطار ... فهو على الزمان الضاري
من نحر وار واقتداح واري

ثم تلقاني بمحيا حيي وصافحني براحة أريحي واقتادني إلى بيت عشاره منحورة وأعشاره
تفور ولائده تمور وموائد تدور وبإزائه أضياف قد جلبهم جالب وقلبهم قالب
وهم يكسبون فاكهة الشتاء ويرجحون موضع ذوي الفتا فأحدت مآخذهم في الاصطلا ووحدت
بهم وجد الثمل بالطلا ولما أن ترى الخصر وانسرى الخصر أتينا بموائد كالهالات دورا والرياض

ولما شبعنا بأطعمة الولائم وحمين من العايب واللائم فرفضنا ما قبل في البطنة ورأينا الإمعان فيه
من الفطنة حتى إذا أكلنا بصاع الحطم وأشفينا على خطر التخم تعاورنا مشوش الغمر
ثم نبق أنا متاعب السمر وأخذ كل منا يشول لسانه وينشر ما في صوانه ما عدى شيخا مشنهبا فوه داه
فخلولقا برداه فانه ربض محرنجما وأوسعنا هجرا فغاضنا تجنبه الملتبس موجبه المعذور فيه
موتبه إلا أنا ألنا له القول وخشينا في المسألة القول وكلما رمنا أن يفيض كما أفضنا
أو يبيض فيها أفضنا أعرض إعراض لعلته عن الأرذلين وقال إن هذا إلا أساطير الأولين ثم كأن
الجمة هاجته والنفس الأبية ناجته فدلف وازدلف وحلع الصلف وبدل أن
ينال في ما سلف ثم استرعى سمع السامر واندفع كالسيل الهامر وقال

عندي أعاجيب أرويها بلا كذب ... عن العيان فكنوني أبا العجب
رأيت يا قوم أقواما غذاؤهم ... بول العجوز وما أعني ابنة العنب
بول العجوز لبن البقرة والعجوز أيضا من أسماء الخمر
ومستنين من الأعراب فوتهم ... أن يستقوا حرقة تغني من السغب
الحرقة القطعة من الجراد
والكاتبين وما خطت أناملهم ... حرفا ولا قرأوا ما خط في الكتب
الكاتبون الخارزون من الكتب السقاءة والمزادة إذا خرزها
وتابعي عقاب في مسيرهم ... على تكمهم في البيض واليلب
العقاب الراية وكانت راية النبي صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب
ومنتدين ذوي نبل بدت لهم ... نبيلة فانثوا منها إلى الهرب
النبيلة الجيفة ومنه نبل البعير إذا مات وأروح
وعصبة لم تر البيت العتيق وقد ... حجت جثيا بلا شك على الركب
معنى حجت جثيا أي غلبت بالحجج مجادلي جاثين على الركب وجثي جمع جاث
ونسوة بينما أنحن من حلب ... صنحن كاظمة من غير ما تعب

كاظم وهذا الموضع من كظم الغيظ

ومدلجين سَرَوا من أرض كاظمة • وأصبحوا حين لاح الصبح في حَلَب

اى أصبحوا يحلبون اللبن

وعادين منى ما شاء صنعهم • أو قصروا فيه قالوا الذنب للحطب

القادر الطابخ والقدير المطبوخ فيه

ويا فعالم بلا مشرقط غانية • شاهرته وله نسل من العقب

النسل هاهنا العدو ومنه قوله تعالى من كل حدب ينسلون والعقب موخر القدم

وشائبا غير محيف للمشيب ولي • في البدو وهو فتي السن لم يشب

الشائب هاهنا مازج اللبن والشيب اللبن الممزوج بالماء مشيب ومشوب

ومرضعا بلبان لم يغذه فمه • رأيته في شجار بين السبب

الشجار المحفة ما لم تكن مظللة فاما ظللت فهي الهودج وأيضا عيدان الجبل ومنه قوله تعالى فليمدد بسبب الى السماء

وزائر عادة حتى إذا حضرت • صارت غيبته أهواها أهواها الطرب

الغبيرا السكر المتخذ من الذرة وفي الحديث اياكم والغبيرا فانها خمر العالم وتسمى ايضا السكركة

وراكضا وهو مغلول على فرس • فذ غل أيضا وما ينفك من خبب

المغلول هاهنا العطشان وغل أي عطش

وذا يد طلق يبغي زاحلة • مستعجلا وهو مأسور أخو كرب

المأسور الذي يجد الأسر وهو احتباس البول

وجالسا ماشيا تهوي مطيته • به وما في الذي أورد من ريب

الجالس الآتي نجدا والماشي الذي كثرت ماشيته وعليه فسر بعضهم قوله تعالى أن امشوا كأنه دعا لهم بالنماء وكثرة الماشية

وحايكا أخدم الكفين ذا حرفٍ • فإن عجبتم فكم في الخلق من عجب

الحائك هاهنا الذي إذا مشى حرك منكبيه وفحج بين ركبتيه

وذا استطاط كصدر الرمح قامته • صادفته لمني يشكو من الحدب

الحدب ما ارتفع من الأرض

وساعيا في مسرات الأنام يرى • أفراحهم مأتما كالظلم والكرب

أفراحهم أثقالهم ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا يترك في الإسلام مفرح أي مثقل

ومغرما بمناجاة الرجال له • وما له في حديث الخلق من أرب

الخلق هاهنا الكذب ومنه قوله تعالى إن هذا إلا خلق الأولين

وذا ذمام وفت بالعهد ذمته • ولا ذمام له في مذهب العرب

الذمام الأول العهد والثاني جمع ذمة وهي البئر القليلة الماء وعى مذهب المسلك أي ما له في البدو آبار قليلة الماء

وما قوي ما استبانت قط لينته • ولينه تتبين غير محتجب

اللين النخل الدقل ومنه قوله تعالى ما قطعتم من لينة

وعاذر أمولا من طل يعذره • مع التلطف والمعذور في صخب

العاذر الخاتن والمعذور المختون

وماجدا فوق فحل غير مكترث • مما أتى بل تراه أفضل القرب

الفحل الحصير المتخذ من فحال النخل

وبلدة ما بها ماء لمغترف • والماء يجري عليها جري منسرب

البلدة الفرجة بين الحاجبين وتسمى ايضا البلجة

وقرية دون أفحوص القطا شحنت • بديلم عيشهم من خلسة السلب

القرية بيت النمل والديلم النمل الكثير

وكوكبا يتوارى عند رؤيته • الإنسان حتى يرى في أمنع الحجب

الكوكب النكتة البياض التي تحدث في العين

وروثة قومت مالا له خطر • ونفس صاحبها بالمال لم تطب

الروثة مقدم الأنف

وصحفة من نضار خالص شربت • بعد الكاس بغير اطراد الذهب

ومستجيشا بخشخاش ليدفع ما • أظله من أعاديه فلم يجب

الخشخاش الجماعة عليهم دروع وأسلحة

وطالما مرّ بي كلب وفي فمه ثور ولكنه ثور بلا عصب
الثور القطعة من الأقط

وكم رأى ناظري فيلاً على جمل وقد تورّك فوق الرحل والقتب
الفيل الرجل الفايل الرأي

وكنت لقيت بعرض البيد مشتكيا وما اشتكى قط في جدّ ولا لعب
المشتكي المتخذ شكوة وهي القربة الصغيرة

وكم أبصرت كرّازاً لأعينه بالذرّ ينظر من عينين كالشهب
الكرّاز الكبش الذي يحمل عليه الراعي أداته

وعاينت معلناً عينين مآقيها تجري من الغرب في العينين حلب
الغرب مجرى الدمع والعينان المثلثان

وصادفا القتلى من غير أن علقت كفاه يوماً بمرمح لا ولا يلب
القنا ارتفاع الأنف وتحدب وسطه

وكم نزلت بأرض النخل بها وبعد يوم رأيت النسر في القلب
النسر جمع نسر وهي لما الحديث العهد بالمطر والقلب

ولم رأيت بأقطار الفلا طبقا يطير في الجو منصبّا إلى صبب
الطبق القطعة من الجراد

وكم مشايخ في الدنيا لهم محلّمين ومن يحو من العطب
المحلّم الذي أبطأ شيبه

وكم بدا لي وحش يبتني شعبا منطق ذلك أمضى من القضب
الوحش الرجل الجايع

وكم دعاني مستنج لحاجتني وما أخلّ ولا أخللت بالأدب
المستنجي الجالس على النجوة وهي المكان المرتفع

وكم أنخت قلوصي عند جنبذة تظل ما تشتهيه من غرب ومن غرب
الجنبذة القبة والغرب جمع غرب

وكم نظرت إلى مرسي ساعتنه ومعه منتهل القطر كالسحب

وكم رأيت قبيصا ضاحيه حتى انثنى واهي الأعضاء والعصب
القبيص الدابة الكثيرة الغاصر

وكم أزار لو أتى الدهر ألقمه لحجر لبيد حيث الشبر مضطرب
الأزار المرأة

هذا وكم من أفانين محجّبة عندي ومن ملح تلهي ومن نخب

فإن فطنتم لمعنى القول إن لكم صدقي وودّكم طالعي على رطبي
وإن شغلتم فإن العار فيه على من لا يميز بين العود والخشب

قال الحارث بن همام فطفقنا نخبط في تفسير قريضه وتأويل معاريضه وهو يلهو بنا لهو الخلي بالشجي ويقول ليس بعشك فادرجي إلى أن تعسّر النتاج واستحكم الارتتاج فألفينا إليه المقادة وخطبنا منه الإفادة فوقفنا بين الطمع واليأس وقال الإيناس قبل الإبساس فعلمنا أنه ممن يرغب في الشكم

ويرتشي في الحكم ونشأ أبا مثواه أن يتعرّض للغرم أو يجيب بالترغم فأحضر ناقة عيدية وحلّة سعيدية وقال له خذهما حلالا لا واتّزر أصبابي بزبالا فقال أشهد أنها سيسة أريحية وأريحيته حاتمية ثم قابلنا بوجه بشره يشفّ ونضرته ترفّ وقال يا قوم إن الليل قد اخلولق والنعاس قد تجوّزه فافزعوا إلى المراقد واغنموا راحة الراقد لتستريحوا نشاطا وتنبعثوا نشاطا فتنعوا ما أنفس وينسهل لكم المتعسّر واستصوب كل ما رآه ونوشتبل وسادة كراه فلما ونسي الجفان وأغفت الضيفان وثب إلى الناقة فرحلها ثم ارتحلها ورحلها وقال مخاطبا لها

تروّحي يا ناق فتبري وخدي وأدلجي وأوّبي وأسئدي
حتى تطا أخفافك مرعاها الندي فتنعمي حينئذ وتسعدي
وتأمني أن تبهمي وتجهدي إيه فبي تلك النوق جدّي واجهدي
وافري أديم فدفد ففدفد واقنعي بالنشح عند المورد
ولا تحطّي دون ذاك المقصد فقد حلفت حلفة المجتهد
بحرمة البيت الرفيع العمد إنك إن أحللتني في بلدي
حللت مني بمحلّ الولد

قال فعلمت أنه السروجي الذي باع إذا أباع وإذا ملأ الصاع انصاع ولما انبلج صباح اليوم وهبّ النوام من النوم أعلمتهم أن الشيخ حين أغشاهم السبات طلقهم البتات وركب الناقة وفات فأخذهم ما قدم وما حدث ونسوا ما طاب منه بما خبث ثم انشعبنا في كل مشعب وذهبنا تحت كل كوكب

قال القاسم بن علي قد فسرت كل لغز تحته ولم أبعد على القارئ كشفه وقد بقيت ألفاظ شملت عليها هذه المقامة ربما التبس تفسيرها على بعض من تتوق إليه فأجبت إيضاحها له ليكفى حيرة الشبهة وكلفة الفكرة ووصمة البحث والمسألة وبالله نعوذ من الإعنات والفوه

قوله عشوت إلى نار يعني تنورتها فقصدتها فإن لم تقصدها قلت عشوت عنها كقوله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا أي من يعرض وقوله كنت أصرد من عين الحرباء والعنز

الجربا بصاف التلال بحرباء لم يبلغ منه البرد وذاك ان الحربا تلعب ابدا مع الشمس وتتقبلها بعينه وكذلك
شبهه ابن الرومي الرقيب بالحربا في قوله ما بالها قد حسنت ورقيبها ابدا قبيح قبح الرقبا
ما ذاك الا انها شمس الضحى ابدا يكون رقيبها الحربا والعنز الجربا لانها في السنا لقلة شعرها وكر بعضهم
ان العنز الجربا تصحيف المثل الاول وقوله بجر واين يعني بالواين اكل المكثر شحما الكثير لحما وقوله
عشار نحوه والعشار تفوق العشار النوق الحوامل والاعشار البرمه العظيمه كانها شعب
لعظمه يقال برمة اعشار وجفنة اكسار وثوب اسمال وبرد اخلاق وحبل ارمام ووصف الجماعه
فيكون وصف الواحد وقوله فاكهة الشتاء كنى بها عن النار ومنه قول بعض المحدثين

النار فاكهة الشتاء فمن يرد اكل الفواكه شاتيا فليصطل

وقوله سوابق كالها لات يعني دارة القمر ودارة الشمس تسمى الطفاوه وقوله مشوش الغمر يعني المنديل يقال
مش يده بالمنديل اي مسحها ومنه قول امرئ القيس نمش باعراف الجياد اكفنا اذا نحن قمنا عن شواء مضهب
وقوله مشتهبا فوداه اي صار الشيب في لون الاشهب ومنه قول امرئ القيس ايضا
قالت الخنساء لما جئتها شاب بعدي راس هذا واشتهب وقوله تربض بجحره يعني باجحره
ويقال في المثل لمن يشارك في الرخاء ويجانب عند البلاء يرتع وسطا ويربض حجرة وقوله
اسنى من سمع السامر يعني السمار لان السامر اسم للجمع كالحاضر اسم للحي النازلين على الماء وكالباقر اسم
لجماعة البقر وقال بعض اهل اللغة هو اسم للبقر مع رعاتها واشتقاق السامر من السمر وهو ظل
القمر ماخوذ من السمرة فلما كان غالب احوال السمار انهم يتحدثون في ظل القمر اشتق لهم اسم منه والى هذا
يرجع قولهم لا اكلمه القمر والسمر وقوله ليس بعشك فادرجي هذا مثل يضرب لمن يتعاطى ما لا يبلغه
والعش ما يكون في شجر وان كان في حائط او كهف جبل فهو وكر وقوله الايناس قبل الابساس
هذا مثل ايضا ومعناه انه ينبغي ان تونس الانسان ثم تكلف واصله ان حالب الناقة تونسها حين
يروم حلبها ثم يبس بها للحلب والابساس ان يقول لها بس بس لتسكن وتدر وتسمى الناقة
التي تدر على الابساس البسوس وقوله يرعى في اكم السلم ما اعطيته على سبيل المجازاة
فان

وكانهم كابني سبات تفرقا سبوتهم كانا منجدا وتهاميا
فالفيا لهما من سهما بخلطه واختلط هذا لا يعود وذا بيا

٨٢
وان اعطيت مبتدئا فهو التسكين وقوله ساابا منوانا يعني الضيف الذي اوى اليه وثنو عنده
وقوله ناقة عيدية قيل انها نسبة الى فحل منجب اسمه عيد وقيل هي منسوبة الى قوم
مهرة اسمه عيد ابن الاميري وكانت مهرة وعيد يتخذان نجائب الابل وتنسب اليهما
وقوله حلة سعيدية هي منسوبة الى سعيد بن العاص وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
كساه وهو غلام حلة فنسب جنسها اليه وقوله لا تزرا اصبا في زبال اي لا تزرا هم شيئا
وان قل والاصل في الزبال ما تحمله النملة بفيها وقوله شنشنة اعرفها اشارة الى
المثل الذي ضربه حاتم ابن عبد الله سعد بن الحشرج اخزم الطائي حين نشا حاتم وقيل اخلاق
حاتم اخزم في الجود فقال شنشنة اعرفها من اخزم وتمثل عقيل بن علفة به حين قال
ان بني ضرجوني بالدم من يلق اساد الرجال يكلم شنشنة اعرفها من اخزم ومراده ان المثل له
وهو سهام فيه وقوله اجلوذ اي اسرع في الذهاب ومثله اخروط وقوله وثب الى الناقة
فرحلها يعني شد عليها الرحل ومنه تسمية الراحلة لانها فاعلة بمعنى مفعوله كقوله تعالى في عيشة راضية
وماء دافق اي مدفوق والراحلة تقع على الناقة والجمل ودخول الها للمبالغة مثل داهية
وراوية وقوله ارتحلها اي ركبها وفي الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم سجد فركبه الحسن
عليه السلام فابطا في سجوده فلما قضى صلاته قال ان ابني هذا ارتحلني فكرهت ان اعجله وقوله
رحلها اي ازعجها واشخصها واخذ بها في الترحيل ومنه الخبر تخرج عند اقتراب الساعة نار من
قعر عدن ترحل الناس وقوله فادلجي وادلجي واسدي الادلاج ان يسير
الليل كله والاسم منه الدلجة بفتح الدال والادلاج بالتشديد ان يسير من اخره والاسم
منه الدلجة بضم الدال وقيل ان الدلجة بفتح الدال وضمها بمعنى والتاويب سير النهار وجميعه
والاسآد سير الليل والنهار والسري السير دون النهار وقوله فاخرهم ما قدم
وما حدث يقال ذلك لمن يستولي عليهم الهم والدال من حدث تضم في هذا الموضع وحده ليوافق لفظ
قدم فان افرد حدث عن قدم وجب فتح الدال منه ومثله قولهم هنأني ومرأني بحذف

امرأ مرأبي إذا ذكر مع هانى فان أفردته قلت أمرأني الشيء وقوله ذهبنا تحت كل كوكب هذا المثل يضرب لمن تختلف في السفر طرقهم وتتباين سبلهم

المقامة الخامسة والأربعون الرملية

حكى الحارث بن همام قال كنت أحدث عن أولي التجاريب أن السفر مرآة الأعاجيب فلم أزل أجوب كل تنوفة وأقتحم كل مخوفة حتى اجتليت كل أطروفة ومن أحسن ما اجتليته وأغرب ما اجتنيته أني حضرت قاضي الرملة وكان من أرباب الدولة والصولة وقد ترافع إليه بالي بال وذات جمال وأسمال فهم الشيخ بالكلام وتبيان المرام فمنعته الفتاة من الإفصاح وحسأته حسء النباح ثم نضت عنها فضلة الوشاح وانسلت بلسان السليطة الوقاح

يا قاضي الرملة يا ذا الذي ... في يده التمرة والجمرة
إليك أشكو جور بعلي الذي ... لم يحجج البيت سوى مرة
وليته لما قضى نسكه ... وحط ظهرًا إذ رمى الجمرة
كان على رأي أبي يوسف ... في صلة الحجة بالعمرة
هذا على أني مذ ضمني ... إليه لم أعص له أمرة
من قبل أن أخلع ثوب الحيا ... في طاعة الشيخ أبي مرة

فقال له القاضي قد سمعت ما عزتك إليه وتوعرتك عليه فجانب ما عرك وحاذر أن تفرك وتعزل فجثا الشيخ على ثفناته وتحدر ينبوع نفثاته وقال

اسمع عداك الذم قول امرئ ... يوضح فيما رابها عذره
والله ما أعرضت عنها قلى ... ولا هوى قلبي قضى نذره
وإنما الدهر عدا صرفه ... فانتزنا الدرة والذرة
ثمر لي ثغر كأجيادها ... عطل من الخرعة والشذرة
وكنت من قبل أرى في الهوى ... وديه رأي بني عذرة

فمذ

فمذ نبا الدهر هجرت الدمى ... هجران عف آخذ حذره
وملت عن حرثي لا رغبة ... عنه ولكن أتقي بذره
فلا تلم من هذه حاله ... واعطف عليه واحتمل هذره

قال فاغتاظت المرأة من مقاله وانتضت للحج لجداله وقالت له ويلك أتضيق بالولد ذرعًا ولكل أكولة مرعى لقد ضل فهمك وأخطأ سهمك وسفهت نفسك وشقيت بك عرسك فقال لها القاضي أما أنت فلو جادلت الخنساء لانثنت عنك خرساء وأما هو فإن كان صدق في زعمه ودعوى عدمه فله في هم قبقبه ما يشغل عن ذبذبه فأطرقت تنظر ازورارًا ولا تحير حوارًا حتى قلنا قد راجعها الخفر أو حلق بها الظفر فقال لها الشيخ تعسًا لك أن زرفت أو كتمت ما عرفت فقالت ويحك وهل بعد المسافر كتم أو بقي لنا على سر ختم وما فينا إلا من صدق وتهتك صونه إذ نطق فليتنا لاقينا البكم ولم نلق الحكم ثم التفعت بوشاحها وتباكت لافتضاحها وجعل القاضي يعجب من خطبهما ويعجب ويلوم الدهر ويؤنب ثم أحضر من الورق ألفين وقال أرضيا بها الأخوين وعاضيا التنازع بين الإلفين فشكراه على حسن التراح وانطلقا كالماء والراح وطفق القاضي بعد مسرحهما وتنائي شبحهما يثني على أدبهما ويقول هل عارف بهما فقال له عين أعوانه وخالصة خلصانه أما الشيخ فالسروجي المشهود بفضله وأما المرأة فقعيدة رحله وأما تحاكمهما إليك فمكيدة من فعله وأحبولة من حبائل ختله فاحتفظ القاضي مما سمع وتلهب تلهب كيس خلع ثم قال للواشي بهما قم فردهما ثم اقصدهما وصدهما فنهض ينفض مذرويه ثم عاد يضرب أصدريه فقال له القاضي أظهر ما علمت ولا تخف ما استخبرت فقال ما زلت أستقري الطرق وأستفتح الغلق إلى أن أدركتهما مصحرين وقد هزا مطي البين فرغبتهما في العلل وكفلت لهما بنيل الأمل فقال الشيخ أو ما يأس وقال الفرار بقراب أكيس وقالت هل العود أحمد والفروقة ولما تمثل الشيخ سفه رأيها وعزره أجته آيها أمسك ذلك لها ثم أنشأ يقول لها

دونك نصحي فاقتفي سبله   واغنَ عن التفصيل بالجمل
طبرستي نقرتُ مرتخله   وطلقتها بتةً بتله
وحاذري العودَ اليها ولو   سلّطها ناظورها الأبله
فخبّر اللصَّ أن لا يرى   ببقعةٍ فيها له عمله

ثم قال لي لقد عتبت فيما وليت فارجع مرحبت جئت وقل لمرسلك ارتبيت

رويدك لا تعنف حبيك بالأذى   تنضي وشمل المال والجمع منصدع
ولا تعقصن من يد سائل   ما هو في صوغ الشان مبتدع
فإن قد يسائلك منه خدعة   فقبلك شيخ الشعر ممن قد خلع

فقال له القاصي قاتله الله ما أحسن شجونه وأملح فنونه ثم أضحت آيته مرددين وضرب العير وقال السن متبر لا يرى الالتفات إلى بري الشيخ والفتاة قبل بدهما هذا الحبا وبين لهما انجذاعي للأدبا قال الراوي فلم أرى للاغتراب كهذا العجاب واشعت منه مرجال وحاب

المقالة السادسة والعشرون

حدث الحارث بن همام قال نزع بي الى حلب شوق غلب وطلب يا له من طلب وكنت يومئذ خفيف الحاذ حثيث النفاذ فأخذت أهبة السير وخففت نحوها خفوف الطير ولم أزل منذ حللت ربوعها وارتبعت ربيعها أقضي الأيام فيما يشفي الغرام ويروي الأوام إلى أن أقصر القلب عن ولوعه واستطار غراب البين بعد وقوعه فأغراني البال الخلو والمرح الحلو بأن أقصد حمص لأضطاف بقعتها وأبصر رقاعة أهل رقعتها فانسرعت اليها انسراع النجم اذا انقض والدم مجرى حيث ينسرب وحدث زوج نسيمها لمح طرفي شيخا قد أقبل هرمه وأدبر عرمه وعنده عشر صبيان صنوان وغير صنوان فطاوعت في قصده الحرص لأختبر به أدبا حمص فبش حين وافيته وحيا بأحسن مما حييته فجلست اليه لأبلو جنا نطفه والكشف

كنه حرفه فما لبث أن أشار بعصيته الى أكبر أصيبيته وقال له أنشد الأبيات العواطل واحذر أن تماطل فجثا جثوة ليث وأنشد من غير ريث

أعدد لحسادك حد السلاح   وأورد الآمل ورد السماح
وصارم اللهو ووصل المها   وأعمل الكوم وسمر الرماح
واسع لإدراك محل سما   عماده لا لادراع المراح
والله ما السودد حسو الطلا   ولا مرام الحمد رود رداح
واها لحر درعه واسع   وهمه ما سر أهل الصلاح
مورده حلو لسؤاله   وماله ما سأله مطاح
ما أسمع الآمل ردا ولا   ماطله والمطل لؤم صراح
ولا أطاع اللهو لما دعا   ولا كسا راحا له كأس راح
سوده إصلاحه سره   وردعه أهواءه والطماح
وحصل المدح له علمه   ما مهر الحور مهور الصحاح

فقال له أحسنت يا بدر يا رأس الدير ثم قال لمنشبه بصنوه ادن يا نويرة يا قمر الدوير نورنا ولم يباطا حتى حل منه مقعد المعاطا فقال له أحل الأبيات العرايس وإن لم تكن نفايس فتري وقط ثم احتجر اللوح وخط

فتنتني فجننتني تجني   بتجن يفتن غب تجني
شغفتني بجفن ظبي غضيض   غنج يقتضي تغيض جفني
غشيتني بزينتين فشفتني   بشفتين تنتني
فتظنيت تجتبيني فتجزيني   بنفث يشفي فخيبت ظني
نتفت في حب تزين خبيث   بتغني تشقي ضغن
فنزت في تجنبي فشتني   بنشيج يشجي بغين فغني

فلما نظر الشيخ الى ما حبره ونصع مازبره قال له بورك فيك من طلا كما بورك في لا ولا

ثم هتف أقرب يا قطرب فاقترب منه فتى يحكي نجم دجيه أو تمثال دميه فقال له ارقم الابيات الاخياف وتجنب الخلاف فاخذ القلم ورقم

اسمح فبث السماح زين ولا تخب آملا تضيف
ولا تجز رد ذي سؤال فنن أم في السؤال خفف
ولا تظن الدهور تبقي مال ضنين ولو تقشف
واحلم فحفظ الكرام لغضي وصدرهم في العطا تقنف
ولا تخن عهد ذي وداد تحنث ولا تنبغ ما تزيف

فقال له لا شلت يداك ولا كل مداك ثم نادى يا غشمشم يا عطر منشم فلباه غلام كدر غواص وجؤذر قناص فقال له اكتب الابيات المتائم والأكم المثاتيم فتناول القلم المثقف وكتب غير أن يتوقف

زينت زينب بقد يقد وتلاه ويلاه نهد يهد
جندها جيدها وظرف وطرف ناعس ناعش بحد يجد
قدرها قدرها وتاهت وباهت واعتنت واعتدت بكد يكد
فأرقتني وأرقتني وشطت ثم وحد وجد
فدنت فذ بت وحنت وجنت نعضا معضا بود يود

فطفق الشيخ يتأمل ما سطر ويقلب فيه نظره فلما استحسن خطه واستصح ضبطه قال له لا شل عشرك ولا استحلت بشرك ثم هتف يا بني فتان يسفر عن ازهار بستان فقال له انشد البيتين المطرفين المشتبهي الطرفين اللذين أسماك لما فت وأمنا أن يعززا بثالث فقال له اسمع لا وقر سمعك ولا هزم جمعك وانشد من غير تلبث ولا تريث

سم سمة تحمد آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسمه
والمكر مهما اسطعت لا تأته لتقتني السودد والمكرمه

فقال له

له أجدت يا زغلول يا أبا الغلول ثم نادى أوضح يا أسبس ما يشكل من أدوات السين فنهض ولم يتأن وأنشد بصوت أغن

نقش الدواة ورشح الكف مثبتة شينا هما إن هما خطا وإن درسا
وهكذا السين في قسب وناسقه والسنخ والبخس واقسر واقبس قبسا
وقد تفشت بها للبل الكلام وفي مشيط وشموش وانجد جز شسا
وفي قريش وبرد قارش فخذ الصواب مني وكن للعلم مقتبسا

فقال له أحسنت يا نغبش يا صناجة الجيش ثم قال ثب يا عنبسه وبين الصادات الملتبسه فوثب وثبة شبل مثار ثم أنشد من غير عثار

بالصاد تكتب قد قمصت دراعها يا نا ملي واصح لتستمع الخبر
وبصقت أبصق والصماخ وصنجة والقص وهو الصدر واقصص الأثر
وبحصت مقلته وهاري قرصة وقد ارعدت منه الفريصة للحذر
وقصرت هندا أي حبست وقد بدا فصح النصارى وهو عيد منتظر
وقرصته والخمر قارصة إذا حذت اللسان وكل هذا مستطر

فقال له رعيا لك يا بني فلقد قررت عيني ثم استنهض ذا اجنة كالبيدق ونغشة كالشوذق وأمر بأن يقف بالمرصاد ويسرد ما أجري على السين والصاد فنهض يسحب برديه ثم انشد مشيرا بيديه

إن شئت بالسين فاكتب ما أبينه وإن تشا فهو بالصاد الذي كتبا
مغص وفقص ومسطار وملتمس وسالغ وصراط الحق والسقب

المغص لوجع المعترض في الجوف وهو مشكل العين والفقص فقص البيضة والمسطار الخمرة المزة ويقال لها المسطارة أيضا والملتمس الذي يسقط من يدك والذي ينشعر به والسالع آخر اسنان ذوات الظلف والسقب القرب ه والسامغان صفر والسين وسلاق وع كل هذا انفصح الكتب السامغان جانبا الفم والمسلاق الشديد الصوت ومنه قوله لوا سلقوكم بألسنة حداد فقال له أحسنت يا جبقه يا عين بقه ثم نادى يا دغفل يا أبا زنقل فلباه فتى أحسن من بيضة في روضة

فقال له ما عنيت بهجاء الأفعال التي آخرها حرف اعتلال فقال له اسمع أصمّ صداك وأصمت عداك ثم أنشد وما تلعثم ولا ارتشف

إذا الفعل يوماً غمّ عنك هجاؤه فألحق به تاء الخطاب ولا تقف
فإن ترقبل التاء ياء فكتبه بياء وإلا فهو يكتب بالألف
ولا تحسب الفعل الثلاثي والذي تعدّاه والمهموز في ذاك يختلف

فطرب الشيخ لما أدّاه وعوّذه وفدّاه ثم قال لهم يا قعقاع يا بابا قعقعة البقاع فأقبل كالرئبال القرى في عين أبي الشرى فقال له أصدع بتمييز الظاء من الضاد لتصدع أكباد الأضداد فاهتزّ لقوله واهتشّ ثم أنشد بصوت أجش

أيها السائلي عن الضاد والظاء لكيلا تضلّه الألفاظ
إن حفظ الظاءات يغنيك فاسمعها استماع امرئ له استيقاظ
هي ظمياء والمظالم والإظلام والظلم والظبى واللحاظ
والعظا والظليم والظبي والشيظم والظل واللظى والشواظ
والتظنّي واللفظ والنظم والتقريظ والقيظ والظما واللماظ
والحظا والنظير والظئر والجاحظ والناظرون والأيقاظ
والتشظّي والظلف والعظم والظنبوب والظهر والشظا والشظاظ
والأظافير والمظفّر والمحظور والحافظون والإحفاظ
والحظيرات والمظنّة والظنّة والكاظمون والمغتاظ
والوظيفات والمواظب والكظّة والانتظار والإلظاظ
ووظيف وظالع وعظيم وظهير والفظّ والإغلاظ
ونظيف والظرف والظلف الظاهر ثم الفظيع والوعّاظ
وعكاظ والظعن والمظ والحنظل والقارظان والأوشاظ

الظمآن البرة والقارظ جاني القرظ وهو النبات المدبوغ به والأوشاظ الأخلاط والجماعات ٥

وظراب الظرّان والشظف الباهظ والجعظري والجوّاظ

الظراب الربى الصغار واحدتها ظَرِب والظرّان الحجارة المحدّدة واحدتها ظُرَرة والجعظري المنتفخ بما ليس عنده والجوّاظ الفاجر وقيل الأكول المختال والشظف سوء العيش ٥ والظرابين والحناظب والعنظب الظرابين جمع ظربان وهي دابة لا يطاق نتنها وتجمع أيضاً على ظرابي بحذف النون وعلى ظربى وهو جمع شاذّ والحناظب ذكور الخنافس والعنظب ذكر الجراد والظيّان ياسمين البر والأرعاظ جمع رعظ وهو مدخل النصل في السهم

والشناظي والدلظ والظأب والظبظاب والعنظوان والجنعاظ ٥

الشناظي نواحي الجبل والدلظ الدفع والظأب الصخب وقد تبدل الباء منه ميماً وقيل إن الظأب والظأم اسمان لسلف الرجل والعنظوان نبت والظبظاب الداء يقال ما به ظبظاب كما يقال ما به قلبة والجنعاظ الأكول وقيل إنه المتسخّط عند الطعام ٥

والشناظير والتعاظل والعظلم والنظر بعد والإنعاظ

وهو السيء الخلق والتعاظل تلازم الجراد والكلاب عند السفاد والعظلم الخطمي

هي هذي فاحفظها سوى النوادر لتقفو آثارك الحفاظ
واقض فيما صرّفت منها كما تقضيه في أصله كقيظ وقاظوا

فقال الشيخ أحسنت لا فُضّ فوك ولا برم محفوك فوالله إنك مع الصبي الغض أحفظ من الأرض وأجمع من يوم العرض ولقد أوتيت حكمة ورزقت زلالي وتثقيفكم تثقيف العوالي فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون قال الحارث بن همام فعجبت لما أبدى من براعة معجزة برقاعة وأظهر من حذاقة ممزوجة بحماقة ولم أزل أنظر إليه بتصعيد فيه وتصويب وأنقر عنه وأنقب وهو كمن ينظر في ظلماء أو يسري في بهماء فلما استراق تنبّهي واستبان تدلّهي حملق إليّ وتبسّم ولم ينقم بتوسّم فنبّهت لفحوى كلامه وحدقته أبا زيد عند ابتسامه وأخذت ألومه على تدبير بتعة النوكى وتخيّر حرفة الحمقى فكأنّ وجهه أسفّ رماداً أو أشرب سواداً إلا أنه أنشد ولم يتمادى

تخيّرت حمص وهذي الصناعة لأرزق حظوة أهل الرقاعة ٥
فما يصطفي الدهر غير الرقيع ولا يوطن المال إلا بقاعه
والأحمق للسعد دهره سوى ما العير ... نفاعه

ثم قال أمّا إنّ التعليم أشرف صناعه وأربح بضاعه وأنجح شفاعه وافضل براعه وربّه
ذو إمرةٍ مطاعه وهيبةٍ مشاعه ورعيّةٍ مطواعه يتسيطر تسيطر أمير ويرتّب
ترتيب وزير ويتحكّم تحكّم قدير ويتشبّه بذي ملكٍ كبير لولا أنّه يخرّف في أمدٍ يسير
ويتّسم بحمقٍ شهير وينقلب بعقلٍ صغير ولا ينبئك مثل خبير فقلت له تالله إنّك لابن الأيّام
وعلم الأعلام والسّاحر اللاعب بالأفهام المذلّل له سبل الكلام ثم لم أزل معتكفا
بناديه ومعترفا من نيل واديه إلى أن غابت الأيّام الغرّ وبانت الأحداث الغبر
ففارقته ولعيني العبر

المقامة السابعة والأربعون

حكى الحرث بن همام قال احتجت إلى الحجامه وأنا بحجر اليمامه فأرشدت إلى شيخٍ يحجم بلطافه ويسفر عن نظافه
فبعثت غلامي لإحضاره وأرصدت نفسي لانتظاره فأبطأ بعدما انطلق حتّى خلته قد أبق
أو ركب طبقا عن طبق ثم عاد عود المخفق مسعاه الكلّ على مولاه فقلت له ويلك أأبطأ فندا
وصلودا زند فزعم أنّ الشيخ أشغل من ذات النحيين وفي حرب بحرٍ خبير فعفت المشي إلى حجّام وحرت
بين إقدام وإحجام ثم رأيت أن لا أتعنّف على من يأتي الكنيف فلمّا شهدت موسمه وشاهدت ميسمه
رأيت شيخا هيئته لطيفه وحركته خفيفه وعليه من النظّار أطواق ومن الزحام طباق وبين
يديه فتى كالقضامه متشوّف للحجامه والشيخ يقول له أراك قد أبرزت رأسك قبل
أن تبرز قرطاسك وتبغيني فذالك قبل أن تعجّل لي ذاك ولست ممّن يبيع نقدا بدين ولا ممّن يطلب أثرا بعد
عين فإن رضيت بالغبن جمحت في الأخذ عين وإن كنت ترى الشيء أولى وخرب القلس
إلى الفلس أحلى فاقرأ عبس وتولّى واغرب عنّي وإلّا فقال الفتى والذي حرّم صوغ المين كما حرّم
صيد الحرم إنّي لأفلس من ابن يومين فثق بسيل تلعتي وأنظرني إلى سنعتي فقال الشيخ ويحك
إنّ مثل الوعود كغرس العود هو بين أن يدركه العطب أو يدرك منه الرطب فما يدريني أأحصل منه على
جنى أم أحصل منه على ضنى ثم ما الثقة بأنّك حين تبتعد تستفي بما تعد وقد صار الغدر
كالتحجيل في حلية هذا الجيل فأرحني بالله من التعذيب وارحل إلى حيث يعوي الذيب فاستوى
الغلام إليه وقد استولى الخجل عليه وقال والله ما يخيس بالعهد غير الخسيس ولا يرد غمد بر

إلا الوضيع القدر ولو عرفت من أنا لما أسمعتني الخنا لكنّك جهلت فقلت وحيث وجب أن تجد بلت وما أقبح
الغربة والإقلال وأحسن قول من قال

إنّ الغريب الطويل الذيل ممتهن ... فكيف حال غريبٍ ما له قوت
لكنّه ما تشين الحرّ مؤلمة ... فالمسك يسحق والكافور مفتوت
وطالما أصلي الياقوت جمر غضا ... ثم انطفى الجمر والياقوت ياقوت

فقال له الشيخ يا ويله أبيك وعولة أهليك أأنت في موقف فخرٍ تطهّر وحسبٍ تشهّر أم موقف جلدٍ تكشط
وقفا يشرط وهبك كما ادّعيت وسلم أنّ لك البيت أتحصّل بذلك حجم فذالك لا والله ولو أنّ اباك
أناف على عبد مناف أو خالك دان عبد المدان فلا تضرب في حديدٍ بارد ولا تطلب ما لست له
بواجد وباه إذا باهيت بموجودك لا بجدّك وبمحصولك لا بأصولك وبصفاتك لا برفاتك وبأعلاقك لا
بأعراقك ولا تطع الطمع فيذلّك ولا تتّبع الهوى فيضلّك ولله القائل لابنه

بنيّ استقم فالعود تنمي عروقه ... قويما إذا التهبت أحشاؤه بالطوى طوى
وعاص الهوى المردي فكم من محلّقٍ ... إلى النجم لمّا أن أطاع الهوى هوى
وأسعف ذوي القربى فيقبح أن يرى ... على الجنّة اللبّاب الصوى صوى
وحافظ على من لا يخون إذا نبا ... زمانٌ ومن يرعى إذا ما النوى نوى
وإن تقدر فاصفح فلا خير في امرئٍ ... إذا اعتلقت أظفاره الشوى شوى
وإيّاك والشكوى فلم ير ذا نهى ... شكا بل أخو الجهل الذي ما ارعوى عوى

فقال الغلام للنظّارة بالنجيبه والطرفة العجيبه أنفٌ في السماء واستٌ في الماء ولفظٌ كالصهبا وفعلٌ
كالحصباء ثم أقبل على الشيخ بلسانٍ سليط وغيظٍ مستشيط وقال أفٍّ لك من ضيّق الباع باللسان زوّاغ عن الإحسان
يأمر بالبرّ ويعقّ عقوق الهرّ فإن يكن سبب تعنّتك نفاق صنعتك فرماها الله بالكساد وإفساد الحسّاد
حتّى ترى أفرغ من حجّام ساباط وأضيق رزقا من سمّ الخياط فقال له الشيخ بل سلّط الله عليك نزف الدم وتبيّغ
الدم حتّى تلجأ إلى حجّام عظيم الاشتطاط ثقيل الاشتراط كليل المشراط كثير المخاط والضراط قال
فلمّا سمع الفتى أنّه يشكو إلى غير مشكت ويزاول استفتاح بابٍ مصمت أضرب عن رجع الكلام واحتفز
للقيام وعلم الشيخ أنّه قد آلم بما أسمع الغلام فجنح إلى استمالته وبذل أن يذعن لحكمه

والابتغى أجرًا على حجه وأبى الغلام الا التشبث بدأبه والتهرب من لقابه وما زالا في حجاج وسباب ولزاز وجذاب إلى أن ضج الفتى من الشقاق وتلا زدته سورة الانشقاق فأعول حنينه لو فار من خسر والعطا عن صده وظلمه واختلاس ببعض من فرطاته وتغيض من عثراته وهو لا يصغي إلى عذاره ولا يقصر عن استعباره إلى أن قال له فداك عمك وعداك غمك أما تسأم الاعوال أما تعرف الاحتمال ألم تسمع من قال وأخذ بقول من قال

أخمد بحلمك ما يذكيه ذو سفه | من نار غيظك واصفح إن جنى جاني

فالحلم أفضل ما ازدان اللبيب به | والأخذ بالعفو أحلى ما جنى جاني

فقال له الغلام أما إنك لو اطلعت على عيشي المنكد لعذرتني في دمعي المنهمر ولكن هان على الأملس ما يلقى الدبر ثم كأنه نزع إلى الاستحيا فأقلع عن البكا وأقبل إلى الارعوا وقال للشيخ قد صرت إلى ما شئت فارفع ما أوهيت فقال هيهات شغلت شعابي جدواي فثم بارق سواي ثم إنه نهض يستقري الصفوف ويستجدي الوقوف وينشد في ضمن ما يطوف

أقسم بالبيت الحرام الذي | تهوي إليه الزمر المحرمه
لو أن عندي قوت يوم لما | متشبثي المشراط والمحجمه
ولا ارتضت نفسي التي لم تزل | تسمو إلى المجد بهذي السمه
ولا اشتكى هذا الفتى غلظة | مني ولا شاكته مني حمه
لكن صروف الدهر غادرتني | كخابط في الليلة المظلمه
واضطرني الفقر إلى موقف | مردونه خوض اللظى المضرمه
فهل فتى تبذله رقة | علي أو تعطفه مرحمه

قال الحارث بن همام فكنت أول من أوى لبلواه ورق لشكواه فنفحته بدرهم وقلت له أكانا ولو كان ذا مس فابتهج بباكورة جناه وتفاءل بها لغناه ولم تزل الدراهم تنهال عليه وتنثال لديه حتى آل ذا غنيمة حضراء وحقيبة بجرا فاستخفه الفرح عند ذلك وهنا نفسه هنالك وقال للغلام هذا أنت بذرته وجلب لك شطره فهلم لنقتسم ولا تحتشم وتقاسماه بينهما

شق

الأبلمة ونهضنا متفقي الكلمة ولما انتظم عقد الاصطلاح وهمّ الشيخ بالرواح قلت له قد تسوغ دمي وتوليت كبد قدمي فهل لك في أن تحمي وتكفكف ما دهمني فصوّب طرفه فيّ وصعّد ثم ازدلف إليّ وأنشد

كيف رأيت خدعتي وختلي | وما جرى بيني وبين نجلي
حتى اجتنيت فائزًا بالخصل | أرعى رياض الخصب بعد المحل
بالله يا مهجة قلبي قل لي | هل أبصرت عيناك قط مثلي
يفتح بالرقية كل قفل | ويستبي بالسحر كل عقل
ويمزج الجد بمحض الهزل | إن يكن الإسكندري قبلي
فالطل قد يبدو أمام الوبل | والفضل للوابل لا للطل

قال فنبهتني أرجوزته عليه وأرتني أنه شيخنا المشار إليه فقرّعته على الابتذال والإلحاف بالأرذال فأعرض عاشع ولم يبل بما قرع وقال لكل أحد نحيزة الخافي الورع ثم فاصلني مفاصلة الطهان والطلق وأنشبه كفر بي ابن هان قال ... ابن علي فداود عن هذه المقامة لضعة عشر مثلا من أمثال العرب منها ما خلته يلتبس على من يقتبس أما قولهم بطنا فنل فهو مولى عايشة بن سعد بن أبي وقاص وكانت بعثته بالمدينة ليقتبس لها نارًا فقصد مصر وأقام بها سنة ثم جاءها بعد السنة ومعه جمرة فتبددت منه فقال تعست العجلة وأما ذات النحيين فهي امرأة من هذيل من بني تيم الله بن ثعلبة حضرت سوق عكاظ ومعها نحيا سمن فتخلى بها خوات بن جبير الأنصاري ليبتاعهما منها ففتح أحدهما وذاقه ودفعه إليها فأمسكته بإحدى يديها ثم فتح الآخر وذاقه ودفعه إليها فأمسكته بيدها الأخرى ثم غشيها وهي لا تقدر على الدفع عن نفسها لحفظها فم النحيين وشحها على السمن فلما قام عنها قالت له لا هناك فضرب بها المثل فقيل أشغل من ذات النحيين وهي في هذا المثل مفعولة لأنها شغلت وأكثر الأمثال التي على أفعل تأتي عن فعل لا فاعل وأما قوله أنف في السما واست في الما فيضرب هذا المثل لمن يتكبر مقالا ويتصغر فعالا وأما قوله أفرغ من حجام ساباط فذكر أنه كان حجامًا ملازمًا ساباط المداين يحجم الجيش بدانق نسيئة وربما مرت عليه برهة لا يقربه فيها أحد فكان يبرز أمه عند تمادي عطلته

ويحجمها لئلا يفرع بالبطالة فما زال يحجمها حتى نزف دمها وماتت وأما قوله نشكو إلى غير مصمت
وهو مثل يضرب لمن لا يكترث بشأن صاحبه ولا يبالي باستمرار شكايته لأنه لو شكاه لصمت أو أمسك
عن الكلام ومنه قول الراجز يخاطب جملا له   إنك لا تشكو إلى مصمت   فاصبر على الحمل الثقيل أو مت
وهو هذا المثل هان على الأملس ما لاقى الدبر وأما قوله شغلت شعابي جدواي فالمراد به
أنه ليس يفضل عني ما أصرفه إلى غيري والشعاب النواحي واحدها شعب وقوله كل الحذاء يحتذي
الحافي الوقع معناه أن المجهود يقتنع بما يجد والوقع أن تصيب الحجارة القدم فتوهنها
وأما البعير الموقع فهو الذي تكثر آثار الدبر بظهره

المقامة الثامنة والأربعون

وتعرف بالحرامية   روى الحرث بن همام عن أبي زيد السروجي قال
ما زلت مذ رحلت عنسي وارتحلت عن عرسي وغرسي أحن إلى عيان البصرة حنين المظلوم إلى النصرة
لما أجمع عليه أرباب الدراية وأصحاب الرواية من خصائص معالمها وعلمائها ومآثر مشاهدها
وشهدائها وأسأل الله تعالى أن يوطئني ثراها لأفوز بمرآها وأن يمطيني قراها لأقتري
قراها فلما أحلنيها الحظ وسرح لي فيها اللحظ رأيت بها ما يملأ العين قرة ويسلي عن الأوطان كل غريب
فغلست في بعض الأيام حين نصل خضاب الظلام وهتف أبو المنذر بالنوام لأخطو في خططها وأقضي
الوطر من توسطها فأداني الاختراق في مسالكها والانصلات في سككها إلى محلة موسومة
بالاحترام منسوبة إلى بني حرام ذات مساجد مشهودة وحياض مورودة ومبان وثيقة ومغان
أنيقة وخصائص أثيرة ومزايا كثيرة   بها ما شئت من دين ودنيا   وجيران تنافوا في المعاني

فمشغوف بآيات المثاني   ومفتون برنات المثاني
ومضطلع بتلخيص المعاني   ومطلع إلى تخليص عاني
وكم من قارئ وقار   أضروا بالجفون وبالجفان
وكم من معلم للعلم فيها   وناد للندى حلو المجاني
ومغنى ما تزال تغن فيه   أغاريد الغواني والأغاني
فصل إن شئت فيها من يصلي   وإما شئت فادن من الدنان

ودونك صحبة الأكياس فيها   أو الكاسات مطلق العنان

قال فبينما أنا أنفض طرقها واستشف زرقها إذ لمحت عند دلوك براح واطلال الرواح مسجدا مشتهرا بطرافه
مزدهرا بطوائفه وقد أجرى أهله ذكر حروف البدل وجروا في حلبة الجدل فعجت نحوهم
لا لأقتبس نحوهم بل لأقتبس نجوهم فلم يك إلا كقبسة العجلان حتى ارتفعت أصوات الأذان ثم ردف
التأذين بروز الإمام فأغمدت ظبى الكلام وحلت الحبى للقيام وشغلنا بالقنوت عن استمداد القوت
وبالسجود عن انتزال الجود ولما قضي الفرض وكاد الجمع ينفض انبرى من الجماعة كهل حلو البراعة
له مع السمت الحسن ذلاقة اللسن وفصاحة الحسن وقال يا جيرتي الذين اصطفيتهم على أغصان
شجرتي وجعلت حلتهم دار هجرتي واتخذتهم كرشي وعيبتي وأعددتهم لحضرتي وغيبتي أما
تعلمون أن لبوس الصدق أبهى الملابس الفاخرة وأن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة وأن
الدين إمحاض النصيحة والإرشاد عنوان العقيدة الصحيحة وأن المستشار مؤتمن والمسترشد
بالنصح قمن وأن أخاك هو الذي عذلك لا الذي عذرك وصديقك من صدقك لا من صدقك فقال
له الحاضرون أيها الخل الودود والخدن المودود ما سر كلامك الملغز وما شرح خطابك الموجز
وما الذي تبغيه منا لننحو ولو أعجز فوالذي حبانا بمحبتك وجعلنا من صفوة أحبتك ما نألوك
نصحا ولا ندخر عنك نضحا فقال جزيتم خيرا ووقيتم ضيرا فإنكم ممن لا يشقى بكم جليس ولا يصدر عنهم تلبيس
ولا يخيب فيهم مظنون ولا ينطوي دونهم مكنون وسأبثكم ما حاك في صدري وأستفتيكم فيما عيل صبري

اعلموا أني كنت عند صلود الزند وصلود الحد أخلصت مع الله نية العقد
وأعطيته صفقة العهد على أن لا أشايع المدام ولا أعاقر الندام ولا أحتسي قهوة ولا أكتسي
نشوة فسولت لي النفس المضلة والشهوة المذلة أن نادمت الأبطال وعاطيت الأرطال
وأضعت الوقار وارتضعت العقار وامتطيت مطا الكميت وتناسيت التوبة كالميت
ثم لم أقنع بما أتيتكم من المعرة في طاعة أبي مرة حتى عكفت على الخندريس في يوم الخميس وبت صريع
الصهباء في الليلة الغراء وها أنا بادي الكآبة لرفض الإنابة عاني الندامة لوصل المدامة

شديد الإشفاق من نقض الميثاق معترف بالإسراف في عيث الإتلاف

فيا قوم هل كفارة تعرفونها تباعد من ذنبي وتدني الى الزلفى

قال ابو زيد فلما حل أنشوطة نفثه وقضى الوطر من أشكاء بثه ناجتني نفسي يا ابا زيد هذه نهزة صيد فشمر عن يد وأيد فانتهضت من مجثمي انتهاض الشهم وانخرطت من الصف انخراط السهم وقلت

أيها الأروع الذي فاق مجدا وسؤددا
والذي يبتغي الرشاد ليتخذه غدا
إن عندي علاج ما بت منه مسهدا
فاستمعها عجيبة غادرتني مبلدا
أنا من ساكني سروج ذوي الدين والهدى
كنت ذا ثروة بها ومطاعا مسودا
من يجي مألف الضيوف ومالي مبددا
اشتري الحمد باللهى وأقي العرض بالجدى
لا أبالي بمنفس طاح في البذل والندى
أوقد النار باليفاع إذا النكس أخمدا
ويرانى المؤملون ملاذا ومقصدا
لم يبتهم بارق صد فانثني يشتكي الصدى
لا ولا رام قابس قدح زندي فأصلدا
طالما ساعد الزمان وأضحت مسعدا
فقضى الله أن يغير ما كان عودا
بوأ الروم أرضنا بعد ضغن توقدا
فاستباحوا حريم من صاد فوم موحدا

وحووا

وحووا كل ما استترت بطالي وما بدا
فتطوحت في البلاد طريدا مشردا
أجتدي الناس بعد ما كنت من قبل مجتدى
وتزجي بي خصاصة أتمنى لها الردى
والبلاء الذي به شمل أنسي تبددا
إستباء ابنتي التي أسروها لتفتدا
فانثن بي محننتي ومد إلى نصرتي يدا
وأجرني من الزمان فقد جار واعتدى
وأعني على فكاك ابنتي من يد العدى
فبذا تمحى المآثم عمن تمردا
وبه تقبل الإنابة ممن تزهدا
وهو كفارة لمن زاغ من بعد ما اهتدى
ولئن قمت منشدا فلقد قمت مرشدا
فاقبل النصح والهداية واشكر لمن هدى
وانتج الرأي بالذي يقتضي لتحمدا

قال ابو زيد فلما أتممت هذرمتي وأوهم المسؤول صدق كلمتي أغراه القرم الى الكرم بمواساتي ورغبه التكلف بحمل الكلف في مقاساتي فرضخ لي على الكفاف ونضح لي بالعرف الوافي فانقلبت إلى وكري فرحا بنجح مكري وقد حصلت من ضوع المكيدة على سوغ الثريدة ووصلت من حول القصيدة الى لوك العصيدة قال الحارث بن همام فقلت له سبحان الله من أبدع عملك فما أعظم خدعك فاستغرب في الضحك ثم انشد غير مرتبك

عش بالخداع فأنت في دهر بنوه كأسد بيشه

وأدِرْ قَناةَ المَكْرِ حتّى تَستَدِ يرْ رَحا المَعيشَه
وصِدِ النُسورَ فإن تَعَذْ ذَرَ صَيدُها فاقْنَعْ برِيشَه
واجْنِ الثِمارَ فإن تَفُتْكَ فَرُضْ نَفسَكَ بالحَشيشَه
وأرِحْ فُؤادَكَ إنْ نَبا دَهْرٌ مِنَ الفِكَرِ المُطيشَه
فتَغايُرُ الأحْداثِ يُؤْذِنُ باستِحالَةِ كُلِّ عيشَه

المقامة التاسعة والأربعون الساسانية

حكى الحارث بن همام قال بلغني أنّ أبا زيد حين ناهز القبضة وابتزّه قيد الهرم النهضة أحضر ابنه بعد ما استجاش نفسه وقال له يا بنيّ إنه قد دنا ارتحالي من الفِنا واكتحالي بمرود الفَنا وأنت بحمد الله وليّ عهدي وكبش الكتيبة الساسانية من بعدي ومثلك لا تقرع له العصا ولا ينبّه بطرق الحصا ولكن قد ندب إلى الإذكار وجعل صيقلا للأفكار وإني أوصيك بما لم يوص به شيث الأنباط ولا يعقوب الأسباط فاحفظ وصيّتي وجانب معصيتي واحتذ مثالي واقتف أمثالي فإنك إن استنصحت بنصحي واستصبحت بصبحي أمرع خانك وارتفع دخانك وإن تناسيت سورتي ونبذت مشورتي قلّ رمادك أثافيك وهان أهلك ورهطك فيك يا بنيّ إني جرّبت حقائق الأمور وبلوت تصاريف الدهور فرأيت المرء بنشبه لا بنسبه والتخصّص عن مكسبه لا عن حسبه وكنت سمعت أنّ المعايش إمارة وتجارة وزراعة وصناعة فمارست هذه الأربع لأنظر أيّها أوفق وأنفع فما أحمدت منها معيشة ولا استرغدت فيها عيشة أمّا فرص الولايات وخلس الإمارات فكأضغاث الأحلام والفيء المنتسخ بالظلام وناهيك غصّة بمرارة الفطام وأمّا بضائع التجارات فعرضة للمخاطر وطعمة للغارات وما أشبهها بالطيور الطيّارات وأمّا اتّخاذ الضياع والتصدّي للازدراع فمنهكة للأعراض وقيود عائقة عن الارتكاض وقلّما خلا ربّها من إذلال أو رزق روح بال وأمّا حِرَف ذوي

الصناعات فغير فاضلة عن الأقوات ولا نافقة في جميع الأوقات ومعظمها معصوب بشبيبة الحياة ولم أر ما هو بارد المغنم لذيذ المطعم وافي المكسب صافي المشرب إلّا الحرفة التي وضع ساسان أساسها ونوّع أجناسها وأضرم في الخافقين نارها وأوضح لبني غبراء منارها فشهدت وقائعها معلما واخترت سيماها لي ميسما إذ كانت المتجر الذي لا يبور والمنهل الذي لا يغور والمصباح الذي يعشو إليه الجمهور ويستصبح به العمي والعور وكان أهلها أعزّ قبيل وأسعد جيل لا يرهقهم مسّ حيف ولا يقلقهم سلّ سيف ولا يخشون حمة لاسع ولا يدينون لدان ولا شاسع ولا يرهبون من برق ورعد ولا يحفلون بمن قام وقعد أنديتهم منتزهة وقلوبهم مرفّهة وطعمهم معجّلة وأوقاتهم غرّ محجّلة أينما سقطوا لقطوا وحيثما انخرطوا خرطوا لا يتّخذون أوطانا ولا يتّقون سلطانا ولا يمتازون عمّا يغدو خماصا وتروح بطانا فقال له ابنه يا أبة لقد صدقت فيما نطقت ولكنك رتقت وما فتقت فبيّن لي كيف أقتطف ومن أين تؤكل الكتف فقال يا بنيّ إنّ الارتكاض بابها والنشاط جلبابها والفطنة مصباحها والقحة سلاحها فكن أجول من قطرب وأسرى من جندب وأنشط من ظبي مقمر وأسطى من ذئب متنمّر واقدح زند جدّك ... واقرع باب زعيمك بشغبك وجب كلّ فجّ وخض كلّ لجّ وانتجع كلّ روض وألق دلوك إلى كلّ حوض ولا تسأم الطلب ولا تملّ الدأب فقد كان مكتوبا على عصا شيخنا ساسان من طلب جلب ومن جال نال وإيّاك والكسل فإنه عنوان النحوس ولبوس ذي البؤس ومفتاح المتربة ولقاح المتعبة وشيمة العجزة الجهلة وشنشنة الوكل التكلة وما اشتار العسل من اختار الكسل ولا ملأ الراحة من استوطأ الراحة وعليك بالإقدام ولو على الضرغام فإنّ جراءة الجنان تنطق اللسان وتطلق العنان وبها تدرك الحظوة وتملك الثروة كما أنّ الخرق صنو الكسل وسبب الفشل ومنطاة للعطل ومخيبة للأمل ولهذا قيل

في المثل من عزّ بزّ ومن هاب خاب ثم أبكر يا بني باكور أبي زاجر وجرأة أبي الحارث
وحزامة أبي قرة وختل أبي جعدة وحرص أبي عقبة ونشاط أبي وثاب ومكر أبي الحصين
واخدع بسحر البيان وصبر أبي أيوب وتلطف أبي غزوان وتلوّن أبي براقش واخلب
بصوغ اللسان واخدع بسحر البيان وارتد الشوق قبل الحلّ وامتر الضرع قبل الحلب
وسايل الركبان قبل المنتجع وامهد لجنبك قبل المضطجع واتخذ بصيرتك للعيافة وأمعن
نظرك في القيافة فإن من صدقت توسّمه طال تبسّمه ومن أخطأت فراسته أبطأت فريسته
وكن يا بني خفيف الكلّ قليل الدلّ راغبا عن العلّ فإن عار الويل بالطلّ وعظم وقع الكفير
واشكر على النقير ولا تقنط عند الردّ ولا تستبعد رشح الصلد ولا تيأس من روح الله
إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون وإذا اختبرت بين ذرية منضودة ودين موعوده
فمل إلى النقد وفضّل اليوم على الغد فإن للتأخير آفات وللعزائم بدوات وللعدات
معقبات وبينها وبين التنجز عقبات وأي عقبات وعليك بصبر أولي العزم ورفق ذوي الحزم
وجانب حرص المنبسط وتحلّ بأخلاق التسبّط وتقبل الدرهم بالزبد وتسبّب لذلك بالسبط
ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ومتى نبا بك بلد أو نابك فيه كمد فبتّ
منه أملك وأسرع عنه رحلك فخير البلاد ما حملك ولا تستثقلن الرحلة ولا تكرهن النقلة
فإن أعلام شريعتنا وأشياخ عشيرتنا أجمعوا على أن الحركة بركة والطراوة سفتجة وزروا على
من زعم أن الغربة كربة وأن النقلة مثلة وقالوا هي تعلة من اقتنع بالرذيلة ورضي بالخشف والوكيلة
وسوء الكيلة وإذا أزمعت الاغتراب وأعددت له العصا والجراب فتخير الرفيق المشعل
مرتقب أن تصعد فإن الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق ثم أنشد

خذها إليك وصية لم يوصها قبلي أحد
غرّ أحاجيها خلاصات المعاني والزبد
نقحتها نقح امرئ محض النصيحة واجتهد

فاعمل

فاعمل بما مثّلته عمل اللبيب أخي الرشد حتى يقول الناس هذا الشبل من ذاك الأسد
ثم قال له يا بني قد أوصيت واستقصيت فإن اهتديت فواها لك وإن اعتديت فواها منك
والله خليفتي عليك وأرجو ألا تخلف ظني فيك فقال له ابنه يا أبة لا فضّ عرشك ولا
رفع نعشك فلقد قلت سديدا وعلمت رشيدا ونحلت ما لم ينحل والد ولدا ولئن
أمهلت بعدك ولا ذقت فقدك لأتأدبن بآدابك الصالحة ولأقتدين بآثارك
الواضحة حتى يقال ما أشبه الليلة بالبارحة والغادية بالرائحة فاهتز أبو زيد لجوابه
وابتسم وقال من أشبه أباه فما ظلم قال الحارث بن همام فأخبرت أن بني ساسان حين
سمعوا هذه الوصايا الحسان فضلوها على وصايا لقمان وحفظوها كما تحفظ أم القرآن
حتى إنهم ليرونها إلى الآن أولى ما يلقنونه الصبيان وأنفع لهم من نحلة العقيان

المقامة الخمسون

حكى الحارث بن همام قال أشعرت
في بعض الأيام همّا برّح بي استعاره ولاح عليّ شعاره وكنت سمعت أن غشيان
مجالس الذكر يسرو غواشي الفكر فلم أر لإطفاء ما بي من الجمرة إلا قصد الجامع بالبصرة
وكان إذ ذاك مأهول المسانيد مشفوع الموارد تجتنى من رياضه أزاهير الكلام ويسمع في
أرجائه صرير الأقلام فانطلقت إليه غير وان ولا لاو على شان فلما وطئت حصاه
واستشرفت أقصاه تراءى لي ذو أطمار بالية فوق صخرة عالية وقد عصبت به عصب الحصى
عصب لهم ولا ينادي وليدهم فانتدبت قصده ونويت ورده ورجوت أن
أجد شفائي عنده ولم أزل أتنقل في المراكز وأتخطى للذكر والواكز إلى أن جلست
تجاهه وتجنبت أمنت اشتباهه فإذا هو شيخنا السروجي لا ريب فيه ولا لبس يخفيه
فتسرى انسراء همي وارفضّت كتيبة غمي وحين لأى بي ونظر مكاني قال يا أهل
البصرة رعاكم الله تعالى ووقاكم وقوى تقاكم فما أضوع رياكم وأفضل مزاياكم
بلدكم أوفى البلاد طهرة وأزكاها فطرة وأفسحها رقعة وأمرعها نجعة وأقومها قبلة
وأوسعها دجلة وأكثرها أنهارا ونخلة وأحسنها تفصيلا وتجملة دهليز البلد الحرام

وفيها الباب والمقام، وأحد جناحي الدنيا، والمصر المؤسس على التقوى، لم يدنس ببيوت
النيران، ولا طيف فيه بالأوثان، ولا سجد على أديمه لغير الرحمن، ذات المشاهد المشهودة، والمساجد
المقصودة، والمعالم المشهورة، والمقابر المزورة، والآثار المحمودة، والخطط المحدودة، بها تلتقي
الفلك والركاب، والحيتان والضباب، والحادي والملاح، والقانص والفلاح،
والناشب والرامح، والسارح والسابح، ولها آية المد الفائض، والجزر الغائض.
وأما أنتم فلا اختلاف في خصائصكم اثنان، ولا ينكرها ذوو الشنآن، فكلكم
أطوع رعية لسلطان، وأشكرهم للإحسان، وزاهدكم أورع الخليقة، وأحسنهم طريقة
على الحقيقة، وعالمكم علامة كل زمان، والحجة في كل أوان، ومنكم من استنبط علم النحو ووضعه،
والذي ابتدع ميزان الشعر واخترعه، وما من فخر إلا ولكم فيه اليد الطولى، وأنتم فيه أحق
وأولى، ثم أنتم أكثر أهل مصر مؤذنين، وأحسنهم في النسك قوانين، وبكم اقتدي في التعريف، وعرف
التجمير في الشهر الشريف، ولكم إذا أقرت المضاجع، وهجع الهاجع، تذكار يوقظ النائم، ويؤنس
القائم، وما ابتسم ثغر فجر، ولا انبلج نوره في بر ولا بحر، إلا ولنا دويكم بالأسحار كدوي الرياح
في البحار، وبها أعلمكم صادع النقل، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم من قبل، وبشر أن دويكم بالأسحار
كدوي النحل، فشرف لكم ببشارة المصطفى، وواها لمصركم وإن كان قد عفا، ولم يبق منه إلا شفا. ثم
إنه حزن لسانه، وخطم بيانه، حتى ضج بالأبصار، وقرن بالإقصار، فتنفس تنفس من قيد للقود
أو ضبطت به براثن الأسد، ثم قال: أما أنتم يا أهل البصرة فما منكم إلا العلم المعروف، ومن له المعرفة
والمعروف، وأما أنا فمن عرفني فأنا ذاك، ومن المعارف من أذاك، ومن لم يثبت عرفاني فسأصدقه صفتي،
أنا الذي أنجدت ثم أتهمت، وأيمنت وأشأمت، وأصحرت وأبحرت، وأدلجت وأسحرت، نشأت بسروج، وربيت على
السروج، ثم ولجت المضايق، وفتحت المغالق، وشهدت المعارك، وألنت العرائك، واقتدت
الشوامس، وأرغمت المعاطس، وأذبت الجوامد، وأمعت الجلامد، سلوا عني المشارق والمغارب،
والمناسم والغوارب، والمحافل والجحافل، والقبائل والقنابل، واستوضحوا من نقلة الأخبار،
ورواة الأسمار، وحداة الركاب، وحذاق الكهان، لتعلموا كم مسلك سلكت، وحجاب هتكت

القنابل — الجحافل الجيوش العظيمة

ومهالك اقتحمت، وملحمة ألحمت، وكم ألباب خدعت، وبدع ابتدعت، وفرص اختلست،
وأسد افترست، وكم محلق غادرته لقى، وكامن استخرجته بالرقى، وحجر سخرته حتى انصدع،
واستنبطت زلاله بالخدع، ولكن ما فرط والغصن رطيب، والعود غريب، وبرد
الشباب قشيب، فأما الآن وقد استشن الأديم، وآد القويم، واستنار الليل البهيم،
فليس إلا الندم إن نفع، وترقيع الخرق الذي قد اتسع، وكنت رويت في الآثار المسندة والأخبار
المعتمدة أن لكم من الله في كل يوم نظرة، وأن سلاح الناس كلهم الجدل، وسلاح الأدعية، فقصدتكم
أنضي الرواحل، وأطوي المراحل، حتى قصدت هذا المقام قبلكم، ولا من لي عليكم، إذ ما سعيت
إلا في حاجتي، ولا تعبت إلا لراحتي، ولست أبغي أعطيتكم، بل أستدعي أدعيتكم، ولا
أسألكم أموالكم، بل أستنزل سؤالكم، فادعوا الله أن يوفقني للمتاب، والإعداد للمآب،
فإنه رفيع الدرجات، مجيب الدعوات، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن
السيئات. ثم أنشد

أستغفر الله من ذنوب ... أفرطت فيهن واعتديت
كم خضت بحر الضلال جهلا ... ورحت في الغي واغتديت
وكم أطعت الهوى اغترارا ... واحتلت واغتلت وافتريت
وكم خلعت العذار ركضا ... إلى المعاصي وما ونيت
وكم تناهيت في التخطي ... إلى الخطايا وما انتهيت
فليتني كنت قبل هذا ... نسيا ولم أجن ما جنيت
فالموت للمجرم خير من ... المساعي التي سعيت
يا رب عفوا فأنت أهل ... للعفو عني وإن عصيت

قال الراوي: فطفقت الجماعة تمده بالدعاء، وهو يقلب وجهه في السماء، إلى أن دمعت
أجفانه، وبدا رجفانه، فصاح: الله أكبر، بانت أمارة الإجابة، وانجابت غيابة
الاسترابة، فجزيتم يا أهل البصرة جزاء من هدى من الحيرة، فلم يبق في القوم إلا من [illegible] لتزويده

ورضح له بميسوره فقبل عفو بره وأقبل يهرف في شكره ثم انحدرت من القصر بأمّ شاطئ النهر واعتنقته إلى حين تحالينا وأبينا التحسس علينا فقلت له لقد عزّت في هذه النوبة فأرتك في النوبة فقال أقسم بعلام الخفيات وغفار الخطيات إنّ شاني لعجاب وإنّ دعا قومك لمجاب فقلت زدني إيضاحا زادك الله صلاحا فقال والله لقد قمت فيهم مقام المريب الخادع ثم انقلبت منقلب المنيب الخاشع فطوبى لمن صحت قلوبهم إليه وويل لمن باتوا يدعون عليه ثم ودّعني وانطلق وأودعني القلق فلم أزل أعاني الفكر وأتشوف إلى خبره ما ذكر وكلما استنبأت خبره من الركبان وجوابة البلدان كنت كمن حاول عنقاء أو نادى صخرة صمّاء إلى أن لقيت بعد تراخي الأمد وتراقي الكمد ركبا قافلين من سفر فقلت هل من مغرّبة خبر فقالوا إنّ عندنا لخبرا أغرب من العنقاء وأعجب من نظر الزرقاء فسألتهم إيضاح ما قالوا وأن يكيلوا لي بما اكتالوا فحكوا أنهم لقوا بسروج بعدما فارقها العلوج ورأوا أبا زيدها المعروف قد لبس الصوف وأمّ الصفوف وصار بها الزاهد الموصوف فقلت أتعنون ذا المقامات فقالوا إنه الآن ذو الكرامات فحفزني إليه النزاع ورأيتها فرصة لا تضاع فارتحلت رحلة المعدّ وسرت نحوه سير المجدّ حتى حللت بمسجده ومراح متعبده فإذا به قد نبذ صحبة أصحابه وانتصب في محرابه وهو ذو عباءة مخلولة وشملة موصولة فهبته هيبة من يلج على الأسود والفيته من سيماهم في وجوههم من أثر السجود ولما فرغ من سبحته حياني بمسبحته من غير أن نغم بحديث ولا استخبر عن قديم ولا حديث ثم أقبل على أوراده وتركني أعجب من اجتهاده وأغبط من يهدي الله من عباده ولم يزل في قنوت وخشوع وسجود وركوع وإخبات وخضوع إلى أن أكمل إقامة الخمس وصار اليوم أمس فجنبني انكفابي إلى بيته وأشركني في قرصه وزيته ثم نهض إلى مصلاه وتخلّى بمناجاة مولاه حتى إذا التمع الفجر وحق للمتهجد الأجر عقّب تهجده بالتسبيح ثم اضطجع ضجعة المستريح وجعل يرجّع بصوت فصيح

خلّ ادّكار الأربع ۞ والمعهد المرتبع ۞ والظاعن المودّع ۞ وعدّ عنه ودع
واندب زمانا سلفا ۞ سوّدت فيه الصحفا ۞ ولم تزل معتكفا ۞ على القبيح الشنع
كم ليلة أودعتها ۞ مآثما أبدعتها ۞ لشهوة أطعتها ۞ في مرقد ومضجع
وكم خطا حثثتها ۞ في خزية أحدثتها ۞ وتوبة نكثتها ۞ لملعب ومرتع
وكم تجرأت على ۞ ربّ السموات العلى ۞ ولم تراقبه ولا ۞ صدقت فيما تدّعي
وكم غمطت برّه ۞ وكم أمنت مكره ۞ وكم نبذت أمره ۞ نبذ الحذا المرقّع
وكم ركضت في اللعب ۞ وفهت عمدا بالكذب ۞ ولم تراع ما يجب ۞ من عهده المتّبع
فالبس شعار الندم ۞ واسكب شآبيب الدم ۞ قبل زوال القدم ۞ وقبل سوء المصرع
واخضع خضوع المعترف ۞ ولذ ملاذ المقترف ۞ واعص هواك وانحرف ۞ عنه انحراف المقلع
إلام تسهو وتني ۞ ومعظم العمر فني ۞ فيما يضرّ المقتني ۞ ولست بالمرتدع
أما ترى الشيب وخط ۞ وخطّ في الرأس خطط ۞ ومن يلح وخط الشمط ۞ بفوده فقد نعي
ويحك يا نفس احرصي ۞ على ارتياد المخلص ۞ وطاوعي وأخلصي ۞ واستمعي النصح وعي
واعتبري بمن مضى ۞ من القرون وانقضى ۞ واخشي مفاجاة القضا ۞ وحاذري أن تخدعي
وانتهجي سبل الهدى ۞ وادّكري وشك الردى ۞ وأنّ مثواك غدا ۞ في قعر لحد بلقع
آها له بيت البلى ۞ والمنزل القفر الخلا ۞ ومورد السفر الألى ۞ واللاحق المتّبع
بيت يرى من أودعه ۞ قد ضمّه واستودعه ۞ بعد الفضاء والسعة ۞ قيد ثلاث أذرع
لا فرق أن يحلّه ۞ داهية أو أبله ۞ أو معسر أو من له ۞ ملك كملك تبّع
وبعده العرض الذي ۞ يحوي الحييّ والبذي ۞ والمبتدي والمحتذي ۞ ومن رعى ومن رعي
فيا مفاز المتّقي ۞ وربح عبد قد وقي ۞ سوء الحساب الموبق ۞ وهول يوم الفزع
ويا خسار من بغى ۞ ومن تعدّى وطغى ۞ وشبّ نيران الوغى ۞ لمطعم أو مطمع
يا من عليه المتّكل ۞ قد زاد ما بي من وجل ۞ لما اجترحت من زلل ۞ في عمري المضيّع
فاغفر لعبد مجترم ۞ وارحم بكاه المنسجم ۞ فأنت أولى من رحم ۞ وخير مدعوّ دعي

قال فلم يزل يرددها بصوت رقيق ويصلها بزفير وشهيق حتى بكيت لبكاء عينيه

٩٥

إن الوفا على الكرام فريضة ۝ واللؤم مقرون بذي الإخلاف ۝
وترى الكريم لمن يعاشر منصفا ۝ وترى اللئيم مجانب الإنصاف ۝

كما كنت من قبل أكبّ عليه ثم برز إلى مسجده بوصول تهجده فانطلقت في ردفه وصليت مع من صلى خلفه ولما انفضّ من حضر وتفرقوا شغر بغر أخذ يهينم بدرسه ويسبك دموعه في قالب أسفه وفي ضمن ذلك يرنّ إرنان الرقوب ويبكي ولا بكا يعقوب حتى شبّبت أنه التحق بالأفراد وأشرب قلبه هوى الانفراد فأخطرت بقلبي عزمة الارتحال وتخليته للتخلي بتلك الحال فكأنه تفرّس ما نويت أو كوشف بما أخفيت فزفر زفرة الأوّاه ثم قرأ فإذا عزمت فتوكل على الله فاستجليت عند ذلك لصدق المحدّثين وأيقنت أن في الأمة محدّثين ثم دنوت إليه كما يدنو المصافح وقلت أوصني أيها العبد الناصح فقال اجعل الموت نصب عينيك وهذا فراق بيني وبينك فودعته وعبراتي يتحدّرن من المآقي وزفراتي يتصعّدن من التراقي وكانت هذه خاتمة التلاقي ۝

قال الشيخ أبو محمد القسم بن علي رضي الله عنه

هذا آخر المقامات التي أنشأتها بالاغترار وأمليتها بلسان الاضطرار وقد ألجئت إلى أن أعرضها للاعتراض وناديت عليها في سوق الأعراض هذا مع معرفتي بأنها من سقط المتاع ومما يستوجب أن يباع ولا يبتاع ولو غشيني نور التوفيق ونظرت لنفسي نظر الشفيق لسترت عواري الذي لم أزل أستتر بها ولكن كان ذلك في الكتاب مسطورا وأنا أستغفر الله تعالى مما أودعتها من أباطيل اللغو وأضاليل اللهو وأسترشده إلى ما يعصم من السهو ويحظي بالعفو إنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة وولي الخيرات في الدنيا والآخرة والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وسلم

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فرغ من تحصيله ليلة التاسع عشر من شهر المحرم الحرام عام ٩٧٦ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

برسم مولانا المقام العالم ۝ الذي هو لطف الله تعالى الراحم ۝ نجل المقام الملك المطهر ابن علي النبي ... فيعجاني

لا زال محروس المقام ظافرا ۝ وآمرا بالعرف ناهيا زاجرا ۝ وبحر جوده للأنام زاخرا ۝ ويكتسي بنيله مفاخرا

يعلو به ذوو الهدى والعلم ۝ ويسبحون في رياض النعم ۝ وهو على مر الدوام شاكرا ... فواصل ما علا

ويدوم أفضل الباري ۝ على النبي الهاشمي المختار ۝ محمد وآله الأطهار ۝ وصحبه الكواكب الدراري